السخرية في الأدب العربي

تأليف

الدكتور نعمان محمد امين طه

أستاذ الأدب العربي

كلية البنات – جامعة الأزهر

١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

السخرية فى الأدب العربى

حتى نهاية القرن الرابع الهجرى

تاليف

الدكتور نعمان محمد أمين طه

أستاذ الأدب العربى المساعد

كلية البنات — جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

دار التوفيقية

للطباعة بالأزهر

تقـــــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وبعد :

فقد راودت نفسي فكرة معالجة هذا الموضوع منذ أمد ، منذ أن قرأت الأدب العربي دارساً ومدرساً . وألممت بتلك النظريات التي دارت حول مناهج البحث فيه : تلك التي تعددت بين مدرسية ، وإقليمية ، ونفسية ، وغيرها[1] .

وقد ران على نفسي صواب دراسة شخصيات الأدب دراسة متئدة دقيقة فاحصة شاملة من جهة ، ودراسة موضوعات الأدب نثره وشعره من جهة أخرى .

وقد أخرجت من قبل - لكي أحقق ما أصبو إليه من معالجة - دراستي عن « جرير » الشاعر الأموي المشهور .

وها أنذا اليوم أقدم دراستي عن غرض من أخطر أغراض الأدب العربي شعره ونثره : ألا وهو « السخرية » التي ظلت موضع اهتمام الأوربيين والأمريكيين وغيرهم منذ أمد طويل ، معالجة وممارسة وتأليفاً ، حتى بلغت كتبهم في ذلك المئات ، وظلت أيضاً تعالج بحثا في دوائر معارفهم تحت ألفاظ متعددة منها Hnmour ,Irony, Satire, Sarcasm, Laughter, Comedy, Caticature ,., etc ... وغيرها ، بينما لا نكاد نعثر على مؤلف عربي يضارع أو يقارب ما هو موجود لدى هؤلاء القوم .

ولعلى قد استطعت - في بحثي هذا عن السخرية - أن أملأ الفجوة التي

---

(١) مناهج الدراسات الأدبية للدكتور شكري فيصل .

نشعر بعمقها : سواء فى محاولة استكناه هذا الموضوع ، أو فى دراسة طائفة من الساخرين الذين ينبثون فى أدبنا العربى هنا وهناك .

ولقد ضربت صفحا عن فصل طويل كنت قد عقدته للتعريف بالساخرين فى الآداب الأجنبية متتبعا إياهم تتبعاً تاريخياً ، ومفصلا القول فى مؤلفاتهم وفى قيمة عملهم الأدبى حتى نستطيع أن نحسن تصور هذا الموضوع فى أدبنا العربى مقارنا بمثيله فى الآداب الأجنبية تصوراً أميناً دقيقاً ، ولكنى خشيت الإطالة ، فعولت على إرجاء هذا الفصل ونشره فى طبعة أخرى إن شاء الله .

والله أسأل عونه وهدايته وتوفيقه ، وأن يجنبنى الزلل ، مرددا فى خشوع وخضوع دائما دعاءه الكريم :

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

د نعمان محمد أمين طه

العباسية فى شعبان ١٣٩٨ هـ
يوليو ١٩٧٨ م

مقــــدمة

١ ــ حاجة الإنسان إلى الضحك :

لكل إنسان حى فى هذا الوجود حاجات مادية كثيرة ، يستطيع فى أكثر الأحياء الوصول إليها ، وقد تحول فى بعض الأحيان بينه وبينها الحوائل والموانع ، فلا يصل إلى بغيته : إما لأسباب مادية تجعل ما يبغى تحقيقه أمراً صعباً أو مستحيلا ، وإما بسبب طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه ؛ إذ تختلط رغباته برغبات غيره ، وتصطدم مطالبه بمطالبهم ، فيتوقف وصوله إلى أهدافه على مقدار علاقته بهم ، وعلاقتهم به .

فإذا أخفق الإنسان فى الوصول إلى غاياته ، امتلأت نفسه أحقادا ، ما تلبث أن تؤثر فى جسمه وجهازه العصبي تأثيراً سيئاً ، ويزداد هذا التأثير سوءا حتى ينتهى إلى أحد أمرين :

إما أن يصاب بعلة فى عضو من أعضائه ، أو ينتابه فتور عام يضنى به الجسم ويهزل .

وقد يحاول المرء أن يخفف عن نفسه ما يفدحه من آلام فينجح فى التخلص منها أو من بعضها نجاحا ما ، بالتسرية عن نفسه أو بالاختلاط بأفراد جنسه ، شاكيا بثه وهمه ، أو مستمعا إلى ما يشبه آلامه ، فتخف تلك بمثيلاتها تأسياً . . . وهكذا تحدث شبه حركة داخلية فى الجسم ، يفطن إليها الإنسان بطبيعته ، فيزاولها ، وكذلك قد يكون للحركة الخارجية التى تهتز بها أعضاء الجسم ، كانتقاله من مكان إلى آخر مغاير لما كان فيه ، قد يكون لهذه الحركة تأثير قوى فى تخلصه شيئا فشيئا وإلى حد ما ، مما يعانى من آلام[١] .

---

(١) وأستطيع أن أسوق دليلا على ذلك تلك الحركات العنيفة التى تقوم بها بعض المريضات حينما يسمعن دقات بعض الآلات الموسيقية الصاخبة أو بعض =

إذن ، فالحركة - داخلية نفسية أو خارجية عضوية - هى من أقوى الدعائم التى يحاول الإنسان بها مواجهة عوامل الهدم فى الطبيعة ، بالتخلص مما يعكر مزاجه من شوائب مادية أو نفسية ، وقد عبر أرسطو عن الجانب النفسى من تخلص الإنسان من آلامه بقوله : « إنه يطهر عواطفه[1] ».

والطفل - بمحض غريزته - لا يستطيع إلا أن يقضى طفولته وصباه متحركا فى كل الأمكنة التى تستطيع أن تحتمل حركته ، وتتسع لها . وعملية نموه فى الحقيقة ما هى إلا حركة مستمرة . وما الحياة إلا حركة دائبة تؤدى نشاطها داخل العالم الأكبر المتحرك بأجرامه المختلفة المتعددة ، سواء منها الذى وصل إلى علم الإنسان ، أو مالم يصل إليه بعد ، بأبحاثه الفلكية .

إذن : فالجانب المادى الداخلى من جسم الإنسان ينشد الحركة الخارجية لمعالجة الرواسب المتعددة والتخلص منها ، كذلك الجانب الذهنى من الإنسان يحاول بالحركة أن يطرد الآلام التى هى أفكار ذهنية وعواطف لا يحبها ، بل يمقتها كل المقت ، ويحاول أن يتخلص منها .

وليست هناك وسيلة للتخلص من العواطف المؤلمة المختلفة إلا بحركة ذهنية داخلية تطرد هذه الآلام خارجا ، ولا تتولد هـــذه الحركة إلا بالضحك .

* * *

= أنواع الموسيقى الراقصة المحركة كالرومبا والسامبا ، فيتخلصن مما يكن قد أصبن به من أمراض عصبية : كتلك الفتاة العانس التى أشار عليها أحد الأطباء النفسيين بسماع تلك الموسيقى - وكانت مصابة بمرض عصبي - فشفيت منه .

(١) كتاب الشعر لأرسطو ترجمة إحسان عباس ص ٦ .

٢ ــ محاولة تعريف الضحك :

والضحك استعداد فطرى فى الإنسان ، لا يكتسبه بالتجربة ، وهو انفعال إنسانى خاص يتميز به عن بقية الحيوانات ، ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك . وله ـ كـكل الغرائز ـ أركان ثلاثة : مؤثر أو باعث يستثيره ، وحالة انفعالية مصاحبة ، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها . ولذلك فالمقصود بالدراسة ذلك الضحك العميق الذى ينتهى بالإنسان إلى حالة الانشراح المعروفة لا مجرد السمات الخاصـــة التى تظهر على الفم وأسارير الوجه .

وما الضحك إلا حركة داخلية وخارجية ، لها سماتها المعروفة بإخراج صوت خاص من جهة ، وباهتزاز الجسم هزات تختلف وقوة الضحك من جهة ، وطريقة الأشخاص وعاداتهم من جهة أخرى .

وإذا تأملنا الضاحك فى أثناء ضحكه ، واستبطنا أنفسنا فى أثناء عملية الضحك تبينا ـ لأول وهلة ـ انفراج الفم وإخراج هذا الصوت الذى يبدأ بحرف (هـ . . .) والذى يخرج من الجوف فى صورة أمواج متتابعة كأنه تيار من الهواء يجتذب معه آلام الضاحك إلى الخارج . وكذلك تحريك أعضاء الجسم كالرأس إلى الوراء والرجلين واليدين . ويقال إن هذه العملية ــ عملية الزفير والشهيق فى أثناء الضحك ــ تؤثر فى الحجاب الحاجز ، فيؤثر ــ باهتزازه ــ فيما تحته من أعضاء داخلية، فيسرع نشاطها ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوصف ، هو مايحدث من تأثير للاهتزاز العضوى الداخلى فى الاهتزاز النفسى،فينتج مايسمى السرور أو الانشراح Euphoria أو الارتياح أو الابتهاج أو مايمكن أن نسميه الانتعاش الجسمى النفسى .

وقد حاول العالم الإنجليزى ، سبنسر تفسير الضحك بما يشبه تفسيرنا

السابق ويعرف تفسيره بنظرية الطاقة[1] . وبذلك كان سبنسر ممن يفسرون الضحك بتفسير فسيولوجي ، وهناك بعض الفلاسفة يحاولون تفسيره تفسيرا نفسيا محضا ضاربين صفحا عن الناحية الفسيولوجية التي يحسها الإنسان في أثناء الضحك . وهكذا انقسم الفلاسفة منذ فجر الإنسانية إلى فريقين: أحدهما يفسره ذلك التفسير الفسيولوجي، والآخر ذلك التفسير السيكولوجي، وأخيراً حاول بعضهم الربط بين التفسيرين فيما سمي بالسيكوفسيولوجي . ولعل الفلاسفة الوجوديين هم أقرب الناس إلى فهم هذه الظاهرة الإنسانية فحاولوا الابتعاد عن محاولة تفسيرها قائلين : « يحسن بنا أن نقلع عن محاولة تفسير الضحك أو البحث عن علل للفكاهة ، لكي نقتصر على النظر إلى الملابسات أو الذرائع التي تكتنف تلك الظاهرة ولو أننا حاولنا أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية ، لتبين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ماهنالك من مواقف بشرية[2] . من العبث أن نجتزيء في فهمنا للضحك بتطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتأول شتى المواقف البشرية المضحكة ، لأن الحياة البشرية أكبر من أن تحيط بها نظرية تقوم بتأويل ماتنطوى عليه مواقفها الكثيرة من قيم ومداولات[3] .

٢ — الضحك وأنواعه :

وليس للضحك أنواع مختلفة متباينة كما يفهم من عنوان هذه الفقرة ، ولكنها أوجه مختلفة لذلك الجسم الحي المسمى بالضحك[4] ، وذلك لأن الحدود التي تفصلها هي من اللطف بحيث قد تخفى على عين الإنسان

(١) هربرت سبنسر : كتابه فسيولوجية الضحك .
(٢) زكريا ابراهيم : سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٨٩ و ٩٠
(٣) المرجع السابق
(٤) المرجع السابق

ولا يستطيع التمييز بينها تمييزاً تاماً . غير أننا يمكن أن نعد من حالات الضحك أو ما يضحك : الفكاهة والسخرية . وكثيراً ما يخلط الناس بينهما ولا يكادون يفرقون بينهما حين يشملهم الجو المرح الضاحك وتنبعث من أفواههم النكات التي يمكن أن تكون لمجرد الإضحاك فحسب وحينئذ فهي الفكاهة ، وقد تكون بقصد اللذع والإيلام فهي سخرية ، وقد تجمع بين الغرضين .

فمن النكت الفكاهية ما يروى عن أحد المفرطين في شرب الخمر أنه قال له أحدهم : إن الخمر انتحار بطيء .

فأجاب : ولماذا تريدونني على أن أنتحر بسرعة ؟ !

ومن النكت الساخرة نادرة تروى عن أحد الأمراء ، فقد التقى يوما بغريب يشبهه تمام الشبه ، فابتدره بقوله :

— هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي ؟

فأجاب الغريب ببديهته الحاضرة : كلا يا سيدي ، بل أبي[1] !

وإذا روى أحد الأشخاص النكتة السابقة لبعض الجالسين بقصد الضحك فهي فكاهة ، أما إذا حدثت فعلا في مجلس من المجالس فيعد الرجل ساخراً بالأمير ، ولذلك تسمى سخرية .

ومثلها ما يروى عن الممثل الساخر شارلي شابلن حين سئل عن المرأة الطيبة في العالم ، فقال : امرأتان طيبتان في العالم . . . إحداهما ماتت ، والثانية مفقودة .

وهكذا نرى أن كل ما يضحك ، فهو هزل ، ولكنه ينقسم قسمين :

---

(١) وقد روت كتب الأدب هذه النادرة بين الحطيئة والفرزدق .

أحدهما ليس له غرض أو هدف إلا الإضحاك فحسب وهو ما يطلق عليه الفكاهة ، والآخر له غرض هادف واضح ـ سواء أكان معينا أو غير معين حين إلقاء النكتة ـ وهو السخرية .

ولذلك كان المزاح يشمل النوعين : التفكه والسخرية أى الإضحاك واللذع ، ويكون المزاح فى أول أمره لإشاعة جو مرح ضاحك بين الجالسين ولكنه كثيرا ما ينقلب فى النهاية إلى سخرية يتضرر منها بعض الأفراد وقد يعقبها الشجار ، ولهذا اشتملت كتب الأدب القديمة على النص على كراهية المزاح(١) .

٤ ـ السخرية والهجاء :

عرفنا فى الفقرة السابقة أن السخرية تلتقى مع الفكاهة فى المنبع الذى تنبعان منه ، وقد تختلط إحداهما بالأخرى كامتزاج رحيق فاكهتين مختلفتين، وقد تفترقان ، كذلك تمتزج السخرية بالهجاء من ناحية الوظيفة ولكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التى يشتمل عليها كل منهما . فالهجاء طريقة مباشرة فى الهجوم على العدو ، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة فى الهجوم(٢) .

* * *

٥ ـ ألفاظ السخرية وتعريفها :

والموضوع الذى نحاول بحثه عدة ألفاظ فى اللغة العربية سنحاول

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى ، وحماسة ابن الشجرى وغيرهما .

(٢) Edgar Johnson : A Treasury of Satire, P, 13

فيما يلي أن نسوق مرادها المختلفة ، والمعانى التى تحملها فى طياتها بحروفها ورنينها: فهناك الاستخفاف والمداعبة والتعريض والضحك والهزء والتندر والسخرية والتهكم . وسنحاول التعرض لمعانى أهم الألفاظ السابقة :

أما مادة « هزء » ففيها الحرفان (الهاء والزاى) وهما يوحيان بالخفة واللين[١] ، وأصلها من قولهم : أهزأه البرد : إذا قتله ، وهزأ الرجل إبله هزءاً : قتلها بالبرد ، وهزأت الراحلة : إذا حركتها[٢] . فى المادة تحريك وقتل بارد لين من غير عنف أو صوت ، وتكسير .

أما مادة « تهكم » ففيها التهكم : وهو السيل الذى لا يطاق ، والتهكم تهور البئر ، وتهكمت البئر : تهدمت . والتهكم : الطعن المدارك ، فالمادة فيها الهجوم بقوة وبصوت مسموع ، كذلك فهى تصف صاحبها بالكبرياء: فالمتهكم: المتكبر ، والهكم: المتقحم على مالا يعنيه الذى يتعرض للناس بشره ، وقد تهكم بنا : عبث بنا وزرى علينا[٣] .

إذن : فالتهكم : استهزاء فى قوة ، وعدم خفاء ، وفى تقحم .

أما مادة « تندر » فهى من ندر الشىء سقط وقيل سقط وشذ ، وقيل سقط من خوف شىء أو سقط من جوف شىء أو من أشياء فظهر . ولم أجد فى المعاجم تندر عليه ، والظاهر أنها أخذت من أصل المادة « ندر » وفيها محاولة الإسقاط أو إظهار العيوب بطريقة ملتوية فيها تباله وتجاهل وإظهار نوادر الشخص الذى يتندر منه،وشذوذه .

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى ٢ / ٥٤٤ فى المواد : هزج ، هز ، هزيز الريح حفيفها ، اهتز النبات : إذا طال «من غير صوت» . هزل « الهزلى الحيات»

(٢) اللسان : هزأ .

(٣) اللسان:هكم ، أساس البلاغة للزمخشرى ٢/٥٥ ، خزانة الأدب للحموى ص ٩٨ .

أما السخرية : فمن مادة (س خ ر) وأصل التسخير : التذليل، جاء فى (اللسان : سخر) سخرته : أى قهرته وذللته . وسخره تسخيرا : كلفه عملا بلا أجرة ، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك : « مسخر » وتسخرت دابة لفلان: أى ركبتها بغير أجر. وأصل المادة فى المعجم تدور بعامة حول « اللين » من الناحية الصوتية فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك[١] ، سواء أكان الحرفان (س ، خ) متواليين كما ذكرنا فى الهامش ، أو منفصلين[٢] ، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين (س ، خ) فى كلمة (سخر) يوحيان باللين (التذليل) والخفاء ، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة .

وتذكر هذه الألفاظ فى المعاجم مترادفة بمعنى السخرية ، ولم تحاول

---

(١) سخا : تدور حول لين الطبع ، من « السخاوى » الأرض اللينة التراب والسخواء الأرض السهلة الواسعة .

— سخب : قلادة تتخذ من قرنفل وسك ومحلب ، أو هى خيوط ينظم فيه خرز : فخيط هذه القلادة وما ينظم فيها كله لين توحى به العين والخاء .

— السخت : أول ما يخرج من بطن ذى الخف ساعة تضعه أمه .

— السخاخ : الأرض الحرة اللينة .

— السخد : دم وماء فى السابياء ، وهو السلى الذى يكون فيه الولد .

— سخبر : شجر إذا طال تدلت رءوسه وانحنت .

— السخط : ضد الرضا .

— السخف : رقة العيش ، وبالضم رقة العقل . وثوب سخيف: رقيق النسج.

— السخلة : من أولاد المعز والضأن ساعة يولد .

— والساخن : الماء الساخن : الخفيف المرتفع . . . (انظر اللسان فى المواد التى سبقت) .

(٢) فى اللسان : سبخ « الصباخ » يكون تحت الأرض « ، سفخ ، صخ ، سنخ: « السنخ : الأصل ، وهو مختف تحت الأرض » ، ساخ فى الأرض : اختفى .

التفريق بين معانيها الدقيقة ، بل لم تهتم بإيراد شواهد كثيرة لكل كلمة ، وقد تركت أيضا المعنى العام الذى شمل السخرية والاستهزاء والتهكم بدون تعريف يقربه من الأذهان ، يدل على ذلك ما جاء فى اللسان فى مادة (عنظ) قال : عنظى به : سخر منه وأسمعه القبيح وشتمه ، وفى مادة (فلح) التفليح: المكر والاستهزاء ، وقد فلحوا به : أى مكروا به ،وفلح بهم تفليحا مكر وقال غير الحق .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فقد اخترنا كلمة « سخرية » عنوانا لبحثنا ، لأنها أقرب الكلمات دلالة على الموضوع : إذ ورد معناها فى اللغة مشتملا على التذليل ، والساخر ـ فى الحقيقة ـ يحاول إخضاع خصمه له ، وفى هذا ما فيه من تشف عميق ، وإراحة لنفسه المتعبة المكدودة ، وكذلك لاشتمال الكلمة على السين والخاء : وهما الحرفان اللذان يعبران عن اللين والطراوة والخبث والدهاء ، بعكس لفظة « تهكم » التى تدل على محاولة الهدم المفاجىء ، أو كلمة « الهزء » التى تدل على السخرية الصريحة السريعة العابرة فهى أشبه بالجملة العارضة منها بالروح الذى وطد العزم وكرس قواه لهذا الصنيع : وهو الاشتفاء من الناس ـ بسبب ما ـ بالسخرية منهم: فنى السخرية لين أشبه بلين الأفاعى ، والساخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر ، ولكنه يقتل بسخريته . وهنا يلتقى المعجم العربى مع الكتاب الأوربيين فى محاولتهم تعريف السخرية حين يقول أحدهم : « طريقة من طرق التعبير ، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة. وهى صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء، التى إن فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة ، وأحسن عرضها ، تكون حينئذ فى يده سلاحا مهما[1] » .

---

(١) Harmsworth's Universal Encyclo. V. 5. P. 4315

وقال آخر : « ... وهى طريقة فى التهكم المرير ، والتندر أو الهجاء الذى يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان ، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا » (١).

وقال ثالث : « السرية سلاح شائع عند جميع الكتاب ، والمؤلفون الكبار يأخذون أنفسهم بممارستها ، وهى تظهر فى شعر الملاحم وفى التراجيديا علاوة على الكوميديا ، والخطباء يستمدون منها النبرات المؤثرة وكذلك تتخذ البلاغة منها سلاحا أشد فتكا لا يمكن إغفاله أو الاستهانة به . وتكون السخرية - فى بعض الأحيان – سمة دالة على قمة اليأس » (٢) .

ويمكن تعريف السخرية بعامة بأنها : النقد الضحك أو التجريح الهازىء . وغرض الساخر هو النقد أولا والاضحاك ثانيا ، وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا : إما بوضعه فى صورة مضحكة بواسطة التشويه — الذى لا يصل إلى حد الإيلام — أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية أو ما فيه من عيوب حين سلوكه مع المجتمع ، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة .

ولا نرمى بالتعرف السابق حصر المضحك أو السخرية فى تعريف لأن عمليه السخرية وكيفيتها شىء حى قبل كل شىء : « ومهما يكن هذا الشىء خفيف الوزن ، فإنا نعامله بما تستحقه الحياة من احترام » (٣) وقد أصاب علم المنطق الحديث والباحثون فيه بقولهم : لا يمكن تعريف شىء من الأشياء على وجه الأرض تعريفا جامعا مانعا ، لأن الشىء الحى لا يمكن الإحاطة به وتصويره ببعض ألفاظ قاصرة إذ هو حى متحرك ، والألفاظ - مهما تكن -

---

(١) Americana V .15 P. 390

(٢) La Rousse V .20 P. 793

(٣) Henry Bergeson, Le Rire P. 13

جامدة ساكنة ، فكيف يمكن وضع الحى فى قوالب جامدة ساكنة ؟ فهو إما أن يوضع فيها فيموت وإما أن يحطمها ويخرج إلى متنفس الحياة لكى يبقى حيا خالدا فى الأنفس الحية الخالدة ، ومصداقا لهذا جاء فى كتاب علم النفس: « . . . إننا لو حاولنا حصر الانفعالات التى تدخل فى تكوين انفعال ما — على مايظهر لنا - لبقيت بقية تقصر اللغة عن تسميتها ووصفها... فمهما يبلغ الانفعال من التعقد والتركيب ، فلابد أن يدخل فى تركيبه عنصر نفسى خاص ، ليس من المستطاع تسميته »(١) .

والسخرية يحسها المتفنن وقارىء الفن معا ، يتفقان فى الاحساس بها والاحتفاء بها دون أن يعنيهما تعريفها ، لأنهما فى الحقيقة ربمـــا عجزا عن تعريف ، ولذلك حاول آدلر Adler تحليل السخرية — بصفتها انفعالا مركبا — فقال إنها مركبة من غرائز ثلاث : الغضب ، والانتقام ، والخضوع ، ثم قال بعد هذا صادقا : « ولست مقتنعا إلى اليوم بأى تعريف لها فيما قرأته إلى الآن »(٢) وقال عن اللعب والمجانة — وهما عنصران من عناصر السخرية : « وهما من الانفعالات والغرائز التى يصعب تعريفها »(٣) وقال كاتب مادة « فكاهة » Humour فى دائرة المعارف البريطانية : « وهى أى الفكاهة - إحدى صفات الساخر التى تسيطر عليه ، وهى اصطلاح لا يأبى أن يعرف فحسب ، بل بمعنى آخر ، تتعالى عن التعريف ، ويمكن أن يعد من علامات النقص فى روح الفكاهة أن تبحث عن تعريف للفكاهة »(٤)

---

(١) حامد عبد القادر وآخرون : علم النفس ٣ - ١٧٦ .

(٢) آدلر : العقل الباطن ص ٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٤) Encyclopaedia Britannica: Humour

وعلى هذا يكون توضيح السخرية بمحاولة وصف الفنان الساخر، واستبطان نفسه، ووصف وقعهـا على الإنسان، لا بمحاولة تعريفها بعبارات منطقية محدودة.

* * *

أسباب السخرية :

والساخر هو ذلك المتعالى بنفسه عن المجتمع الذى يضحك منه أو من أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقده على المجتمع، لما يشعر به من نقص خلق أو حرمان ويتقد — بما منحه الله من موهبة السخرية — الأفـراد أو المجتمع لإخفاء هذا النقص.

وقد ترجع إلى عداوة بينه وبين الشخص الذى ينقده لسبب من الأسباب التى تنجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس، لغرض الانتقام.

وقد ترجع إلى تعالى شخص ناقص لا يحس ما فيه من نقص، فيضطر الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو إلى منطقه، كما يقول برجسون Bergeson ويحاول حينذاك أن يبحث عن عيوبه فيضخمها ويكبرها ويجعل منها بفنه أداة للضحك، وقد صـدق أدلر Adler حينما قال: « البغض والانتقام هما الشيطانان التوءمان اللذان يولدان السخرية »[١].

وقد تتولد عن تعالى الشخص الساخر نفسه، ولشعوره بالغرور، فهو لا يفتأ ينقد ما فى المجتمع من نقائص أو مفارقات ولذلك قال العقاد:

« . . . فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر، بل هما جماع أبوابه كافة »[٢].

---

(١) أدلر : العقل الباطن ص ١٠٧

(٢) عباس محمود العقاد : مطالعات فى الكتب والحياة ، طبعة التجارية سنة ١٩٢٦ ، ص ٨٩

وقد تكون نابعة من حساسية الناقد نفسه ، فهو يكون ذا عين بصيرة نفاذة : يحس نقائص المجتمع ، ثم يكون ذا روح مرح ضاحك يتناول العالم ومافيه تناولا بأساليب السخرية المختلفة ، يقصد من وراء ذلك الإصلاح ، وفي طيات ذلك الإضحاك ، أو يقصد معالجة هذه الحساسية - إن صح هذا القول - لأن الحساسية مرض ، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه فيجعله لا يرضى عن شيء في الحياة ، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعي وحب البقاء ، إلى الفطنة لهذه الوسيلة في علاج نفسه ، أو التنفيس عما يشعر به ، ولذلك قال جوته الشاعر الألماني قولته المشهورة : « السرور يولد القوة » . والناس في الحقيقة ينهجون إحدى سبيلين في موقفهم من الحياة : إما أن يستبد بهم الغضب إلى النهاية ، وإما أن يحولوا هذا الغضب إلى سخرية من الناس . وقد حاول آدلر Adler أن يرجع السخرية أو يحللها - كانفعـــال مركب - إلى الغرائز البسيطة التي تتركب منها ، فقال : « هي خليط من انفعالين هما الغضب والاشمئزاز : فنحن إذ تثور فينا غريزة النفور نشمئز ، فإذا عدا الشيء الذي أثار اشمئزازنا على صفاء عيشنا ، من أية ناحية من النواحي ، بعثت فينا غريزة المقاتلة والانفعال المقترن بها ، وهو الغضب ، فدفعا بنا إلى السخرية مما بعث اشمئزازنا أو ممن أثاره في نفوسنا . ولا يخلو هذا من عنصر الزهو ، لأننا ننزع إلى الرضا عن أنفسنا والاسترواح إلى شعورنا ، عقب مطاوعة السخرية والانسياق معها »[1] .

وقد ترجع الرغبة في السخرية من الغير إلى استعداد الفنان المزاجي الذي يكون ذهنه مهيئا دائما إلى التعريض بالغير ، والسخرية من الناس ، مع انتفاء دافع شخصي معين ، يدفعه إلى ذلك[2] . ويمكن أن يصل حد هذا

---

(١) آدلر : العقل الباطن تعريب حافظ محمود ص ٧٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠

الدافع أو الوازع إلى أن يكون الشخص نفسه ميالا إلى الشر بطبعه ، يميل إلى أغاظة الناس والتشفى منهم ، اضعة أصله ومحاولة الانتقام من الناس كرها وحقدا ، وهذا متأصل فى الطفولة الإنسانية حينما نرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة أو يعتدون عليها من غير مارحمة أو شفقة ، لغير سبب ظاهر . ونرى بعض الناس قد تأصل فيهم الميـل إلى المشاكسة وجرى فى طبعهم إلى حد مضايقة غيرهم ، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألمون[١] ، وأوضح مثال على ذلك «الحطيئة» فى الأدب العربى و «برناردشو» فى الأدب الإنجليزى ، ففد كان الأول مغموز النسب محروم الميراث ، لقى بين القبائل ، و نشأ الثانى فى بيئة اجتماعية منحلة : فكان أبوه يدمن الخمر ولا يحفل بشىء ، وإذا أصيب بكارثة أو محنة ، رفه عن نفسه بالضحك والسخرية ، كما أن أمه تركت زوجها ، وعاشت مع معلم الموسيقى دون أن تحفل بمهام البيت ، ودون أن تلقى بالا إلى شئون الزوجية .

* * *

٦ — مقومات السخرية :

ترتبط السخرية فى أعماقها بالمجانة ، التى يمكن أن تكون صنـــو « اللامبالاة » لأن الساخر يجب أن يكون ماجنا ـ ولو فى أعماقه ـ ويجب أن يكون مباليا بمن أمامه ، وإلا ما استطاع أن يجرؤ تلك الجراءة ، وأن

---

(١) وللتدليل على ذلك : نذكر حادثة الخادمة التى روع لها الناس ونشرتها الصحف ، وملخصها أن خادما عملت بمنازل مصر الجديدة وأخذت تعتدى على بنات مخدوميها الصغيرات بأن تفض بكارتهن ، ولما سئلت فى أثناء التحقيق معها قالت : إنى أشعر بلذة فى ذلك انتقاما ممن اعتدى على وأنا صغيرة !.

يضحك منه بالتقليد والمحاكاة ، أو بالحركات ، أو بالألفاظ (فى فن الأدب) أو بالرسم (من ناحية فن الكاريكاتور) . ولقد عدَّ أدلو Adler المجانة - حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التى تتركب منها - عاطفة تتركب من : الزهو ، والمنافسة ، والغرور ، والاعتداء[1] .

قال : « المجانة أساسها - على الأرجح - الانفعال المسمى بالزهو مقترنا بالاعتداد بالذات ، ولا نزاع فى أننا نحس أننا أسمى من الشخص الذى يثير فينا المجون ، وإن كان عنصر الدهش أيضاً عاملا من العوامل التى تبعث على الضحك والمزاح ، كما تنطوى المجانة على عنصر المنافسة ، وأدخل ما تكون النكتة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا ، ونتفوق بها على أهل مودتنا[2] » .

وكما أن الساخر يجب أن يكون قوى الأعصاب ، يحمل فى طياته روح - اللامبالاة ، أو المجون ، كذلك لابد له من أن يكون على قدر كبير من الذكاء وقوة المخيلة أو الخيال الهازل الذى يمكنه من اقتناص أو ابتداع الصور النادرة التى يستطيع بها إغاظة خصمه من جهة ، وإضحاك نفسه والناس منه ، من جهة أخرى ، ولذلك ارتبط معنى الذكاء بمعنى الفكاهة فى لفظه Wit الانجليزية .

والحق أن الإنسان الذى حرم الذكاء لا يستطيع أن يدفع عن نفسه غائلة الأعداء المعتدين ، فيأخذ فى كبت شعوره بالضيق والكراهية والألم ، حتى يختل - أو يكاد - أعصابه ، كما حدث لبطل رواية Wuthering Heights المشهورة فى الأدب الانجليزى :

أما إذا كان على جانب من الذكاء والفطنه فى تخير الإجابة عما يسدد

---

(١) العقل الباطن : لادلر : ترجمة عباس حافظ .

(٢) المرجع السابق .

إليه من سهام النقد أو التحقير والازدراء ، وكل ما يثير الغضب والألم والحنق بكلمات لاذعة فكهة ، فإنها تسرى عنه من جهة ، وتفعل فعلها فى عدوه أو خصمه من جهة أخرى، وتشيع فيما حولها جو المرح الذى يؤمن الشخص الضعيف من غائلة المعتدى . فتخف وطأة غضبه - ولو إلى حين - بسبب السخرية .

ولعل من أسباب ارتياح الساخر إلى نجاح سخريته ، وإلى أنها سلاح أقوى من « السب » أو الضرب أو العراك ، أن هذه الوسائل البدائية السالفة الذكر وسائل الإنسان الضعيف الحيلة الذى ينتقل غضبه وشيكا من الإحساس إلى العضلات بطريقة بدائية بسيطة تشعر وتدل على انهيار الشخص النفسى لما حدث له من خصمه ، أما الساخر الجلد - الذى يملك نفسه عند الغضب كما قال الحديث الشريف - فيضحك منه لإشعاره بأنه أقل من أن يفعل به ما يسبب إيلامه . ولذلك تمدح العرب قديما بالتجلد كما قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ولذلك وصلت قوة أعصاب برنارد شو وكبرياؤه إلى أنه كان يتحدى الموت وأنه كان يقول : لن أموت قبل أن أبلغ المائة من عمرى ! ظنا منه أنه - بسلامة أعصابه - التى كان يريحها أولا فأولا بالتنفيس عن نفسه بسلاحه الرهيب وهو السخرية ، يستطيع أن يحتفظ بصحته وبنشاطه حتى يبلغ من عمره المائة عام. وأى رجل أقوى من هذا الساخر الأيرلندى الذى رد على تلك المرأة الإنجليزية التى جاورته عرضا فى القطار ، ولم تكن تعرفه ، فسألته : أأنت انجليزى ؟ فرد عليها ساخرا : لا ، إننى إنسان .

وجلس يوما فى مأدبة عشاء إلى جوار فتاة جميلة ، فدار بينهما حديث قالت خلاله الفتاة للفيلسوف الأيرلندى :

- لو تزوج رجل مثلك - يا مستر شو - بامرأة مثلى ، لكان لنا - بلا شك - أذكى الأبناء وأجملهم .

فما كان من برنارد شو سوى أن رد عليها بقوله :

ومن يدرى يا آنستى ، فربما ورث أبناؤنا حظى من الجمال ، وحظك من الذكاء ! !

٧ - السخرية فى البلاغة العربية :

إن الموضوع الذى نبحثه الآن يمس أكثر ما يمس - من العلوم العربية - علم البلاغة ، ولذلك سأحاول أن أدرس نصيبه من عناية البلاغيين القدامى والمحدثين وإلى أى حد فهموا كلمة « سخرية » أو مترادفاتها ، وإلى أى حد استعملوها .

* * *

فإذا بدأنا البحث فى تاريخ الكلمة نفسها - أو مرادفاتها - وجدنا أن النصوص الجاهلية التى ذكرت فيها قليلة جداً[1] وأقدم مايعتمد عليه فى ذلك هو القرآن الكريم : إذ ذكر جميع المترادفات تقريبا التى تعنينا فى هذا الموضوع : سخر ، هزىء ، ضحك . ولم يكن نصيب هذه الكلمات من كثرة الاستعمال فى الأدب الأموى بأحسن منها فى الأدب الجاهلى ، فنرى الكميت يقول فى إحدى الهاشميات :

يعيبوننى من خبثهم وضلالهم على حبكم، بل يسخرون وأعجب[1]

* * *

(١) انظر أبيات عمرو بن ثعلبة التى رواها أبو حاتم السجستانى فى كتاب المعمرين من العرب ص ٣٣ ونقلها د . ناصر الأسد فى مصادر الشعر ص ٢٢١ .

تهزأت عرسى واستنكرت شيبى ، ففيها جنف وازورار =

وأقدم كتاب أدبي ذكرت فيه هذه الكلمة هو ترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة فى أوائل العصر العباسى ، إذ ذكرت هذه العبارة على لسان الملك وكان يعنى بها معناها الأدبي : « إنك لتسخر بي يا إيلاد »[١] .

أما من الناحية النقدية التى تعنينا ، فنعثر على الكلمة فى طبقات ابن سلام إذ يرد فيه هذا النص : « فكان من الشعراء من يتأله فى جاهليته ويتعفف فى شعره ، ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهكم فى الهجاء ، ومنهم من كان ينعى على نفسه ، ويتعهر ، ومنهم امرؤ القيس والأعشى ، وكان الفرزدق أول أهل الإسلام فى هذا الفن ، وكان جرير - مع إفراطه فى الهجاء - يعف عن ذكر النساء ، كان لا يتشبب إلا بامرأة يملكها . فنرى[٢] فيه كلمة « تهكم » التى تعتبر صنوا لكلمة سخرية أو مرادفة لها ، ولكن معناها فى هذا النص مبهم إلى حد ما : إنها لم ترد فى النصوص الجاهلية بالمعنى الصريح المفهوم من كلمة سخرية[٣] ، ولم تذكر مرة واحدة فى القرآن الكريم على الرغم من أن أخواتها من الكلمات الأخرى المرادفة لها قد ذكرت فى عدة مواضع منه ، وإذا حاولنا أن نعرف ما يوحى به النص من معناها ، وجدنا أنه معنى أخلاقى أكثر مما هو فنى أدبي ، يدل عليه ما قبله وما بعده من ألفاظ ، وما تحمله تلك الألفاظ من معان : يتعفف ، لا يستهتر بالفواحش يتعهر ، يعف . إذن فالكلمة ذكرت بصدد الهجاء البعيد عن الفحش ، والروح المحيطة بها روح أخلاقية بحتة . . . أى أنه يمكن أن يفهم من كلمة

= لا تنكرى هزءا ولا تعجبى فليس بالشيب على المرء عار
عمرك ، هل تدرين أن الفتى شبابه ثوب عليه معار
وانظر هاشميات الكميت : تحقيق نعمان محمد أمين طه ص ٤٠ ، ٤١ .

(١) كليلة ودمنة : (طبعة دار المعارف سنه ١٩٤٢) .

(٢) طبقات فحول الشعراء : لابن سلام ص ١٥ .

(٣) بل وردت بمعنى عدم قول الحق أو التخابث (أنظر مادة فلج به فى اللسان)

«التهكم» الإغاظة بذكر الفعل الفاحش أو العورات أو السباب الخلق أو ذكر النساء ورميهن بالفاحشة صراحة كقول ـ سويد بن أبى كاهل فى هجائه بنى غبر :

من سره . . . . بغير مال ‏ فالغبريات على طحال[1]

ويؤيد ذلك ما ورد عن امرىء القيس وفحشه فى معلقته واستهتاره . وكذلك ما عرف عن الفرزدق الذى قال عنه جرير : « تدليت تزنى من ثمانين قامة » .

ويمكن أن يدخل « القول بالفاحشة والهجاء بها » فى موضوع «التهكم» ولكنه لا يعنى « طريقة التهكم وأسلوبها » تلك الطريقة التى تميز « التهكم » كأسلوب أكثر مما تميزه كموضوع ، لأن الهجاء والتهكم تقريبا ـ وإلى حد كبير ـ يشتركان فى الموضوع ، ولا يشتركان فى الطريقة التى يتناول كل منهما هذا الموضوع بها .

هذا من ناحية تخريج النص أو تحليله ، فإذا قرأنا تعقيب أبى عمرو ابن العلاء على قول زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها ‏ قرى بالعراق من قفيز ودرهم

استطعنا أن نستبعد معنى « التهكم » الأسلوبى الذى يعنيه ابن سلام فى النص، قال أبو عمرو بن العلاء تعقيباً على بيت زهير : هذا منه تهكم[2] وكيفما كان الأمر ، فلا نستطيع أن نفهم من النص أكثر مما توحى به العبارة برمتها ، وكذلك نستطيع أن نقول إن الكلمة كانت ولا شك مفهومة معروفة

---

(١) اللسان : مادة غبر .

(٢) انظر ديوان زهير : (طبعة دار الكتب المصرية) ص ٢١ حيث ينسب ذلك إلى الأصمعى . وفى شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢٧١ نسبته إلى يعقوب قال : هذا تهكم أى هزء .

عند الجاهليين والإسلاميين ، ولكنها من الناحية النقدية ، كانت قليلة الاستعمال بدليل عدم إيرادها كثيرا فى الأحكام النقدية أو فى التعليق على الأبيات فى كتب الأدب أو النقد .

وبسبب ميل الجاهليين ـ ومعهم الإسلاميون الأوائل ـ إلى التعبير المادى فإن الزبرقان لما غضب من الحطيئة حينما سخر منه قائلا :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وعرض الأمر على حسان بن ثابت ، قال : « لم يهجه بل سلح عليه » . وفى رواية : « بل ذرق عليه » . وهذا يدل على فهم الجاهليين لقوة أثر السخرية ولو أنهم لم يعبروا عنها التعبير الذى تستحقه ، بدليل أنه شبهها بالسلح »[1] .

وأقدم من تعرض الموضوع تعرضا ما ، هو ابن المعتز (ت سنة ٢٩٦ هـ) إذ ذكر فى كتابه « البديع » أنواع البديع الخمسة التى عرفت منذ الجاهلية ـ فى رأيه ـ ثم ذكر « صنوفا ثانوية » أطلق عليها كلمة « محسنات » ، ومنها : الاعتراض والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف

---

(١) وما زلت أعجب لتظاهر عمر رضى الله عنه بأنه لم يفهم القوة الكامنة فى بيت الحطيئة مع أن السخرية كانت واضحة ولم تكن شيئا جديدا على العرب أو على الطبيعة البشرية، ولكن عمر ـ ذا العقلية القضائية ـ لم يجد فيها دليلا ماديا يدين به الحطيئة ، ولذلك استدعى خبيرا فى فهم الشعر . وهناك عدة تعبيرات لعمر فى هذا الشأن : فيقال إن عمر قال : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبه (ديوان الحطيئة ص ٢٠٧) وفى طبقات الشعراء لابن سلام ٩٨ . فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ أهجاه ؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان ، لكنه أراد الحجة على على الحطيئة . وفى موضع آخر : فقال له عمر : ما أعلمه هجاك ، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ .

والتعريض وحسن التضمين والهزل الذى يراد به الجد . وقد عثر عليها ابن المعتز وحده ، وله هذه اصطلاحات[1] . وإن تأكيد المدح بما يشبه الذم والتعريض والهزل الذى يراد به الجد لتدخل ضمن صيغ السخرية ، ولكن ابن المعتز يعتبر هذه الصنوف مجرد محسنات ، ولا يحاول أن يتناولها من زاوية الهجاء الضاحك أو غير المباشر ، وإن كان يقترب مما نحن بصدد البحث عنه حين يذكر النوع الأخير من المحسنات ، وهو الهزل يراد به الجد . ومن عجب أن النقاد فى كثير من الأحيان يفطنون إلى شدة قوة السخرية وعنف أثرها إلى حد أنهم ينعتون الكاتب المولع بها بعبارة « روح السخرية تسيطر عليه أو على كتابته » ويقرنون لفظة السخرية بـ « روح » اعتناف أثرها المعنوى والشعورى الذى يشيع فى الساخر والمسخرة معا ، ولكن ابن المعتز لا يحاول الكلام عنها أو إدخالها فى « البديع » كما سماه متضمنا الاستعارة التى هى إحدى الأردية الزاهية التى ترتديها « السخرية » .

وقد تبعه بعد ذلك مؤلف كتاب نقد النثر[2] فقسم الشعر العربى إلى مديح وهجاء وحكمة ولهو ، والظاهر أن القسم الأخير هو ترجمة للكلمة اليونانية Comedia التى هى أحد قسمى الشعر الاغريقى المسرحى ، والكوميديا عند اليونانى كانت تستخدم أسلوب السخرية ، ولكن ليس معنى هذا أن مؤلف نقد النثر كان يفهم الكوميديا اليونانية على حقيقتها إلى حد أنه يعنى بكلمه « لهو » قسما من أقسام الشعر اشتمالها على السخرية ؛ بل أغلب الظن أنه يقصد بها الفكاهة أو ما كان يسمى وقتذاك « بالمزاح » .

---

(١) ابراهيم سلامة : كتاب الخطابة لأرسطو (الطبعة الثانية) ص٦٣ (نشر الانجلو) .

(٢) وقد أثبت البحث العلمى الحديث أنه ليس لقدامة بن جعفر .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الكلمة وإلى هذا الكتاب الذى ألف فى القرن الرابع الهجرى ، فيحسن بنا أن نذكر المؤلفات الأدبية التى ذكرت شيئا مما يتصل بموضوعنا من قريب أو من بعيد وهو « المزاح » ، وأهمها كتاب « نثر الدرر » للآبى المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ؛ وقد تكلم عن المزاح عند كثير من الطوائف : الخلفاء والصحابة والأشراف والمتنبئين ، والمدنيين والطفيليين وغيرهم . والكتاب بفصوله أو أجزائه السبعة يعتبر موجزا شاملا لكثير مما جمعت وحوت صدور مئات من الرواة فى القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ، وقد ذكر كثيرا من النوادر أو القصص أو الأجوبة الساخرة تحت اسم « المزاح » ، وهذا هو الاسم الشائع الذى كان يطلق على كل مايبعث الإنسان على الضحك ؛ وهو ما يقابل فى اصطلاحنا الحديث « النكتة أو الفكاهه » ، ولا نعثر فى هذا الكتاب على محاولة من الكاتب من ناحية التبويب أو التعليق للتمييز بين نوعى الفكاهة إذ أن أحدهما يرمى إلى الإضحاك فحسب ، والثانى يرمى إلى نوع أسمى وأجل وهو السخرية أو النقد الرمزى الضاحك . وقد جمعت نوادر أبى العيناء فى هذا القرن الثالث الهجرى - وبرغم أن روح السخرية تسيطر على أغلبها ، لم يطلق عليها إلا لفظة « نوادر » . كذلك كان يعاصره الحمدونى الذى تندر كثيرا بابن حرب وسعيد ، ولم تنعت أشعاره إلا بأنها أشعار ظريفة أو « مضاحك الأشعار » .

غير أننا نجد فى أحد كتب الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ - وهو فقه اللغة - فصلا بعنوان « فى المدح يراد به الذم ، فيجرى مجرى التهكم والهزل » ولعل الثعالبى أول من ذكر أمثلة توضح غرضه ، ومنها آيتان من القرآن الكريم قال : العرب تفعل ذلك فتقول للرجل تستجهله : يا عاقل ، والمرأة تستقبحها يا قمرا[١] ، ولم يستطع أبو هلال العسكرى على الرغم من عنايته البالغة بتعداد

---

(١) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٦٨ (طبعة المطبعة الادبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ).

صنوف البديع إلى حد فات جميع السابقين له ، لم يستطع أن يذكر - مما نخوض فيه - إلا الكناية والتعريض ، وتجاهل العارف ، ومزج الشك باليقين(١) . ونذكر للثعالبي أيضا كتابه « الكناية والتعريض » الذي ذكر طرفا من كنايات العرب وعدد منها أمثلة كثيرة تستغرق معظم صفحات الكتاب ، ثم أمثلة قليلة للتعريض ، ولم يحاول أن يعقب عليها أو أن يذكر نكتتها الأدبية(٢) .

ثم نجد ابن رشيق القيرواني (ت سنة ٤٥٦ هـ) يذكر طرفا من أنواع البديع التي تناولها من سبقه بالذكر ، ويذكر منها « تأكيد المدح بما يشبه الذم » ويسميه باب الاستثناء ، ولم يحاول أن يذكر عكس هذا الباب ، وهو ما يدخل في موضوعنا(٣) .

أما البلاغيين ، فلعل القاضي عبد الجبار (٣٢٠ - ٤١٥ هـ) في كتابه تنزيه القرآن من المطاعن (ص ١٠٨ ومتشابه القرآن ٢١٥) هو من فطن إلى الاستعارة التهكمية دون أن يشير إلى هذا الاصطلاح وذلك حينما تعرض لتأويل الآيتين الكريمتين من سورة النساء ١٦٨ ، ١٦٩ « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم » . وكذلك في قوله تعالى : « فأثابهم غما بغم » . (آل عمران ١٥٣) وسمى القاضي هذين الموضعين مجازا .

ونجد بعد ذلك تلميذه الزمخشري (ت سنة ٥٣٨ هـ) صاحب الكشاف

---

(١) وهما الفصلان الثاني عشر والثالث والعشرون من الباب التاسع الذي شرح فيه أنوع البديع .

(٢) الثعالبي : الكناية والتعريض (طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٨ م) .

(٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة جزء ٢/٩٩

يبث فى ثنايا تفسيره شرحا أدبيا للسخرية حينما يفطن إلى وجودها فى آية من الآيات كقوله « ... هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع، لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى، والقول فيه: أن قصد إبراهيم لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضى، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة، وتبكيتهم[1] ».

وقد يكون الإمام الفخر الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦) هو أول من حاول أن يطلق عليها اسمها الاصطلاحى حينما سماها الاستعارة العنادية.

وفى القرن السابع الهجرى نلتقى بالقزوينى (٦٦٦-٧٣٩) مؤلف الإيضاح والتلخيص، وذكر فيه « تأكيد الذم بما يشبه المدح، والتعريض - وقد سماه القزوينى التوجيه - والهزل الذى يراد به الجد، وتجاهل العارف. ونرى أنه لم يضف جديدا عمن تقدمه، وكذلك لم يحاول الإفاضة فى تحليل هذا النوع من البديع - كما سماه - بما يدل على ذوق وتبصرة[2].

أما معاصره النويرى (ت ٧٣٣) فقد ذكر فى كتابه « نهاية الأرب » بعض أنواع من السخرية منها: التعريض، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، غير أنه زاد على من سبقه: الهزل، والتنديد، والتهكم، وبذلك يكون أول من ذكر هذه الأنواع بأسمائها، ويسوق أمثلة عليها. ومما يعاب عليه عدم اهتمامه بالتعقيب ومحاولة سرد أمثلة كثيرة بصفته أول من ذكرها من البلاغيين[3].

---

(١) الزمخشرى: تفسير الكشاف ٢/٤٩

(٢) الفخر الرازى: نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ص٩٨ وانظر « البلاغة: تطور وتاريخ » للدكتور شوقى ضيف ص ٢٨٢.

(٣) النويرى: نهاية الأرب الجزء السابع: الصفحات ٦٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٦٦، ١٠٢، ١٧٩.

وكذلك ممن عاصر القزويني والنويري ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) فلم يذكر في كتابه «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان» إلا الهزل الذي يراد به الجد»[1].

أما ابن حجة الحموي - صاحب خزانة الأدب - فقد أطال بعض الشيء فيما ذكره من أنواع تتصل بالسخرية كالهزل الذي يراد به الجد، والتهكم وتجاهل العارف، والتورية، والتنكيت، والمدح في معرض الذم، والتعريض وأسهب في الكلام عن الأنواع السابقة بما يدل على فهم أدبي سليم حين سرده الأمثلة المختلفة ومحاولة تحليلها وبخاصة حين الكلام على التهكم والهزل الذي يراد به الجد وتجاهل العارف.[2] ومما يدل على ذلك قوله:

«وهذا النوع - أعني به الهزل الذي يراد به الجد - ما سبكه في قوالبه إلا من لطفت ذاته، وكان له ملكة في هذا الفن وحسن تصرف»[3].

هذه ملامح من السخرية عند البلاغيين منذ العصور الأولى، لم نستطع سردها بالتفصيل، لأن الأقدمين لم يهتموا بالكتابة عنها من الناحية البلاغية، ولذلك اكتفيت بهذا القدر بعد قراءة كتب البلاغة العربية القديمة.

أما في العصر الحديث، فمبلغ علمي أن الأستاذ عباس محمود العقاد كان أول من قرأ المؤلفات الغربية، وحاول الكتابة لأول مرة عن ملكة السخر عند المصري، وقد صدرها بهذا السؤال: لم يسخر الإنسان؟ وكان بدوء

---

(١) ابن قيم الجوزية: كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (طبعة الخانجي سنة ١٣٢٧ هـ) ص ١٦٢.

(٢) ابن حجة الحموي: خزانة الادب (المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤ هـ) الصفحات ٥٦، ٩٨، ١٢٢، ٢٣٩، ٢٧٥، ٤١٩، ٤٢١.

(٣) المرجع السابق ص ٦٩.

الكتابة فى الموضوع سنة ١٩١٢م فى « خلاصة اليومة » ثم كتب عدة مقالات نشرها فى كتابه مطالعات [١] . ثم كتب الشيخ عبد العزيز البشرى مقالا عن « مرد النكتة » سنة ١٩٢٧ عقب عليه العقاد بمقال طريف عن رأيه فى النكتة ثم جمع آراءه فى الضحك والسخرية وما يتصل بهما فى كتابه « جحا الضاحك المضحك » وصدره بمقدمة طريفة بلغت صفحاتها أكثر من نصف الكتاب [٢] وقد تعرض العقاد أيضا للكلام عن النكتة المصرية فى أثناء كلامه عن طبيعة الأمة المصرية فى كتابه « سعد زغلول » فقسم النكتة إلى « نكتة دعابة و نكتة تهكم » [٣] .

وكتب بعده المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة مقدمة لكتابه « حكم قراقوش [٤] » تحدث فيها عن المزاح أو الهزل Comipee والفكاهة أو التندر Humeur واللذع أو التهكم Ironie وقد ذكر فيها أمثلة غير قليلة من الأدب الأجنبى والأدب العربى وحاول محاولة لا بأس بها التعريف بكل مصطلح مما سبق . غير أنه لم يترجم المصطلحات الأجنبية الفنية ترجمة دقيقة فإن التندر وهو الأستهزاء والسخرية غير ذكر النوادر والفكاهات الذى يعنيه الأصطلاح اللاتينى Humour وكذلك فإن المزاح لا يمكن إن يوضع ترجمة لكلمة Comipuv والدكتور حمزة تكملة لكتابه السالف أصدره سنة ١٩٠٤

---

(١) عباس العقاد : مطالعات فى الكتاب والحياة (الطبعة الثانية نشرتها المكتبة التجارية) ص ٨٩ - ١٠٢

(٢) صدر الكتاب عن دار الهلال فى أغسطس سنة ١٩٥٦ العدد ٦٥ من مجموعة كتاب الهلال .

(٣) طه حسين : فصول مختارة طبع دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ ص ٢٥٠-٢٥٤ .

(٤) عبد اللطيف حمزة : حكم قراقوش : الحلبى سنة ١٩٤٥ ص ٧٤

بعنوان : « ابن مماتى » [1] أضاف إليه كثيرا من السخريات المختلفة فى موضوعات شتى فى الآداب الأجنبية .

ولقد أفرد الأستاذ أحمد عطية الله [2] « الضحك » بكتاب خاص أطلق عليه « سيكولوجية الضحك » تكلم فيه بإسهاب عن طبيعة الضحك وكيف يضحك الإنسان وبواعث الضحك وأنواعه التى خص منها ضحكة التهكم وأنواعها ، وضحكة الأزدراء ، وضحكة الهزء ، وضحكة السخرية . غير أنه لم يحاول التمييز بين هذه الأنواع المتعددة من الضحكات تمييزاً أدبيا .

وقد ألف الدكتور شوقى ضيف كتابه « الفكاهة [3] فى مصر » صدره بمقدمة موجزة عن الفكاهة ، وتعرض فيه ـ من بعيد ـ إلى صلتها بالسخرية .

وقد ظهر فى نفس العام كتاب « سيكولوجية الفكاهة والضحك » للدكتور زكريا إبراهيم عن مكتبة مصر بالفجالة ، أفاد المؤلف من الدراسات النفسية التى صدرت فى القرن الماضى إفادة ممتازة .

ثم صدر فى سنة ١٩٦٠ م كتاب « أسلوب التهكم فى القرآن الكريم » حاول فيه مؤلفاه سرد الآيات البينات فى هذا الموضوع بعد التقديم بمقدمة مترجمة عن دائرة المعارف البريطانية لمادة Humour .

وأخيرا أصدرت مجلة الهلال عددا خاصا عن « الفكاهة » سنة ١٩٦٦ م

---

(١) صدر عن دار أخبار اليوم سنة ١٩٥٤ م .

(٢) أحمد عطية الله : سيكولوجية الضحك : (عيسى الحلبى سنة ١٩٤٧) ص ١٢٩ ، ١٦٠ .

(٣) صدر عن دار الهلال سنة ١٩٥٨

يحتوى على ثمانى عشرة مقالة عن الفكاهة فى الأدب وغيره كالرسم الكاريكاتورى . هذا ، وقد جمع الدكتور أحمد الحوفى فى كتاب له عن الفكاهة طائفة من النوادر معتمدا على جل كتب الأدب القديم من غير أن يعلق عليها .

٨ — أساليب السخرية :

أما وقد انتهينا من محاولة تعريف كلمة « سخرية » وموضوعها فى البلاغة العربية ، فلنحاول أن نعدد أساليبها المختلفة ، أو أنواعها .

وعلينا قبل البدء فى ذلك أن ندرس مجالها الحيوى الذى تنبع فيه وهو الفكاهة أو « مايضحك » .

والمضحكات تنقسم من ناحية منبعها إلى قسمين :

أحدهما : يكمن فى الطبيعة كالنبع الذى يتفجر من الأرض حيا متدفقا ويتخلق حينذاك فى الفرد ، وفى الظروف المحيطة به ، وفى كلماته وفى طبعه ، وفى حرفته .

وهذه العناصر أو بيئات الضحك السابقة : يضحك منها الناس ، و يفطنون إلى وجودها بسهولة ، من غير حاجة إلى وسيلة لمعرفتها أو خلقها (أعنى ابتكارها) ويدركونها بما فيهم من صفة طبيعة تسمى « إدراك الفكاهة » .

وثانيهما : يصنعه الناس أو يحاولون أن يصنعوه ، وليس كثير منهم بمستطيع ذلك وإنما هم فئة خاصة يسرى فى كيانهم استعداد خاص : فى لغتهم ، أو فى شكلهم ، أو حركتهم ، ويصطنعون لذلك أدوات مختلفة كالملابس والأصباغ والحركات الشاذة وغيرها مثلما يفعله المهرجون فى المسارح المختلفة أو من لديهم المقدرة على أرسال « النكتة » أو ارتجالها ويقال إن لديهم « إحساسا فكاهيا » ، وهو مانسميه تجوزا « خفة الظل » أو خفة « الدم » .

والفريق الثانى من المضحكات إما أن يهدف إلى الإضحاك فحسب وحينئذ يطلق عليه : الفكاهة أو المزاح أو الهزل .

وإما انتقد الناس فى قالب مضحك أو للسخرية بهم ويطلق على هذا النوع التندر أو العبث أو اللذع أو التهكم أو الاستهزاء .

والمضحك سمة واضحة يكتشفها الذهن بين الأفكار : كالتناقض العقلى ، أو الاستحالة المحسوسة وما إلى ذلك ؛ وهى تعريفات إذا انطبقت فعلا على جميع أشكال المضحك ، فإنها لن تقول لنا أبداً : « لم يضحكنا المضحك »[1].

ولعل الدافع إلى السخرية : هو محاولة المجتمع أن يجعل الشخص يتلاءم مع الحياة الاجتماعية : فإن لم يتلاءم معها فقد يكون ذلك راجعا إلى تصلب فى الجسم ، أو تصلب فى الفكر ، أو تصلب فى الطبع .

إذ المجتمع يقتضى منا انتباها دائم اليقظة ، يميز حدود الموقف الراهن ، وشيئا من المرونة فى الجسم والفكر ، تجعلنا قادرين على التلاؤم[2] مع هذا الموقف ، فالتوتر (التصلب) والمرونة هما القوتان المتكاملتان اللتان تستخدمهما الحياة : فإذا أعوزا الجسد كانت أنواع الرزايا ، وكانت العاهات والأمراض كالأحدب الذى تعود ظهره الانحناء السيء ، وداوم هو على هذه العادة نتيجة عناد مادى أى نتيجة تصلب .

---

(١) برجسون : الضحك ص ١٦ .

(٢) انظر فى ذلك كلمة معاوية : بيني وبين الناس شعرة إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها .

وإذا أعوزا الفكر : كانت شتى درجات الفقر الروحى وشتى أشكال الجنون، وأعظم مثل لذلك شخصية الذاهل دون كيشوت التى ابتدعها سيرفانتز Cervantes . تلك الشخصية التى علق فكرها بالأوهام وعاشت فيها .

وإذا أعوزا الطبع ، كان فقدان التلاؤم مع الحيــــاة الاجتماعية وهو أصل الشقاء ، وسبيل الجريمة فى بعض الأحيان : ونضرب مثلا أو أمثلة لذلك بشخصيات : البخيل والمقامر ، والغيور ، والمجول .

فالمجتمع يقتضى منا دائمــــا : مرونة فى الجسم ، ومرونة فى الفكر ، ومرونة فى الطبع ، ومادام المجتمع لم يصب بأذى ، فإنه يجيب على التصلب البسيط بحركة بسيطة ألا وهى الضحك ، فالمجتمع يريد أن يزيل بعض هذا « التصلب » فى الجسد والفكر والطبع حتى يوفر لأعضائه أكبر مرونة ممكنة وأعلى اجتماعية ممكنة ، فهذه الصلابة هى : المضحك ، والضحك : قصاصها .

* * *

إذن فالمضحكات التى يبتدعها الفنان أو المضحك أو الساخر تكون منتزعة من فرد متصلب منحرف ـ كما قلنا سابقا ـ أو من ظروف مختلفة محيطة به تتكرر أو تنقلب رأسا على عقب وتأتى بعكس المنتظر أو يتدخل بعضها فى بعض كما إذا تبادل ضدان كشيخ وقسيس أو امرأة ورجل بعض ملابسهما وهذا ما يسمى بتداخل السلاسل ، أو ينتزع من الكلمات التى تضحك بذاتها لرنينها الصوتى الخاص بها أو بوضعها متجاورة بصورة مضحكة وكذلك ينتزع المضحك من الطبع المنفصل عن البيئة المحيطة به أو البعيد عنها ، وأخيرا ينتزع من الحرفة التى يمتهنها الإنسان فى حياته وتسيطر عليه ألفاظها ومقتضياتها فى جميع أحوال حياته الاجتماعية ، حتى ليبدو هذا الإنسان المضحك كأنه ذاهل

داخل إطار حرفته كل الذهول ، وسيطرت عليه كل السيطرة فنرى أن الذى ينطق دائما ليس صديقنا فلانا بل محترف هذه المهنة الذى رانت عليه عقليا وصوتيا .

* * *

والصور الساخرة أو صور الفنان الساخر يبتدعها بعد إضافة « روحه » أو إعمال خياله الهازىء أو الضاحك فيها ، فيصبغها بصبغة فنية جديدة ، أو يجعلها تنبض بنبض يلفت نظر من لم يكن ملتفتا إليها أو تزيد لفت نظره إليها : مثل الفنان الذى يرسم منظراً جميلا ويضعه فى لوحة أو إطار ، ويجعله أمام الأعين على الدوام : إذ ربما كان هذا المنظر الطبيعى موجودا فى الطبيعة الحية أمام الناس ، ولكنهم يمرون عليه مر الكرام ، أما رسم الفنان إياه ، فقد لفت أنظارهم إليه ـ وبخاصة حينما يبث فيه « نفسه » أو ما تسميه عبقريته أو شعوره أو إحساسه بهذا المنظر ، فعمل الفنان أو ابتداعه شيئا جديداً هو الطبيعة الحية مضافا إليها جهد النفس البشرية أو العبقرية المعبرة .

كذلك الساخر : فهو يضيف نفسه أو شخصيته أو فنه أو عبقريته إلى هذه الصورة المسخور منها ، وبذلك يخلقها خلقا جديدا ، وهو ما يسمى بالإبداع أو الخلق : فهذا رجل كسيح يمشى أمامنا . . . ربما عطفنا عليه لعاهته ، ولكننا نسمع عنه أنه مجرم يفرض إتاوات على الناس ، ويرتكب حوادث إجرامية ضد المجتمع فيتناوله الساخر ، ويحيله من صورة صماء إلى صورة متحركة مضحكة ، تجعلنا نضحك منه ونهزأ به فنتشفى به بعد أن كان يبعث فى أنفسنا الرثاء أو الخوف أو كليهما .

وهكذا يصنع الفنان من المواد الأولية .. إن صح هذا التعبير ـ بإطلاقه على بعض النماذج البشرية وغيرها .. يصنع منها مواد مركبة منها تركيبا لا يقدر

عليه إلا الساخر ، وينتهي بها إلى الصور والحوادث والحركات والنفسيات المضحكة . . . وهو لا يضحكنا من الجسم كشيء مادي فحسب ، بل كظرف أو وعاء فيه روح معوجة أو شاذة أو غير مستقيمة ، لأن الجسم - ميتا - لا يمكن أن يضحك أو يهزأ به ، لأنه أصبح في دنيا العدم بالنسبة لنا كأحياء متحركين ، تحركنا وتسيطر علينا روح ما داخل أجسامنا .

* * *

٩ — صور السخرية أو أساليبها :

حاول كثير من الكتاب والنقاد الأوربيين الإحاطة بصور السخرية والفكاهة المختلفة ، وترتيبها زمنيا حسب نشأتها منذ القدم ، ثم تدرجها على مر العصور ، فمن هؤلاء آرثر سيد جويك Arthur Sedgwick

وتابعه [١] G. G. Sedg. وحاول مناقشة تاريخ الكلمة وتطور معانيها ولم يستطع معـــرفة تاريخها قائلا : « فحتى لو لم يكن لصبرك أو لوقتي من حدود فإني غير مستطيع سرد القصة بأكملها ، لأني لا أعرفها » ثم قال في موضع آخر : « وكما قلت آنفا ، فربما كانت السخرية النحوية المبنية على قواعد اللغة - هي أول صورة للسخرية نقابلها ولا تظن أنها أقدم صورها ، وهي تبدو - في الحقيقة - مرحلة ثالثة أو رابعة من مراحل تطور السخرية التي تعدها حسب رأيك [٢] .

وقد حاولت دراسة صورها دراسة تجريبية ، أي أنشيء أو أحاول ابتداع بعضها من جهة ، وأن أنعمق الناس في سخرهم على اختلاف أسنانهم وطبقاتهم وحالاتهم النفسية والثقافية والاجتماعية وطباعهم وأمزجتهم من جهة أخرى ، حاولت ذلك ردحا من الزمن : قد يطول حتى يشمل عمري

---

1 - G.G. Sedgewiok : OF Irony, Torento 1948 P : 4

2 - Ibid P : 6

كله بما فيه من ذكريات مفعمة بالسخرية ، وقد يقصر حتى لا يزيد عن السمت السنوات التى استغرقها البحث، فخرجت بهذه الأنواع التى أحاول الآن ترتيبها ترتيبا زمنيا بقدر الإمكان .

فأول صور السخرية وأقدمها فى تاريخ البشر وأكثرها انتشارا بين العامة هى السخرية « بالمحاكاة » فى الكلام والمشى والحركات الجسمية وأنواع السلوك المختلفة ، أى فى السمات البارزة التى تميز شخصية ما من الشخصيات كأسلوب ما من أساليب الكتابة التى يمتاز بها كاتب من الكتاب أو خطيب من الخطباء أو شاعر من الشعراء فى قصيدة ما من قصائده كما فعل حافظ إبراهيم معارضا شوقيا فى قصيدته المشهورة « عن أى ثغر تبتسم » . وهذا النوع من تقليد القصائد وإحالة الجاد منها بمعانيه إلى هزلى أو مضحك منتشر فى الآداب الأوروبية أكثر من انتشاره فى الأدب العربى .

والسبب فى أن «التقليد» يكون مدعاة إلى السخرية هو أن الساخر المقلد ينقل شخصية المقلد برمتها ويجعلها رداء له يلبسه ويتماجن به كيفما يشاء فكأنما هو يمسخه وكأنما جعل شخصية الألثغ متبلورة أو مركزة فى لثغته . والفنان لا يكتفى بمجرد التقليد كعامة الناس أو الأطفال بل هو يولد منها صوراً متنوعة كثيرة كلها مشتقة من اللثغة أو من صورة هذا الألثغ وروحه العام .

وقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية (الأمريكانا) هذه الصورة كصورة من أقدم صور السخرية عند الهمج والمتوحشين .

أما « المناداة بالألقاب » فهى من أقدم الصور السهلة الساذجة فى السخرية وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كألقاب كقولهم للسمين يادرفيل، ثم استعمال هذا اللقب.. فيما بعد.. اسما يطلق على هذه الشخصية وتعرف به، وكذلك استعمال الصفات المعكوسة وهى عكس ما يتصف به الشخص حقيقة كألقاب ثم أسماء .. تتكرر

(١) The Americana : Caricat ure

كثيرا فى صور متنوعة ومناسبات مختلفة حتى يلصق هذا الاسم بهذه الشخصية كإطلاق صفة الهزيلة النحيفة على الماكينة «والسبع (أفندى)» على النحيف، ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة الهزء بإدخال عنصر الغرابة كاستعمال (مادموازيل) للعجوز الطاعنة فى السن وكذلك استعمال أسماء الرذائل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة كإطلاق «الشيخ متلوف» — هزءا وسخرية — على الفاسد، والأمين على اللص . . . وإنما لا نحس جرس السخرية من أحرف فحسب بل من الجو المحيط بها، وأعنى به الجو الاجتماعى الذى يفهمه السامع أو القارىء: فالكفار قد هزئوا ـ زمن الردة ـ بأبى بكر فسموه «بأبى الفصيل».

ومن أقدم طرق السخرية وأكثرها شيوعا السخرية بالصوت، وتلوينه ورفعه وخفضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالبا ويعرف صفاتها التى لا يمكن أن ينقلها القلم إلى الطرس. وكذلك السخرية بانفراج أسارير الوجه وتحريك عضلاته، أو بهز الرأس أو الكتفين أو بالغمز بالعين . . .

وقد يكفى للسخرية بالشخص أن تنظر إليه ـ صامتا ـ ثم تأخذ فى إدامة النظر إليه وأنت تبتسم ابتسامة السخرية أو تضحك ضحكة السخرية. وأعتقد أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية، ولكن لا يمكن إثبات ذلك نظرا لأنه لا يسجل على الورق كتابة أو على الحجر نقشا.

أما النوع الرابع فهو: معالجة الشىء الحقير كأنه عظيم، أو ما يسمى فى الأدب العربى «الذم بما يشبه المدح»، ويدخل فيه أيضاً «تجاهل المعارف» وكل ذلك وغيره يتسق وينتظم فى عبارة طويلة لا تستمد تأثيرها من ألفاظها: لفظة لفظة على حدة، بل من العبارة برمتها: ونضرب مثلا على ذلك بمخاطبة عالم يستهزىء

بجاهل قائلا: قل لى ياسيدى الأستاذ، أو أخبرنى أيها العالم الجليل . أو مخاطبة القبيح قائلا : القمر يغار منك .

وبعضهم يسمى هذا النوع ، أو يؤثر أن يطلق عليه « التهكم » ويلاحظ أنه لا يمكن إعطاء أمثلة حقيقية لمثل هذا النوع بجملة مبتورة نظراً لأن الكلمة أو الجملة تفقد حيويتها إذا انتزعت من الكل الحى النابض بالحياة كالعضو الذى يموت إذا اقتطع من الجسم كله .

أما النوع الخامس فهو : « معالجة الشىء العظيم كأنه حقير : ويمكن أن يكون طريقة من طرق الاستهزاء ، كما شبه يتلر أماكن العبادة المسيحية ساخراً بمصرف يذهب إليه الناس ليدفعوا شيئا ويأخذوا شيئا .

ومن أنواع السخرية : تجاهل العارف أو التباله: وهى الطريقة المشهورة التى أثرت عن سقراط .

يسأل الأب ابنه الراسب فى الامتحان ـ وهو يعلم برسوبه ـ أنجحت فى الامتحان ؟

أما التعريض فهو : من أشهر أنواع السخرية فى الأدب العربى ، وجمع الثعالبى فى كتابه « الكناية والتعريض » طائفة من الأمثلة ، كذلك الذى دار بين معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس ، إذ سأل الأول الثانى قائلا : ما الشىء الملفف فى البجاد ؟ فقال الأحنف : هو السخينة يا أمير المؤمنين !!

وقد أراد معاوية قول الشاعر :

إذا ماما ت ميت من تميم فسرك أن تعيش فجىء بزاد

بخبز أو بتمر أو بسمن أو الشىء الملفف فى البجاد

وأراد الأحنف بقوله : السخينة ، أن قريشا يأكلونها ويعيرون بها وهى أغلظ من الحساء ، وأرق من العصيدة ، وإنما تؤكل فى كلب الزمان ، وشدة الدهر ، وقد سموا قريشا « سخينة » تعيير آلهم بذلك [١] .

وكان عبد الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عتب على بعض ولد الحارث فقال له معرضا بما قال حسان [٢] :

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

فقال :

إخال بالعم وبالجد مفتخرا بالقدح الفرد
الهج بحسان وأشعاره فإنهما أدعى إلى المجد [٣]

وساير شريك بن عبد الله النميرى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى فبرزت بغلة شريك ، فقال له يزيد : غض من لجامها !

فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير !! فضحك ، وقال : ما ذهبت حيث أردت .

وإنما عرض بقوله : (غض من لجامها) بقول جرير المشهور :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وعرض له شريك بقول ابن دارة :

لا تأمنن فزاريا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار

(١) الآبى : نثر الدرر ٢ / ١٢ ومراجع أخرى كثيرة .
(٢) قال حسان يهجو أبا سفيان :
وان امرءا كانت سمية أمه وسمراء مغموز إذا بلغ الجهد
وأنت زنيم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد
(٣) زهر الآداب ٢٦ - ٢٧

وبنو فزارة يرمون بإتيان الإبل[1] .

ومن صور السخرية : التصوير المبالغ فيه (الكاريكاتورى) : وهو وضع الشخص فى صور مضحكة : كالمبالغة فى تصوير عضو من أعضاء الجسم ومحاولة تشويهه إلى حد ما ، بحيث يجعل الشخص كأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذى جسده وكبره : ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط ، وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ فى ملامح الوجه يلعب الدور الهام فى هذا الصدد والأنف بصفة خاصة يعد مقياسا للشذوذ المثير للضحك ، لهذا نلحظ أن المصور الكاريكاتورى يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضفيه هذا الشذوذ من تأثير هزلى على الوجه[2] ، وتصوير الأنف يكون بطولها أو بكونها معقوفة أو فطساء . وكذلك يصور الفم تصويرا هزليا لاتساعه ، أو لعدم انتظام أسنانه أو لعيب فى إحدى الشفتين كقطع فيها أو مايشبه ذلك من عيوب، والشذوذ الحسى يدخل فى هذا النطاق : كالأعمى والأصم والأبكم ، فهؤلاء جميعا يثيرون عاصفة من الضحك إذا سلكوا مسلكا يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص : فالأبكم الذى يرسل خليطا من الأصوات للتعبير عن غرضه يضحكنا ، وإذا ما أصر على استخدام هذه الطريقة الشاذة فى التعبير عن حالة نفسية يقصر دونها الكلام بله الأصوات كان يصور لنا هذا الأبكم فى موقف غرامى ، فإن سلوكه يكون مصدرا ثرا للدعابة ، ولا يكتفى المصور الكاريكاتورى رساماً أو كاتبا - بتصوير الشذوذ الخلقى ، بل يتخذ من السلوك الشاذ مادة خصبة لسخريته : كالمجانين والبله والمفكرين ذوى الآراء الجريئة التى لم يألفها المجتمع ، وكذلك شدة

---

(١) زهر الآداب للحصرى : ص ٢١ ، ٢٢

(٢) سيكولوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٢ .

النسيان . وقد اعتمدت الكوميديا زمنا طويلا على هذه الظاهرة ، فشاع فى القـــرن السادس عشر ما كان يعرف بمسرحية كوميديا الأمزجة Comedy of Humours وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات أمزجة خاصة غير مألوفة فيها كما نجح فى القرن الثامن عشر ما عرف بكوميديا العادات . Comedy oI manners وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات عادات نابية تستثير الضحك لغرابتها[٢] .

وقد يكون التصوير مضحكا ساحرا بسبب الألفاظ ذاتها إذ هى التى تبعث على الهزء والسخرية لرنينها وتنافر حروفها ، أو لأنها قوية التعبير عن نفسية الذى يصور أو يمسخ أو يحاول التعبير عنه .

ومن صورها : السخرية عن طريق التورية أو (السخرية التراجيدية) Ir ony وهى العبقرية التى تجعل شخصا من الأشخاص يستعمل ألفاظا تعنى شيئا ما بالنسبة إليه ، وشيئا آخر بالنسبة للنظارة العارفين بالحقيقة[٣] كمن يقول لأعدائه مقدما إليهم طعاما مسموما : طعاما هنيئا يا سادة .

ومنها : السخرية عن طريق الصور الملفقة المضحكة أو ما يسمى بالادعاء أو الدعاوى الكاذبة ، ومنها اختراع النوادر والنكت وإضافتها إلى أغنياء الحرب ومحدثى النعمة والقرويين السذج الذين زاروا المدينه لأول مرة مثلا ، فمن أمثلة السخرية بالقرويين والتشنيع عليهم أن قرويا زار القاهرة ، فسأله زميل له مختبرا : على ذلك فأنت تعرف الترام والمترو ! فأجاب القروى: كيف لا ، وقد أكلت منهما كثيرا ! وكذلك التندير «التشنيع» على الأطباء والمعلمين

---

(١) سيكولوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٤ :

(٢) المرجع السابق ٨٧ :

Har msworth ' s Universal Encycl. V.5. P : 4315

(٣) دائرة المعارف البريطانية ١٢ / ٦٨٢ مادة Irony

وغيرهم من ذوى الحرف المختلفة ومحاولة تسديد سهام النقد إلى ناحية من نواحى النقص التى عرفت عنهم .

وكذلك يهاجم الساخر الجبان والبخيل والمتطفل والمتسول وكل العيوب الاجتماعية الأخرى بالمبالغة فى وصفها واختراع الصور المبالغ فيها . وفى كتاب البخلاء للجاحظ أمثلة طريفة .

ومنها : مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع ، ومن ذلك سرعة الجواب الساخر ، كتلك النادرة التى تروى أن صيادا رمى عصفوراً فأخطأه ، فأراد ساخر أن يسخر به ، فقال له أحسنت ! فقال الصياد : أتهزأ بى ؟ فرد عليه الساخر بسرعة : ولكنك أحسنت إلى العصفور !

ومن ذلك ما يحكى عن أحد الأمراء أنه أراد أن يسخر بالشاعر الفرنسى الكبير فيكتور هوجو ، فقال له : ألم يكن أبوك خياطا ؟ .

قال فيكتور : بلى .

فقال الأمير : ولماذا لم تكن خياطا مثله ؟

وبنفس الطريقة سأله الشاعر : وأنت أيها الأمير : ألم يكن أبوك مهذبا ؟

فقال الأمير : بلى .

فقال الشاعر : ولماذا لم تكن مهذبا مثله[1] ؟

وقال فى ذلك الأستاذ أحمد عطية الله « يحاول المستهزىء ـ فى بعض الأحيان ـ إمعانا منه فى الزهو بنفسه ـ أن يدخل فى روع الهزأة أنه حقا ذو شأن وخطر ، حتى إذا ما اعتقد هذا الأخير ما أوهم به ، كشف المداعب

---

(١) وانظر مادار بين أبى العيناء وشخص أراد السخرية به ص ٢٦ من كتاب نوادر أبى العيناء المطبوع سنة ١٩٧٢ م .

عن حقيقته ، فاختفت مسحة الجد من وجهه ، وراح يضحك ساخرا من صاحبه الذى تذهله المفاجأة حتى يعجم عليه القول[١] .

ومن تلك الصور الأدبية : التهكم .. وهو ذكر أشياء أو أباطيل لا يعتقد بها الشخص وفى نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة ، أو يذكرها فى معرض التعجب من وجودها ومن ثم الاستهزاء بها .

وعلى كل ، فالتهكم من صور السخرية الشفافة التى ليس من السهل تعريفها ولكنها تعرف بالذهن اللماح ، قال النويرى : والفرق بين التهكم وبين الهزل الذى يراد به الجد أن التهكم ظاهره جد ، وباطنه هزل ، والهزل الذى يراد به الجد على العكس منه . كقول ابن الرومى :

فياله من عمـــل طالح   يرفعه الله إلى أســـفل[٢]

وقال آخر : أصل الأمر فى التهكم أن تقول قولا وأنت تريد ضده كقول النظام : ما بعد هذا الكلام كلام : فهو لم يقصد بهذه العبارة إلا ضدها ، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم المخاطب ، ولكن باطنه تعريض بجهله[٣] .

وأكثر ما يستعمل التهكم فى الخطاب ، فهو يغلب على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس . ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر الجاهلى :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة   ومن إساءة أهل السوء إحسانا

---

(١) سيكولوجية الضحك ص١٥٠

(٢) النويرى : نهاية الأدب ١٧٩/٧

(٣) الجاحظ : شفيق جبرى ١٩٩

أو قول زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

أو قول طه حسين :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ، ليسقيهم ماء نقيا ، لزال عنهم المرض ، ولاستفاد زرعه من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هو أعطف عليهم من ذلك ! ألم تعلم أن المرض محنة ، يثاب عليها المريض إن أحسن احتمالها ! وأن الصحة فتنة ، إن أساء الصحيح استعمالها ، يعاقب عليها فهو (يؤثر) أهل قريته بالثواب ، و (يعصمهم) من الفتنة ! [1]

ومن تلك الصور أيضاً : السخرية بالمفارقة (فى الحوادث تسمى سخرية القدر) ويستخدمها الساخر بمهارة فى القصص ، ومن أمثلة ذلك :

« دخل رجل على طبيب فى « عيادته » فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب علاجا ، وأراد أن يوحى إليه بمقدار أجره فى غير مساومة ، فعمد إلى التليفون ، وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم :

نعم . أنا الدكتور (فلان) : إننى مشغول جداً . . تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ إنها كما أخبرتك : أربع جنيهات . . وأنت تعرف هذا . حسن . . إلى اللقاء إذن .

---

(١) انظر قول بشار بن برد فى خياط أعور يسمى عمرا خاط له قباء :

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء

ثم وضع سماعة التليفون ، والتفت إلى الزائر متسائلا : ماذا أستطيع أن أصنع لك يا سيدى ؟

فأجابه الزائر : لا شيء . . إننى موظف مصلحة التليفونات الذى طلبته لإصلاح تليفونك » !

والساخر لا يستخدم لغة مضحكة ، بل يترك الموقف للسامع أو القارىء لكى يضحك منه ما شاء له الضحك .

ومما شاع منها فى الآداب الأجنبية : الجمل أو التعبيرات اللاذعة : وهى جمل تكون كالحكم السائرة أو المثل السائر وتتناول شخصا من الأشخاص أو مهنة من المهن بالنقد اللاذع المختصر ويكون فى صيغة « التعريف » وقد اشتهر كثير من أدباء الغرب بهذا النوع أمثال برناردشو الكاتب الأيرلندى ، وأوسكار وايلد الانجليزى . فالأول يعرف المتشائم بقوله : إنه الرجل الذى يعتقد أن الناس أشرار مثله فيحقد عليهم لهذا السبب ! ! ويعرف أدامسون الطفل بأنه قناة هضمية ينتهى طرفها بصوت مزعج ، وطرفها الآخر بالفوضى ! ويعرف أحدهم الأستاذ الجامعى بقوله : « هو الرجل الذى يعلم تلاميذه كيف يحلون مشكلات الحياة التى حاول هو أن يتجنبها باشتغاله بالعلم ! !

ومن أمثلة التعريفات الساخرة قول أحدهم عن الأمريكيين : الأمريكيون أحرار لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! !

وقد يستخدمون طريقه المقابلة ، بدلا من التعريف ، كقولهم : فى بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج ، وفى بعض البلاد الغربية لا يراها بعده ! ! .

تحمر البنت القروية إذا خجلت ، أما العصرية فتخجل إذا حمرت !! كانت البنت قديماً لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن البنت حديثا لا تجسر على تركها !

وأخيراً التلاعب اللفظى : والأساس فيه هو محاولة المتندر أن يكسب الألفاظ معانى غير معانيها الواضحة ، فإذا ما اكتشف السامع أن ما يقصده المتكلم هو هذا المعنى الغريب يسخر من فهمه الأول لمعنى الجملة ، فيضحك ، ويكون التلاعب اللفظى : باختصار الفكرة ، أو بالإضافة إليها بحيث تخرجها عن معناها الأصلى أو بتبديل الكلمات المكونة لها ، أو بنحت بعض ألفاظها أو بتقسيمها، أو بالعبث بإعجامها[1] كأن ندعو من تسمى فاطمة الزهراء بأن نقول فاطمة الزعراء !

* * *

وبعد ، فإن خيال الساخر فى الحقيقة خيال مرن ؛ يتناول السخرة أو المسخور منه بالمداعبة والعبث واللعب، كما يسلك القط مع الفأر قبل افتراسه، وهو لذلك يستخدم وسائل وأساليب متعددة فى سخره تتداخل كل منها بحيث لا يمكن إحصاؤها أو عدها ، وهى معرضة دائما لابتكار العقول المبتكرة ، بحيث لا يمكن للبلاغى حصرها فى اصطلاحات ضيقة فمثلها كحروف الهجاء فى أية لغة من اللغات : يمكن الإنسان اشتقاق آلاف الألفاظ منها ، والتعبير بهـا عن آلاف الأحاسيس فتكون طيعة فى يده يستخدمها كيف يشاء . وممن حاولوا إحصاء أنواعها المختلفة فى الآداب الأوربية ايفان ازار فى كتابه Humour of Humour ؛ ولكنى أرى أن لا جدوى من ذلك ، بل يكفى معرفة أشهرها ، والتعرض لما يجد منها أو ما يكون خاصا بأديب دون آخر ، بالتحليل ومحاولة بيان أوجه الجمال أو العبقرية فيه .

---

(١) سيكولوجية الضحك : أحمد عطية الله ٢٩

صيغ السخرية :

والساخر حين يسخر ، يعتمد ، كل الاعتماد على خياله العابث الذى ينتقى من صور السخرية ما يراه مسعفا له على إدراك غايته وهو التنكيل بخصمه أو الوصول إلى هدفه فى اقتلاع رذيلة من الرذائل بفنه الساخر وهو فى ذلك يرجع إلى طبعه وما جبل عليه : فمن الساخرين من يميلون إلى صيغ بعينها يختصون بها ويدور معظم سخرهم على هذه الصيغة، ومنهم من يستخدم أغلب هذه الصيغ ، ومرجعه فى ذلك عقله الباطن الذى يهديه أو بعبارة أخرى يسيطر عليه كل السيطرة ، فيملى عليه ما يريد ، ويوحى إليه بالصيغة التى تقتضى أو تلائم قوة الموضوع الذى يعالجه ، وقد لاحظت عليهم ذلك ومنهم زميل لى (أ ـ م ـ ن) كان يسخر دائما باستخدام صيغة المغالطة .. يخطىء فى نطق كلمة ويدعى أنه يريد عكسها كالصحفى الذى يكتب تحت صورة أحد الزعماء ـ مدعيا الخطأ ، وهذه هى صورة الكلب الذى فر من قفصه ، ويكون هذا الزعيم مسافرا إلى بلد أخرى ، ثم يكتبون تحت صورة كلب ، وهذه صورة الزعيم العظيم (فلان) متأهبا إلى الرحيل عن وطنه ، وهذه طريقة من أنكى الطرق إذا تخصص فيها الشخص وأتقنها بملاءمتها لذوقه وحسه وطبيعته من جهة ، وكثرة تمرنه عليها من جهة أخرى .

وهناك شخص آخر تخصص فى قول كلام مبتور يوحى إلى السامع بذلك أنه سيقول عبارة (ما) من العبارات حتى إذا ما اطمأن إلى أن السامع تأكد أنه سيقول مثل هذه العبارة . قال هو عكسها ، وبذلك يسخر من السامع وكأنه كرة يلعب بها كيف يشاء .

وأروع درجة من درجات السخرية هى التى تعتمد على الإشارة الملماحة وتقوم على الايجاز الشديد ، ومما يذكر فى ذلك محاولة أحد الصحفيين المصريين السخرية بأمريكا فرسم فى مجلة آخر ساعة السفير الأمريكى مفكرا تفكيرا

عميقا ، وملأ الصفحة كلها - على اتساعها - بالصورة ثم كتب عنوانا صغيراً « صفقة الأسلحة » . ولم يزد شيئا على ذلك . وأذكر أيضاً نادرة أخرى شاهدتها بعينى : أراد بعض الطلبة فى إحدى حفلاتهم العامة السخرية بإحدى الطالبات وكان سلوكها محاطا بشىء من الريبة ، فوزعوا جوائز وهدايا على بعض حضروا الحفل ، وكان نصيبها أن قدموا لها فى صمت : كوزا من الذرة « وكفى ».(١)

وأراد بعض الطلبة السخرية بمدرس لهم يدعى « أحمد فتة » فما كان منهم إلا أن استدرجوه لكى يشرح لهم إحدى مسائل الحساب ، فلما وافق ووضع يده فى صندوق الحكك « الطباشير » لم يجد فيه إلا جسما أملس ناعما ، فلما أخرجه ، وجده « خيارة » إشارة إلى اسمه !

وهكذا يكون الرمز والايماء فى السخرية أنكى من الإطالة ، وذلك لطبيعة السخرية التى تجافى الإطناب كل المجافاة إذ أنها نتاج العقول الذكية وتخاطب فى الأغلب الأعم العقول اللماحة .

ومن صيغ السخرية التى يمكن تعدادها :

الاستفهام مثل : من أنت أيها الجبار العنيد ؟ لمن ضؤل شأنه .

والأمر مثل : « ذق إنك أنت العزيز » والتهكم بالبخيل : ابتعد حتى لا تصاب مثلهم بالكرم !

والنهى مثل قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن سلمه   صعب ، وعش مستريحا ناعم البال

---

(١) انظر ما دار بين محمد بن مكرم وأبى العيناء فى « نوادر أبى العيناء » ص ٥٩ ، ٧٨

والتمنى مثلما يقول القائل للقسيس السارق : « ليتك تمنحنى بركتك »! وقول القائل للعاجز : لعلك تستطيع أن تحل هذه المعضلة !!

والتورية : كما جاء فى الآية الكريمة حينما كان اليهود يقولون (راعنا) لكى يوهموا المسلمين أنهم يقصدون اشتقاقها أو معناها العربى ، وهم فى الحقيقة يهدفون إلى معناها العبرى ونزلت الآية الكريمة : « لا تقولوا راعنا، وقولوا انظرنا » [1]

والمشاكاة : كمن أراد أن يداعب أو يهزأ ببخيل وعده شيئاً ثم أخلفه ، ثم وعده بوليمة عظيمة ، فيقول له :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه
قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا !![2]

وكثيرا ما استعمل أبو العيناء هذا الأسلوب مع بعض الحكام فى عصره [3] .

والمواربة : وهى فى الأصل المخادعة والدهاء : وفى الاصطلاح أن يجعل المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يغير معناه بتحريف أو تصحيف .

والعكس ، ويسمى القلب والتصدير [4] : وهو أن تقدم جزءا فى الكلام ثم تؤخره بأن تؤخر ما قدمت ، وتقدم ما أخرت، مثل قول أحدهم يسخر

---

(١) اللسان مادة رعن
(٢) زهر الربيع للحملاوى ١٥٤
(٣) نوادر أبى العيناء ص ١٠٢
(٤) زهر الربيع ص ١٦١

من صديق له غضب لمزاحه معه : ليس الضحك بداية سيئة للصداقة [1] ، ولكنه نهاية حسنة . وقد يدخل هذا النوع فيما يسمى « باللعب بالألفاظ » .

وتجاهل العارف : وهو سوق المعلوم مساق المجهول لنكتة : كالمبالغة في المدح أو الذم أو التوبيخ . كما قال زهير [2] :

وما أدرى - وسوف إخال أدرى — أقوم آل حصن أم نساء ؟

وتأكيد الذم بما يشبه المدح : وتنبع السخرية منه من المفاجأة التي يفاجأ بها المخاطب المقصود بالذم أو السامع مفاجأة لم تخطر له على بال حينما يبدأ الساخر بأسلوب المدح ثم يختمه بأسلوب الذم مثل ، أجمل شيء في صديق : طول أذنيه ! !! وإنه يكرمنا دائما بانقطاعه عن زيارتنا !

وحسن التعليل : أو السخرية بمحاولة التعليل أو التظاهر بالتعليل تأييدا للمخاطب المسخور منه : مثلما يقول أب لابنه كسر كوبا :

أعرف أنك كسرته لأنه مكث لدينا زمنا طويلا ! !

والتضمين : ويسمى أيضاً الإبداع : وهو أن يضمن الشاعر كلامه شيئا من شعر الغير مصراعا أو بيتا , مع التنبيه على ذلك ، إلا إذا كان مشهورا فإن شهرته تغنى عن التنبيه عليه [3] . مثل [4] قول بعض الشعراء مخاطبا طبيبا كان ببغداد يدعى نعمان لا ينجح مريض على يديه :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ! !

حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض ! !

---

(١) جحا : الضاحك المضحك للعقاد ص ١٦

(٢) زهر الربيع ١٦٥

(٣) زهر الربيع للحملاوى ص ١٧٧

(٤) جمع الجواهر للحصرى ص ٥٩

وقد اشتهر بهذا النوع الحمدونى فى طيلسان ابن حرب وشاة سعيد.

والسخرية بألفاظ المدح : وهو أن يكون الهجو أو السخرية بالعبارات التى تستعمل فى المدح مقرونة بما يصرفها إلى الهجاء كقول الحماسى :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا[١]

وقال بعضهم لشاعر . إنك أشعر من رسول الله ! !

والتصحيف : إما بوضع لفظة مكان أخرى بتبديل حرف يغير معنى الكلمة أو بوضع كلمة فى غير موضعها ، كمحاولة كاتب أن يسخر بطبيب بقوله إنه كتب تقريراً عن شخص متوفى ، وكان يعالجه ، وأخطأ وكتب اسمه أمام : « سبب الوفاة » .

وبعد ، فهذه بعض الصيغ التى تصاغ فيها السخرية ، وليس من همى إحصاؤها إذ هى كالبحر العميق الزاخر بشتى الأحياء ، أو هى دنيا واسعة لا يمكن حصر ما بين أطرافها ، كما يحاول البلاغيون حينما يحصرون أنواع البديع المختلفة أو غيره من أبواب البلاغة ، وحسبى فى ذلك للتعبير عن رأيى أن أذكر كلمة « برجسون » عن هذا الشىء المسمى بالسخرية : « أخشى أن يكون هذا الجوهر اللطيف من تلك الجواهر التى سرعان ما تتحلل إذا عرضتها للضوء »[٢]

---

(١) زهر الربيع للحملاوى ص ١٨١ .

(٢) الضحك لبرجسون ص ٩١ .

الباب الأول

١ - قدم السخرية ورسوخ قدمها عند الأوربيين :

للسخرية أو الميل إلى إثارة الضحك بواسطة الصور المضحكة جذور عميقة فى الطبيعة البشرية ، وهى من أقدم المواهب الفطرية التى مارسها الإنسان فى مجتمعه البدائى غير المهذب، وولوع الإنسان بالضحك والهزء والفكاهة ، وفطنته السريعة إلى كيفية إثارتها قد شملت البدائيين ، وقد ظهرت بوضوح فى علاقات بعضهم ببعض من قديم الزمن وحتى قبل أن يصقل الإنسان أدب أو فن ، كان رئيس القبيلة البدائية يجلس فى كوخ محاطا بالمحاربين من قبيلته ، وكانوا يسلون أنفسهم ويتلهون بتناول أعدائهم وخصومهم بالهزء بهم : فكانوا يضحكون من ضعفهم ويتبادلون النكات بما يجدون فيهم من نقص أو تشويه ، سواء كان هذا النقص عضويا، أوفى عقلهم وحيلتهم ، ويطلقون عليهم ألقابا مضحكة ، وهم يقصدون من وراء ذلك أن يهزأوا بهم بالألفاظ أو بأن يلفقوا عنهم الحكايات التى هى فى عداد الأشياء التى تثير انبساط أساريرهم وضحكهم .

ثم انتقل الإنسان القديم إلى مرحلة تالية فى هذا الفن : بأن بحث عن وسيلة يكسب بها هزءه صورة أكثر بقاء وخلودا، فأخذ يرسمها على الصحف المكشوفة ، أو على أى سطح لين رسما ساذجا .

ثم عرف هذا الفن عند كثير من الأمم القديمة : [١] المصريين والإغريق والرومان والهنود والوثنيين والمسيحيين. وقد وصلت آثار أدبية ساخرة عن أرستوفان أعظم مؤلفى الكوميديا الإغريقية كالضفادع وغيرها .

---

(١) أنظر دائرة المعارف الفرنسية La rousse مادة Caricature حيث تورد عدة أشكال منقولة عن الآثار المصرية القديمة تفيض سخرية .

وكان الكتاب الساخرون دائما رواد الحركات الإصلاحية فى التاريخ فاشتهر سقراط منذ القدم بطريقته الساخرة وهى التباله أو ادعاء الجهل ومحاولة إثارة الموضوع الذى يتكلم فيه أو يناقشه بهذه الطريقة، وأصبح من ذلك الوقت علما على هذه الطريقة فى الفلسفة Socra tic Irony أما هؤلاء الذين تقدموا النهضة الأدبية ـ ومن ثم الاجتماعية والسياسية ـ فى أوروبا، وفتحوا عصورا جديدة فى تاريخ شعوبهم بل تاريخ النهضة الإنسانية فهم رابليه الفرنسى (١٤٩٠ - ١٥٥٠) وسرفانتيس الاسبانى (١٥٤٧-١٦١٦) أما الثورة الفرنسية فقد قدم لها ومهد المصلحون الساخرون وعلى رأسهم فلتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨ .

٢ ـ فى الأدب الغربى :

وللسخرية عندهم فى نقد المجتمع القدح المعلى: فها دو بترونيس ينقد المجتمع الرومانى، ويحذو حذوه فى القرون الوسطى رابليه وسرفانتيز، وقد حاول الأخير استئصال فكرة «الفروسية» التى كانت مسيطرة على أوربا فى ذلك الحين، وينهج نهجه بتلر الذى سخر من المتزمتين، وريذيه الفرنسى الذى كان يسخر من الذين يعنون بقواعد اللغة والعروض عناية تطغى على الموضوع، أما موليير فقد انتقد أكثر صور المجتمع التى سادت عصره: كتعالم النساء، والبخل والنفاق، والأطباء وغيرهم. وأخيرا يطل علينا من عل شيخ الساخرين الاجتماعيين «شو» الذى نصب نفسه لهدم أكثر التقاليد البالية، فكانت سخريته غاية هى إصلاح المجتمع .

وعرفنا مما سبق أيضـــا بعض صور السخرية التى يتبعها الساخرون كمحاكاة الأمور الجدية بطريقة هازلة لإحالتها إلى صور مضحكة عابثة، وكالشعر الحماسى الساخر Mock Heroic والتعريض . ورسم الصور المضحكة والمبالغة فيها أو فى عضو ما من أعضاء الجسم .

وكانت السخرية إما منظومة وإما فى قالب مقالات أو قالب قصصى أو مسرحيات أو قصصا خيالية مبتدعة كما رأينا عند « لوشيان » الذى تخيل وصف رحلة إلى القمر ، وتصور قتالا بين أهل الشمس وأهل القمر ، أو كما تخيل « بوالو » معركة تنشأ بين رجلين حول شىء تافه : « منصة الخطابة » ، وكما حذا حذوه « بوب » فى « اغتصاب الخصلة » ، وأخيرا كما سلك صمويل بتلر فى أريون ، أو جوناثان سويفت فى « رحلات جلفر » أو لافونتين فى خرافاته . وإلى جانب القصص الخيالية ، تنبض القصص الواقعية التى تحاكى الحياة بأحداثها كما جاء فى « كنديد » لفولتير ومسرحيات موليير وبرناردشو .

وقد اتخذ بعض الكتاب من السخرية مادة خفيفة تشيع فى كتابته بين الحين والحين كالملح يصلح القليل منه الطعام ولا يقصد إليها قصدا بل تظهر فى ثنايا جمله من غير تعمد ، والبعض الآخر قد ركبه شيطانها وطغت عليه حتى كان فى أغلب كتابته أو مؤلفاته ساخرا ، وكأنما قد أصبحت مادة أصيلة فى دمه وفى عقله الباطن . أما الفريق الأول فمنهم لى ساج .

وأما الفريق الثانى فيتقدمهم رابليه الذى كان يقول إن الفكاهة والسخرية هما وحدهما السبيل إلى نجاة العالم وتخليصه من شوائبه، ولذلك يطلق على هذا المذهب « المذهب البانتاجريلى » نسبة إلى مؤلفه العظيم ، ومن أئمته فولتير وسويفت وشو الذى نظر إلى العالم بأجمعه تلك النظرة الساخرة ففلسفها بقوله : « والدنيا إحدى نكات الله » .

وهكذا يمكن أن نفرق بين نوعين من السخرية من ناحية الكم ـ إذا سمح لنا التعبير الأدبى بذلك ـ أما من ناحية الكيف : فقد اختلفت درجة السخرية عند الكتاب : فكانت عند بعضهم خفيفة رقيقة هادئة ، وعند بعضهم الآخر قاسية عنيفة لا ترحم ، فمن النوع الأول كان[1] باسكال فى

---

(١) دائرة معارف هارمز ويرث .

فى خطاباته الريفية ، وأوستن Jane Austen ١٧٧٥ - ١٨١٧ ، ولى ساج Le Sage ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ومن النوع الثانى جوستاف فلوبير .

ونستطيع أن نميز أيضاً بين سخرية ضاحكة مستبشرة متفائلة يحيطها الكاتب بسياج من الفكاهة وهى الصفة الغالبة على أكثر الكتاب الأمريكيين الساخرين مثل واشنطن ارفنج ومارك توين، وهناك مثل آخر من الأدب الألمانى هو جوزيف فكتور فن سيفل ١٨٢٦ - ١٨٨٦ مؤلف Ekhird ومن الأدب الفرنسى بروسبير مريمى ١٨٠٣ - ١٨٧٠ والسخرية الأخرى التى تقابل ذلك هى السخرية الجادة الرزينة المتشائمة كما ظهرت عند سويفت .

ونستطيع أن نميز بين السخرية السطحية التى يدركها القارىء العادى فى عجلة ودون حاجة إلى إعمال الفكر وبين السخرية العميقة التى تعدو فطنة القارىء العابر وأغلب الكتاب ينتظمهم النوع الأول وهم فريق يعملون على اجتذاب القراء إلى استساغة سخريتهم وإلى الوصول إلى غايتهم ومآربهم من أقرب سبيل .

أما النوع الثانى فيشتهر من بينهم صمويل بتلر ، ولذلك قال عنه النقاد « ولذلك لم يظفر بإعجاب عامة القراء ولم يعجب به إلا الخاصة المثقفة » . ومع ذلك فلا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نعثر على كاتب يتخصص فى نوع واحد من الأنواع السابقة أو تغلب على سخريته صفة واحدة ، بل إن الكاتب ربما استخدم هذا النوع أو ذاك وفقا للموضوع الذى يكتب فيه ، أو وفق الحالة النفسية التى تسيطر عليه فى أثناء كتابته . وعلى كل فما فى كثير من الكتاب ينفعم أدبهم بأكثر هذه الأنواع ، وما هى إلا درجات مختلفة متفاوتة لا يميز بينها إلا خط دقيق ليس من السهل على اللغة أن تصوره .

وقد تأثر كثير من الكتاب الساخرين بظروف حياتهم أو تكوينهم الخلقى أو الخلق والنفسى فصبغ حياتهم بصبغة السخرية ، وصبغ سخريتهم بصبغة ما : فالكاتب الرومانى جوفينال كان موتورا ، عانى فى نشأته الأولى كثيرا من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء يفىء إلى ظل حمايتهم ، وينال عطاءهم لقاء شعره، وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يتفضلون عليه بما يقيم أوده ، فترك ذلك فى نفسه مرارة لاذعة .

وكذلك كان جونسون سقيما فى طفولته ، طالما عانى من الأمراض الرمدية أما جسمه فقد اصطلحت عليه الأمراض العصبية والتشنجية ، وكان بوب سقيما وكانت حياته — كما ينعتها — مرضا طويلا : فقد كان عاجزا عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة، وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطرا إلى أن يلبس نوعا مزدوجا من الفراء تحت قميصه السميك وكان أحد جنبيه متقلصا ، ولنحول ساقيه كان يضطر إلى لبس ثلاثة أزواج من الجوارب لا يستطيع ارتداءها إلا بمساعدة ، وكان ينتابه مع ذلك صداع منهك يحطم ما بقى من قواه ، وقضى بعد وفاة أمه حياة مقفرة لأنه لم يتزوج . أما جى دوموياسان الكاتب الفرنسى الكبير فكان متشائما سوداوى المزاج ينظر إلى الحياة بمنظار أسود ، وقد مات مصابا بالشلل وهـو لم يزل فى ميعة الشباب (١٨٥٠ - ١٨٩٣). وكان هاينى متشائم النظرة، وقد خاب فى حبه وكان — على حد تعبير أحد النقاد — فى شعره بمثابة من يعترك مع الحياة اعتراكا: ربما كان مصدره مرض أعصابه الذى انتهى به آخر الأمر إلى شلل ألزمه الفراش ، وقد أطلق على فراشه إذ ذاك « قبرا من حشايا » وكذلك كان صنوه الألمانى جوزيف فكتور فون شيفيل قلق النفس ناقما متشائما . وكان فولتير — الذى يعتبر أئمة الساخرين فى العالم أجمع — ضعيف الجسم ، وكان له

من هزال جسمه ما أكسبه مزاجا حادا عنيفا، وعلة لا تنقطع أسبابها حتى نيف على الثمانين وهو يشكو شكوى متصلة من ضعفه الذى يشرف به على الهلاك.

وكذلك كانت حياة سويفت فقد نشأ يتيما وضاق ذرعا بالحياة فى كنف عمه ومن كان يعمل تحت إمرته، ولم ينل مأربه أو ما يكافىء نبوغه وقضى الأعوام السبعة عشرة الأخيرة من عمره فى وحشة ويأس من الحياة شديد.

ونستطيع أن نعدد أمثلة أخرى فنضرب المثل ببرناردشو ومارك توين، أى أن الألم هو المنبع الأصيل - فى أغلب الأحيان - للسخرية.

وعرفنا مما سبق أيضاً أن بعض الساخرين كانوا يهاجمون - بسخريتهم أشخاصا معينين خصوما لهم أو أعداء كما سلك جون دريدن مع الذين حقدوا عليه بسبب تنصيبه أميرا للشعراء.

وهناك آخرون كانوا يحاولون مهاجمة عيوب المجتمع ويحاولون إصلاحها، ولعل زعيمهم فى ذلك موليير وبرناردشو. وأخيرا أدركنا فائدة السخرية وأثرها فى المجتمع الأوربى وإلى أى حد طغى تأثيرها كما فعل سيرفانتيز فى أسبانيا بل فى أوربا كلها، وشارل ديكنز فى انجلترا، بل ليس بخاف علينا ما فعله كتاب المسرحية إبان احتلال الألمان فرنسا فى الحرب العالمية الثانية وكيف بثوا بها روح المقاومة وأشعلوا الوطنية الصامدة.

* * *

٣ — فى الأدب الجاهلى :

وإذا حاولنا دراسة « السخرية » فى الأدب العربى فيحسن بنا أن نلتزم المنهج التاريخى فنبدأ بالبحث عنها فى الأدب الجاهلى : نبحث عن الألفاظ التى تدل على السخرية، وعن الشواهد التى تبين سخرية الجاهليين.

أما الألفاظ التى تدل على معنى السخرية فقد نثرت فى الأدب الجاهلى، وأوردتها معاجم اللغة دون العناية بإيراد الشواهد التى تجلو دلالتها، وقد قرأت أغلب المصادر ووقفت منها موقف الشحيح ضاع فى الترب خاتمه على أهتدى إلى مقدار كاف من الشواهد، فلم أعثر إلا على هذه الأمثلة :

قال عبيد بن الأبرص :[1]

وساخرة منى ، ولو أن عينها رأت ما رأت عينى من الهول جنت
أبيت بسعلاة وغول بقفرة إذا الليل وارى اللحن فيه أرنت

وقال عبد المسيح بن عسلة العبدى[2] :

فأما أخو قرط ـ ولست بساخر ـ فقولا له : يا اسلم بمرة سالما

وقال الراعى النميرى (وهو الذى عاش فى بيئة شديدة القرب من البيئة الجاهلية : [3]

تغـــير قومى ولا أسخر وما حم من قـــدر يقدر

وبلفظ « التهكم » قال عامر المحاربى : [4]

يغنى حصين بالحجاز بناته وأعيى عليه الفخر إلا تهكما

وقال حسان يحرض بنى أبى البراء على عامر بن الطفيل [5]

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ / ٧١

(٢) المفضلية رقم ٨٣ ص ٦٠٧

(٣) اللسان ، وأساس البلاغة مادة سخر : وكذلك شرح ديوان زهير ص ٩٧

(٤) المفضلية ٩١ ص ٦٢٩

(٥) الطبرى ٢ : ٢٢١ حوادث سنة ٤ هـ

بنى أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبى براء ليخفره ، وما خطأ كعمد

وذكر الزمخشرى هذا الشاهد فى أساس البلاغة : (١)

تهكم عمرو على جارنا وألقى عليه له كلكلا

وبلفظ الهزء قال عبد الله بن سلمة الغامدى (٢)

على ما أنها هزئت وقالت هنون ، أجن ؟ منشأ ذا قريب

وبلفظ « الضحك » قال عبد يغوث (٣)

وتضحك منى كهلة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا

* * *

أما الأمثلة التى تدل على سخريه الجاهليين ، فهى قليلة عثرت منها على هذه الأبيات :

فمن ناحية الاستخفاف ، قال امرؤ القيس ـ لما فرقت بنو نبهان عليه فرقا من معزى يحلبها أنشأ يقول تهديدا واستخفافا : (٤)

إذا مالم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصى
إذا ما قام حالبها أرنت كأن القوم صبحهم نعى

(١) أساس البلاغة ٢ - ٥٥٠ هكم
(٢) المفضليات ١٠٣
(٣) النقائض ص ١٥٢ ، ١٥٣
(٤) ديوان امرىء القيس طبعة السندوبى ص ١٨

وقال قريط بن أنيف المزنى يتهكم بقومه : (١)

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة　　ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته　　سواهم من جميع الناس إنسانا

وقال الجميح : (٢)

فدى لسلمى ثوباى إذ دنس الـ　　قوم وإذ يدسمون ما دسموا

قال ابن الأنبارى : وتفديته أمهم استهزاء بها وبهم .

تشحذ بالدرع والخمار فلا　　تخرج من جوف بدنها الرحم

وقال زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها　　قرى بالعراق من قفيز ودرهم

قال يعقوب: هذا تهكم وهزء . وقال (٣) الأصمعى : وهذا تهكم منه أى استهزاء (٤)

ولا يمكن الاستدلال من هذه الأمثلة القليلة على الألوان أو أساليب السخرية التى انتشرت فى الأدب الجاهلى ، وكذلك لا يمكن القطع بأن السخرية كانت لديهم قليلة أو ضعيفة ، ولكنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا النثر الذى ضاع ولم يصلنا منه إلا القليل ؛ كما قال عبد الصمد بن المفضل الرقاشى : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون: فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . (٥)

---

(١) الحماسة ص ٤ ، ٥
(٢) المفضليات ص ٤١
(٣) المعلقات العشر للتبريزى «معلقة زهير»
(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢١
(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٥٨

٤ - السخرية فى عصر النبوة :

أما فى عصر الرسول : وفى أثناء المعركة الهائلة التى نشبت بين الإسلام والوثنيين المشركين ، فقد استخدمت السخرية غالبا من جانب المشركين لأنهم المنهزمون عقليا وروحيا ، فاستخدموا هذا السلاح مع ما استخدموا من أسلحة أخرى - ضد الرسول، ولا شك أنه لو عنى أحد بتدوينها لوصلنا منها الكثير .

فيروى ابن هشام صاحب السيرة : أن الإراشى لما طلب من بعض القرشيين أن يعينوه على رد إبله ، أشاروا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يهزأون به ، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة ، وقالوا : اذهب إليه وإنه يؤديك عليه [١] ، وكان الرسول (ص) إذا جلس فى المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق !؟؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا [٢] . ومر الرسول (ص) بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف ، وأبى جهل بن هشام فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من أمرهم : ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون [٣] . ولما تمادى المستهزئون فى الشر ، وأكثروا بالرسول

---

(١) السيرة - لابن هشام ٢ /١٥

(٢) المرجع السابق ٢ / ٣٤

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ والآية العاشرة من سورة الأنعام .

الاستهزاء، أنزل الله «فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون»[1].

وكان المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم[2] وتروى قصة فى كتب التفسير عن عبد الله بن أبى وأصحابه، تدل على هذا الاستهزاء. أولها: خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقال عبد الله بن أبى: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم: فأخذ بيد أبى بكر فقال: مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم أخذ بيد عمر ثم على وأخذ يمدحهم تماجنا وسخرية بهم كما فعل مع أبى بكر، ولذلك نزلت الآية: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم، قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون»[3].

وكان أمية بن خلف قد أجمع القعود، وكان شيخا جليلا جسيما، ثقيلا، فأتاه عقبة بن أبى معيط، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه، بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه ثم قال له: يا أبا على، استجمر فإنما أنت من النساء، قال: قبحك الله وقبح ما جئت به. قال: ثم تجهز فخرج مع الناس[4].

وبينما كان المسلمون متوجهين لبدر، لقوا رجلا من الأعراب، فلما قيل

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٠ والآية ٩٥ من سورة الحجر.
(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٦٥.
(٣) تفسير الكشاف ١ / ٢٨ سورة البقرة.
(٤) السيرة النبوية ٢ / ٢٨١.

له : سلم على رسول الله ، قال للرسول : إن كنت رسول الله فأخبرنى عما فى بطن ناقتى هذه !

فقال له سلمة بن سلامة بن وقش ، : لا تسأل رسول الله وأقبل على فأنا أخبرك عن ذلك : نزوت عليها ، ففى بطنها منك سخلة . فقال له الرسول (ص) ، مه أفحشت على الرجل [1] .

* * *

من الأمثلة القليلة التى ذكرنا آنفا ، نستشف أنه كانت هناك سخرية ما فى عصر النبوة ، ولكنها لم تصل إلينا ، وضاع معظمها ، قال زكى مبارك فى أثناء مناقشته فكرة وجود نثر فنى فى الجاهلية : « بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية فى عهد النبوة لم تصور إلى الآن بصورتها الحقيقة ، فهذا رجل غير أمة كاملة فى عشرين عاما ، ولقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التى قامت فى وجهه واضطرته إلى الهجرة ؟ وأين ألسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟ أفيعقل أن تمر دعوة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟ وهلا يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبى وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر [2] بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول فى النفح عن دياناتهم ، والقدح فى الديانة الجديدة التى تهاجمهم فى عقر دارهم ،

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ – ٢٦٥ .

(٢) زكى مبارك : النثر الفنى ١ – ٥٠ .

وخصوصا أن القرآن وصفهم بأنهم أهل فصاحة وجدل وخصومة وعناد(١).

ولاشك أن المؤرخين والمثيورين، قد تعمدوا طمس هذا الجدل والمنافحة والدفاع من جانب المشركين، يدل على ذلك قصة عمر مع عيينة الفزارى حين سأله عن عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إذ كان حكما بينهما فى المنافرة: أيهما أفضل، فأبى تفضيل أحدهما على الآخر أمام عمر قائلا: لو فضلت أحدا على الآخر الآن لقامت الحرب جذعة. (٢)

وكذلك مما يدل على ضياع تاريخ المشركين والمعادين للإسلام، أن بعض الشخصيات المناوئة، قد وصلت إلينا صورتها مشوهة بسبب الكفر، أو عدم اعتناق الدين الجديد، كعبد الله بن أبى الذى كنت أتخيله مرائيا ذا شخصية ضعيفة جبانا بعيدا عن العقل والحكمة، ولما قرأت قول الجاحظ عنه:

« وكان عبد الله بن أبى - قبل نفاقه - نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همته، ونبل شيمته، وانقياد العشيرة له بالسيادة والسعادة وإذعانهم له بالرياسة، وما استوجب ذلك إلا بعدما استجمع له لبه، وتبين لهم عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلا . . . . . ولقد خطب النبى (ص) بالمدينة، فشكاه إلى الأنصار، فقالوا: يارسول الله: لاتلمه فقد كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه » (٣) لما قرأت ذلك تغيرت نظرتى أو تصورى له وما كنت قد كونته عن شخصيته الحقيقية العامة قبل نفاقه.

ولاشك أن هؤلاء الذين حاولوا تقليد أسلوب القرآن قد سلكوا هذا

---

(١) زكى مبارك: النثر الفنى ١ / ٥٠

(٢) الأمالى ١ / ٥٤

(٣) مجموع رسائل الجاحظ (طبعة الساسى ١٩١٠) ص ١٥

المسلك أو فعل بعضهم ذلك على الأقل — وهم عارفون بقوته وجلاله — تماجنا وسخرية من أسلوبه الجديد، وصرفا للناس عنه بمحاولتهم إضحاكهم منه.

إذن لابد أنه كانت هناك سخرية فى الجاهلية والإسلام، ولكنها ضاعت مع ماضاع من الآثار الأدبية شعرا ونثرا لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين ومخالفة ذلك النثر للحياة الجديدة التى جاء بها الإسلام، ودونها القرآن. ومع ذلك فالغالب أن تلك السخرية لم تكن تسيطر على تعبيرهم الفنى أو تتغلغل فيه كثيرا لسببين هامين:

أولهما أن الساخر — فى العادة — غير صريح التعبير، يقول شيئا ويقصد عكسه، وذلك — غالبا — لخوفه من السخرة كما فى أيام الكبت السياسى أو الاجتماعى، كخوف الصبى ممن هم أكبر منه كالمعلمين، فإذا أدار له المعلم ظهره سخر منه، ولذلك فهو يعبر عن غضبه بأسلوب من التعبير غير مباشر أو بطريقة ملتوية، والعرب لا يعرفون إلا الصراحة فى التعبير، وعدم الخوف، لدرجة أن أحدهم قد قال بكل جرأة للنعمان حينما طلب فرسه:

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع

وكذلك فقد رفض النعمان تزويج بنته لكسرى ملك فارس حينما أرسل إليه فى ذلك ورد عليه بدون مواربة قائلا: « أما فى عين السواد مايغنى عن بنات العرب؟ أما المرأة فقد ردت على عمر حين أراد تحديد المهور على المنبر وأفحمته بآية قرآنية جعلته يتراجع ويقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وقد أراد عمر بن الخطاب منع حسان من إنشاد الشعر، فرد هذا عليه — مع مالعمر من هيبة معروفة مشهورة: اسكت فوالله لقد كنت أنشد هذا الشعر من هو خير منك — يقصد رسول الله ﷺ — فما كان يعترض.

من هذا يتبين ميل العرب — تلك الأمة الصحراوية التى لا يقيدها قيد اجتماعى أو سياسى فى الجاهلية — نتبين ميلهم إلى الصراحة ، ولذلك كانوا أسرع الناس إلى الهجاء بالسب والقذف ، أو بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو تريث ، وما فعله جساس بكليب وانتقامه منه قائلا لخالته البسوس « سأقتل جملا كبيرا » ، مافعله وما أوقده من حرب ضروس ليس بخاف علينا. ونرى مصداقا لذلك أن أغلب الشعر الجاهلى — الذى وصلنا — فى حالة الغيظ والحنق — لا يعبر عن نفس المغيظ إلا بمثل أبيات عنترة ، التى يمكن أن تكون النمط الأغلب للشعر الجاهلى :

ناديت عبسا ، فاستجابوا بالقنا   وبكل أبيض صارم لم ينحل
حتى استباحوا آل عوف عنوة   بالمشرفى وبالوشيج الذبل

ولذلك أطلق أبو تمام على مختاراته « ديوان الحماسة » ، إذ أنها الصفة الغالبة على الشعر الجاهلى .

والسبب الثانى الذى أرجع إليه عدم سيطرة السخرية على الهجاء وتغلغلها فيه هو تأثر العرب السريع ، ولابد للساخر من أن يكون متحكما فى انفعاله ولو إلى حين ، ولأمر ما حاول النبى (ص) انتزاع هذا الخلق فقال فى ذلك عدة أحاديث منها : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وقد قال برجسون مشيرا إلى ذلك « اللامبالاة هى وسط المضحك الطبيعى ، والد أعدائه الانفعال » .

إذن كانت هناك سخرية فى العصر الجاهلى والإسلامى ، ولم تكن هذه السخرية عميقة ، بل كانت خفيفة بسيطة ببساطة نفسية الجاهليين ، سهلة تبعا لحياتهم غير المعقدة ، خفيفة الوقع ، لا تعدو السخرية الفطرية التى تؤثر عن أناس متأخرين يكتفون بالملحة والتعريض دون الإلحاح فى السخرية والتنويع والتفنن فى أساليبها الموجعة .

ونستطيع أن نذكر فى ذلك قول الحطيئة لأبي بكر ساخراً منه فى حرب الردة:

أيورثها بكراً إذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

أو استهزاء العرب بأبى بكر ونعتهم إياه « بأبى الفصيل » ، ولذلك رد حسان عليهم قائلا :

ما البكر إلا كالفصيل وقد ترى   أن الفصيل عليه ليس بعار

وقال حسان هازئاً بجذام :

لعمر أبى سمية ما أبا لى   أنب التيس أم نطقت جذام

إذا ما شاتهم ولدت تنادوا   أجدى تحت شاتك أم غلام ؟!

وأخيراً أذكر تهكم الحطيئة بعتيبة بن النهاس العجلى الذى كان يبخل وقال له إنه أشعر الشعراء فقال : ما أنا بأشعر العرب. (وذلك لكى يفاجئه بعد ذلك).

فقال عتيبة : فمن أشعر العرب ؟

قال : الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم

فقال له عتيبة : أما إن هذه الكلمة من مقدمات أفاعيك[1] .

وبعد ، فلعل فى تلك العجالة السابقة ما يمكن أن نرد به على المستشرق مرجوليوث والأستاذ محمد خلف أحمد إلى الصواب : إذ زعم الأول أن الأدب العربى يخلو من الفكاهة والسخرية، وأيده الثانى بعض التأييد[2]. قال: د . زكى مبارك : «وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر فنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون، ثم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب انفردوا فى التاريخ القديم بالتخلف فى ميادين العقل والمنطق والخيال» [3] . وما أسلوب السخرية إلا أحد أساليب النثر الفنى الذى تكلم عنه الدكتور زكى مبارك.

---

(١) ديوان الحطيئة ٣٢٩ .

(٢) دراسات فى الأدب الإسلامى : لمحمد خلف الله أحمد (لجنة التأليف سنة ١٩٤٧) ١٣٨ - ١٤٨ .

(٣) النثر العربى : زكى مبارك ١ / ٥٠ .

السخرية فى القرآن الكريم :

إذا أردنا أن نبدأ حقا بدراسة النثر العربى بعامة ، وما نحن بصدده بخاصة، فأقدم أثر فنى يمكن أن ندرسه فيه هو القرآن الكريم ، وقد استدل المرحوم الدكتور زكى مبارك بالكتاب الكريم على وجود نثر فنى قبل الإسلام ، « فكان لهم – أى للعرب – بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان »(١) .

* * *

وقد ظهرت أصداء تلك المعركة التى قامت بين النبى ﷺ والمشركين فى آيات الكتاب الكريم ، ونستطيع أن نلتمس طرفاً مما نحن بصدده – أعنى الكلام عن السخرية – فيما جاء به رداً على ما كان يفعله هؤلاء المشركون ، ولكن فى الحدود التى رسمها القرآن الكريم منهاجاً له والأغراض المحضة التى نزل من أجلها ، وبالأسلوب الذى يتناسب وعظمة الخالق جل وعلا ، فهو ليس كتاباً فنياً محضاً نزل لغرض فنى بحت ، بل غايته دينية أخلاقية ، فإذا استعان بالألوان الفنية المختلفة من الأسلوب ، فهو استخدام يلائمه الوقار الإلهى الذى ينأى به كل النأى عما يقع فيه البشر من خفة وجهل .

* * *

وليس القرآن الكريم أول كتاب دينى وردت فيه معانى السخرية وألفاظها بل نجد التوراة من قبل تستعمل ألفاظ الضحك والاستهزاء بمعنى السخرية كما فى الجملتين : « الساكن فى السموات يضحك » ، « الرب يستهزىء بهم » .

وجميع الشواهد الواردة تنحى على المستهزئين باللائمة ، لأنهم يستكبرون ولا يصدقون :(٢) .

---

(١) المرجع السابق ١ / ٤٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : مقدمة جحا الضاحك المضحك ، الطبعة الأولى ص ١٠٠

وقد وردت « السخرية» في القرآن الكريم بألفاظ: «الهزء» والاستخفاف والضحك والسخرية : الأولى فى أكثر من خمسة عشر موضعا والاستخفاف فى الآية (٥٤) من سورة الزخرف ، والضحك بمعنى السخرية فى أربعة مواضع ، وبلفظة « السخرية » فى أربعة عشر موضعا ، وكلها تدور حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ، أو بالأنبياء السابقين ، وإنذارهم بأوخم العواقب وأسوأ العقاب بسبب ذلك : (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ») . [1]

وكان النبي ﷺ يضيق بفعل الكفار ، فيضرب الله الأمثال بمن سبقه من الأنبياء ومسلك الكفار إزاءهم كما يفعلون معه :

« ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » [2] « ذلك جزاؤهم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » [3] « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » . [4] « فلما جاءهم بآياتنا ، إذا هم يضحكون » . [5] ويذكر سخريتهم بالصلاة : « وإذا ناديتم إلى الصلاة ، اتخذوها هزوا ولعبا » . [6]

ولاشك أنهم كانوا يحاولون تقليد الصلاة بحركات مختلفة سخرية بالمؤمنين ، وضحكا منهم :

---

(١) التوبة آية ٦٥ .

(٢) الأنعام آية ١٠ .

(٣) الكهف آية ١٠٦ .

(٤) هود آية ٣٨ .

(٥) الزخرف آية ٤٧ .

(٦) المائدة آية ٥٨ .

« فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً » .[١]

« وإذا ما أنزلت سورة : فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً »[٢]

ولكن الله تعالى يؤكد لرسوله — لفرط شعوره بالضيق والغيظ — أنه تعالى أقوى منهم ، ولا بد أنه منتقم أشد انتقام: «إنا كفيناك المستهزئين »[٣]

ثم يذكر سبحانه وتعالى علاج سخريتهم بأخرى مثلها :

« فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم »[٤]

« الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون »[٥]

« قال : إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون »[٦]

ويصور حال الساخرين فى يوم القيامة ، وتحسرهم على فعلهم بالمؤمنين وسخريتهم : « ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين»[٧] « ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا، واتخذوا آياتى ورسلى هزواً»[٨]

ويذكر انقلاب فعلهم عليهم ؛ إذ أن المؤمنين سوف يشتفون منهم بمعاملتهم بالمثل ، وذلك إراحة المؤمنين المحنقين بما فعل بهم فى الدنيا :

---

(١) الإسراء آية ٥١ . قال البيضاوى فى تفسيره (طبعة صبيح سنة ١٩٢٦) : ينغضون: يحركونها نحوك تعجباً واستهزاء (ص٤٠٤) .

(٢) التوبة آية ١٢٤ : قال الزمخشرى فى الكشاف ١ / ٤١٥ : فمنهم من يقول إلخ الآية إنكار واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحى والعمل به .

(٣) الحجر آية ٩٥ .

(٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٥ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٣٨ من سورة هود ، والقول على لسان نوح عليه السلام .

(٧) الآية ٥٦ من سورة الزمر .

(٨) الآية ١٠٦ من سورة الكهف .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون »[١] « فاليوم الذين آمنوا كانوا من الكفار يضحكون ».[٢]

. . .

وإذا عرفنا مقـــدار وقع السخرية على الأنفس ، وشدة فتكها بالإنسان ، أدركنا السر الذى يكمن وراء تهديد الكفار بمثل السلاح الذى آذوا به المؤمنين ، ليكون ردعاً لهم ، ولذلك فليس بمستنكر - فى رأينا — نسبة فعل السخرية إلى الله سبحانه وتعالى (حقيقة لا مجازاً) كما ظن بعض المفسرين. ومحاولتهم تأويل آية البقرة : « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون »[٣] بأن المعنى عقاب ما ، ثم يحاولون تأويل هذا العقاب ، فى حين أن الله سبحانه وتعالى قد هدد فعلا بالسخرية بهم فى الآخرة[٤] ، كما فعلوا هم فى الدنيا ، وهذا أنكى عقاب .

والذى دفعهم إلى هذا شيئان : أولهما تنزيه الله سبحانه وتعالى عن السخرية التى هى فى نظرهم مرادفة للعبث واللعب ، وثانيهما آية الحجرات التى نهى الله تعالى فيها عن السخرية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم . . . »[٥]

---

(١) الآية ٢٩ من سورة المطففين .

(٢) الآية ٣٤ من سورة المطففين .

(٣) الآية ١٥ من سورة البقرة ، وجاء فى تفسير البيضاوى (طبعة صبيح ١٩٢٦ م) ص ١٣ . . وأما فى الآخرة فبأن يفتح لهم – وهم فى النار – باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . . . . »

(٤) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات .

(٥) تفسير الطبرى (تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) ١ / ٣٠٣ .

أما من ناحية التنزيه فقد رد أبو جعفر الطبرى بقوله : « أما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره : « الله يستهزىء بهم » إنما هى على وجه الجواب ، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة ، فنافون عن الله عز وجل ما قد أثبته عز وجل لنفسه ، وأوجبه لها ، وسواء قال قائل : لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية بمن أخبر أنه يستهزىء ويسخر ويمكر به ، أو قال : لم يخسف الله بمن أخبر أنه خسف به من الامم ، ولم يغرق من أخبر أنه أغرقه منهم ، ويقال لقائل ذلك : أن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكر بقوم مضوا قبلنا لم نرهم ، وأخبر عن آخرين أنه خسف بهم ، وعن آخرين أنه أغرقهم ، فصدقنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك ، ولم نفرق من شىء منه ، فما برهانك على تفريقك ما فرقت بينه ، بزعمك : أنه قد أغرق وخسف بمن أخبر أنه أغرقه وخسف به ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به ؟ ثم انعكس القول عليه فى ذلك ، فلن يقول أحدهما شيئا إلا ألزم فى الآخر مثله » . . .

« ويجب أن يفرق بين معنى اللعب والعبث ، والهزء والسخرية ، والمكر والخديعة . ومن الوجه الذى جاز قيل هذا ، ولم يجز قيل هذا ، افترق معنياهما : فعلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر » .

وهكذا يرد الطبرى على المنكرين على الله الاستهزاء بمن سخر بالدين والنبى ، بعد إيراد عدة آراء لغيره فى تأويل الاستهزاء والسخرية ، ولو أنه يفسر الاستهزاء بمعناه الأدبى الفنى ، قائلا : « والصواب فى ذلك من القول والتأويل عندنا : أن معنى الاستهزاء فى كلام العرب : إظهار المستهزىء للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرا وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنا ، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر » . وهذا رأى

ابن عباس : ، وبنحو ما قلنا فيه ، روى الخبر عن ابن عباس [1] ، قال ابن سيده ردا على من يحاول تأويل الاستهزاء : وهو عندى خطأ ، إنما تهزأ من الهزء الذى هو السخرى ، [2] .

* * *

وأقول : كان يمكن المفسرين أن يوفروا على أنفسهم مشقة محاولة التأويل لو عرفوا « دوران مادة سخر » ورأوا أن لها معنى لا يمكن أن تفسر بغيره وهو الاحتقار اللين غير الظاهر الذى فيه إبهام ، وصفة المواربة والاحتقار والإبهام التى تكمن فى المادة هى التى تعطى للكلمة تلك القوة التى لا توجد فى لفظة « احتقار » أو فى طريقة الاحتقار الساخرة أو فى غيرها من الكلمات القريبة الإيذاء .

فلا شك أن قول المشركين : « إنما نحن مستهزئون » فيه إيلام [3] للنبى صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين فكانوا جديرين لردهم عن بغيهم بأن يجازوا بجزاء من نوع فعلهم حتى يعرفوا وقعه فيرتدعوا ، كما قال تعالى « ولكم فى القصاص حياة ، يا أولى الألباب » فالقاتل إذا عرف أنه لابد مقتول فسيقدم رجلا ويؤخر أخرى خوفا من القصاص الذى هو من جنس فعله ، كذلك المستهزىء الذى سيسخر هو الآخر منه : سيفكر كثيرا وسيخشى هذه السخرية لأنه عليم بشدة وقعها على غيره ومدى فعلها بغيره ، وإلا لما استخدمها

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٣٠٥

(٢) وكلام ابن سيده الذى أورده اللسان / هزأ عن هزأ فى بيت رواه أبو عمرو بن العلاء .

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ وما ورد فى فقرة « السخرية فى عصر النبوة » التى تقدمت فى هذا البحث .

سلاحا قاسيا ، فهو قمين بألا يستعملها هو الآخر كما قال تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » وكذلك : وجزاء سيئة سيئة مثلها » فالله - سبحانه وتعالى - يجازى بجزاء من جنس الفعل والعمل ، وهذا أشد ردعا للفاعل وأنكى .

أما كيف يستهزىء الله بهم، فهذا أشد وقعا عليهم ، لأنه فعل مبهم غامض ، والغامض محير للإنسان بل هو أشد قسوة عليه من الظاهر ، ألا ترى إلى التهديد دائما بأشياء واضحة وأشياء غامضة ، مثلا يقول الإنسان «إذا فعلت هذا فسترى ما أفعله بك » وكما قال جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ... يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فكيف إذا كان التهديد بالاستهزاء من جانب الله سبحانه وتعالى ذى القوة الجبارة التى لا يمكن أن يتصورها بشر ؟ لا شك أن عقلهم الباطن سوف تختلط به هذه الصور ، وسوف تلح عليه فى التهويل والمبالغة فى التصوير ، حتى تفزعه .

* * *

٣ — أما من ناحية خشية المفسرين من نسبة « فعل السخرية » إلى الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عنها ، بسبب آية الحجرات، أو بسبب ما توحى به الكلمة من جهالة ومجون ، فإن الرد عليهم فى هذا أن المقصود بالسخرية المحرمة هو السخرية بالنقص البشرى الطبيعى الذى لا يد فيه لإنسان أن يصلحه أو أن يرده : كالسخرية من عضو من أعضاء الجسم ، فهذا مما يؤلم ، ويحول مجرد المزاح إلى شجار لا تؤمن عقباه ، أما السخرية البانية : كالهزء بالأشحاء أو الخائنين أو لئام الطباع أو المتصنعين غير السالكين السلوك الطبيعى فى الحياة ، وأما السخرية من المتكبرين أو المتغطرسين أو الحكام المستبدين ،

فهذا ـ فى ظنى ـ مالا ينكره الدين . ونستطيع أن نذكر ـ مصداقا وبرهانا على ما نقول ـ بعض أمثلة سخر فيها الله سبحانه وتعالى بعض السخرية كنوع من العقاب أو الزجر أو الإخافة .

فذكر التهديد بلفظ التبشير بقوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا[1] أليما » وذكر الإيعاد بلفظ الوعد بقوله تعالى « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم »[2] وقال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر » .

وهدد متهكما بقوله : « وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار »[3] .

وقال تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم »[4] .

وقال تعالى عن الكفار : « فما أصبرهم على النار »[5] .

وذكر تعالى استهزاء إبراهيم واستخفافه بهم حيث يقول[6]

فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . . قالوا . . . فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا

---

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء .
(٢) الآية ٦٨ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٤٩ من سورة الدخان .
(٥) الآية ١٧٥ من سورة البقرة .
(٦) سورة الأنبياء .

بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »[1]

قال الزمخشرى : « هذا من معاريض الكلام[2] ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى ، والقول فيه أن قصد إبراهيم ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها فى أسلوب « تعريضى » يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم » .[3] وقد كنت - فى صباى - أحدث نفسى متعجبا من إجابة إبراهيم ، وكنت أهجس فى نفسى أنها كذب ، ولم أدرك مرماها إلا حين وصلت إلى السن التى تسمح لى بفهم مثل هذه السخرية الخفية التى ربما تخفى على بعض من لا يعطى أو يمنح إحساسا دقيقاً أو فطنة، وهذا النوع من السخرية هو من أرفع أنواعها : وحسب الإنسان - كما قلت سابقا متحدثا عن أنواع السخرية - حسبه أن يتخذ مظهرا ما يغيظ به صاحبه أعنف إغاظة مما يكون أقوى أثرا من الكلام أو وقع السياط ، وقصة بشار مع زوج خليلته الذى سخر منه تدل على ذلك إذ أحرجه الزوج وسخر به سخرية أعنف من الضرب أو الإيذاء. وهذا الضرر النفسى وهو السخرية أطول بقاء وأعنف أثرا[4] ويؤيد ذلك تلك الحادثة التى ارتكبها بعض التلاميذ مع مدرسهم ساخرين به بوضع فاكهة مستطيلة - مشتقا اسمها من اسمه - فى صندوق الحكك ، ولما اتجه إلى الصندوق ليأتى بالحكك ووجد هذا الشىء المبهم فى

---

(١) انظر ما قاله سيدنا إبراهيم فى حديث الشفاعة فى عمدة القارىء شرح صحيح البخارى ١٩ / ٢٦ وفى ١٥ / ٢٤٧ (طبعة المنيرية) .

(٢) المعاريض جمع معراض من التعريض ، وهو التورية بالشىء عن الشىء وفى المثل - وهو حديث مخرج - إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب (اللسان مادة عرض) .

(٣) تفسير الزمخشرى : سورة الأنبياء .

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) جـ ٣ ص ٢٣٤ .

يده فجأة ، فهم السخرية ، وابتسم ابتسامة المغيظ المحنق وقد ذكرت قصة رابعة مشابهة حين الكلام عن أنواع السخرية[1] .

* * *

ونعود ثانية إلى استخدام سيدنا ابراهيم أسلوب السخرية مع قومه فنذكر آية أخرى شبيهة بالأولى ، يهزأ فيها بالآلهة : « فنظر نظرة فى النجوم . فقال : إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين[2] فهاهو يسألهم بطريقة تجاهل العارف ، ويستخدم ضمير المخاطبين مع الأصنام كنوع من السخرية ، ويخاطب الأصنام كأنها عاقل : ألا تأكلون . وزاد من تقوية الأسلوب الساخر قصر الجمل مما يجعل الصوت سريعا فى انتقاله من جملة إلى أخرى ، وكذلك المحافظة على الفاصلة من آية إلى أخرى . . ، وأكثر من هذا بدوّه نغمة السخرية بادعائه أو قوله : إنى سقيم ، كما كان يفعل سقراط تماما فى استخدامه أسلوب التجاهل أو كما أسميه : التباله . إنه يخيل إلى أخيرا كأنه حول هذه الأصنام الحجرية إلى حيوانات ـ قد نفخ فيها الروح ـ وقد أخذ يعبث بها ، ولم يكفه هذا بل جسد الصورة تجسيداً وزعم أنه يحاول أن ـ يضربها لكى تنطق ، وقد ظن فعلا ـ كما قد

---

(١) وأعتقد أنه لا داعى الإطالة فى التخريج من جانب المفسرين ، بل إن هذه السخرية ـ بما تحتوى عليه من صورة لاذعة ـ أقسى عليهم مما لو كان قد حطم الصنم الأكبر مع بقية الأصنام .

وهناك إضافة من المفسرين إلى تلك الصورة وهى زعمهم أنه علق الفأس فى عنق الصنم الأكبر ويرى بعض العلماء ومنهم المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبى أنها من الإسرائيليات ولعل مخيلة الإسرائيليين الساخرة هى التى دفعتهم إلى تصوير هذا الفعل من جانب سيدنا ابراهيم ، وليس فى هذا غضاضة من وجهة نظر السخرية .

(٢) الآية ٩١ من سورة الصافات قوله (بل فعله كبيرهم) .

نجح فى جعلنا نتخيل ذلك - أن هذه الأصنام التى أمامه من لحم ودم ، وأنه يجب ألا تعى بالجواب ، بل يجب عليها على الأقل أن تجيب مخرجا إياها من حجريتها بل يجب عليها - أو على الذين عبدوها - أن تكون فى منزلةوسطى بين الإنسان المفكر وبين الحجر الذى لا يحس ولا ينطق ولا يفكر ، أى تكون هذه الأصنام حيوانا فكأنه يقول لهؤلاء العابدين إننى أهزأ بكم وأحتقركم لو كان ما تعبدون حيوانا من صنع الله ، فكيف أهزأ بكم وإلى أى حد أسخر منكم إذا عرفت وانتهيت أخيرا من تساؤلى بأن ما تعبدون ليس إلا حجرا ، من صنع أيديكم ؟

أى سخرية رائعة نحسها ونحن نتلوا هذه الآيات المبينة المعبرة ؟

ويسوق - سبحانه وتعالى - قصة أصحاب الجنتين [١] ، فلا نملك ونحن نقرؤها إلا أن نسخر بالبخلاء الذين ظنوا فى أنفسهم القدرة ودوام الغنى :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون .

فطاف عليها طائف من ربك . . . وهم نائمون . . .
فأصبحت كالصريم .

فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين .

فانطلقوا - وهم يتخافون . . . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ! .

وغدوا على حرد قادرين !!

فلما رأوها ، قالوا : إنا لضالون

بل نحن محرومون

---

(١) سورة القلم .

وهنا لا نملك أنفسنا من السخرية اللاذعة بهؤلاء النفر الذين ورد ذكرهم فى قصة من تلك القصص التى حدثت قديما والتى يمكن أن يطلق عليها «سخرية القدر» .

وقد أضاف إليها القرآن الكريم من ألوان القوة وأضوائها المتباينة ما يجعلها فريدة رائعة :

فقد بدأها سبحانه وتعالى بإظهار أصحاب الجنة بمظهر الأقوياء الذين يتكلمون بلهجة تأكيدية بالقسم ، ثم باستعمال لام القسم ونون التأكيد والفعل يصرم وماله من دلالة قوية عنيفة على (القطع) ، وكذلك مما يدل على زيادة الثقة بأنفسهم عزمهم فى صباح اليوم التالى مباشرة « مصبحين » وكذلك عزمهم على قطعها كلها بغير استثناء - ولا يستثنون - وكلما عرف الإنسان أو القارىء نهايتهم التى سوف تكون فى آخر القصة لا يملك نفسه من أن يبتسم ابتسامة السخرية ، تظهر على شفتيه ، أراد أم لم يرد .

ثم يظهر الجبار سبحانه وتعالى مقدار تفاهتهم بإرسال قوة بسيطة من لدن العزيز القوى . طاف عليهم طائف من ربك ... وإذا قرأ القارىء « وهم نائمون » سوف تقفز إلى ثغره ابتسامة أخرى حينما يتصورهم فى جانب من الأرض الرحبة الطيبة، يتصورهم نائمين : أى مطمئنين إلى قوتهم وإلى أنهم سوف يصلون إلى مأربهم بعد ساعات معدودة حينما ينحسر الليل،

ثم يقول تعالى : « فأصبحت كالصريم ، وهنا تكمن السخرية فى سرعة قطعها - مع أنهم لم يكونوا يظنون أنها يمكن أن تنتهى بهذه السرعة أو هذه السهولة . . ، ولم يذكر تعالى كيف قطعت ليعطى ما يريد من التعبير عن السرعة . ثم يعـــبر عن نهايتها بكلمة « الصريم » وهى من جنس الفعل الذى استخدموه أولا : «ليصرمنها» فكأنه يردد - هازئا - نفس النغمة

التى ذكروها ، كمن يريد أن يهزأ بشخص فيستعمل نفس ألفاظه أو طريقة كلامه مقلدا . ثم عبر عن فعل التحويل بكلمة أصبحت بدل صارت لسببين: أولهما لتنسجم صوتيا بحرف الصاد مع «أصبحت» وفى هذا ما فيه من القوة ، وثانيهما ما يعبر عن السرعة ، بتحديد الوقت (من المساء إلى الصباح) أما صار فلا يدل على تحديد الوقت ، وكذلك لكى يوصلنا بالقصة إلى الصباح حينما نراهم يهبون من نومهم كى ينفذوا خطتهم ، فهو إيجاز فى التعبير رائع .

ثم يستمر فى سرد فعلهم الذى يبعث على السخرية بهم ، والعبث بفعلهم: فتنادوا مصبحين : أن اغدوا (مع أن الجنتين قد بارتا منذ هنيهة) على حرثكم إن كنتم صارمين ، وهنا يعبث بهم المرة الثالثة بتكراره كلمة (صارمين) من الصرم وهو القطع .

ثم يستمر فى الهزء بهم : فانطلقوا - أى أسرعوا نشطين قد امتلأوا جذلا وانشراحا لا يقيد حركتهم قيد) وكل هذا توحى به كلمة أو لفظة (انطلقوا) .

وكيف كان همسهم ؟ : أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ! وهنا السخرية أيضاً فى وصفهم - ذاهلين - يستحقون أن نضحك منهم كالإنسان يلعب به القدر أو الفأر يلعب به القط : ويؤكد القرآن الكريم - على لسانهم - الفعل (يدخل) . .ويزيد الأسلوب قوة باستعماله لفظه (مسكين) التى تدل على حقارتهم إذ أنهم يأبون أن يمنحوا مسكيناً جزءا بسيطا من خيرهم العميم ! واستعمل لفظة (مسكين) مفردة ليتناهى فى تصويرهم لنا بالميل إلى الشره والانكباب على الدنيا .

ويستمر فى السخرية بهم : وغدوا - على حرد - قادرين ، وهنا استعمل الفعل - حرد - وفيه حدة تشع من حرف الدال ، ثم تنبع السخرية من

الحال : قادرين ، وأخيراً تبلغ السخرية أوجها حينما ننتهى من الفصل الأخير من القصة وتتخيل نهايتهم وحسرتهم بعد هذا التصوير السريع المتدارك ، ثم نلاحظ ضعفهم بتغير الفاصلة من النصب فى (قادرين) إلى الرفع فى (لضالون) وهذا يقوى تصويرهم بالضعف ومن ثم تبلغ نهاية السخرية بهم والتشفى منهم !

* * *

والقصة الثالثة التى سوف نذكرها من قصص القرآن الكريم هى قصة موسى حينما نقرأ فيها عن جبارين يلتقطون طفلا لا حول له ولا قوة فينتصر عليهم بحول الله فى النهاية . « فالتقطه آل فرعون ... ليكون لهم عدوا وحزنا » . وهنا مفارقة عابثة تنبع من إنقاذ من يكون السبب فى هلاك المنقذ !!

* * *

وفى سورة المدثر :

إنه فكر وقدر . . . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ويبلغ عنف السخرية من كلمة (قتل) وهى قريبة من قولهم قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره ! فلفظة قتل تحجب الغرض منه الاستهزاء . وقد كررت مرتين لزيادة السخرية ، وذكر بعدها الاستفهام الذى هو من قبيل تجاهل العارف .

قال الزمخشرى : ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو هى حكاية لما كرروه من قولهم : قتل كيف قدر ، تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله .

* * *

وهكذا نرى تلك السخرية الهادفة التى عرضناها فى الآيات السابقة ، السخرية من هؤلاء الذين يتجافون عن اتباع العقل ، والفطرة السليمة ، والمسلك السوى ، فهى سخرية بناءة ، وليست سخرية هدامة ، سخرية تصلح وتستل العيوب ، وتأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم .

الباب الثانى

نحاول الآن أن نؤرخ للساخرين فى الأدب العربى وقد شهد الكثيرين منهم ، غـــير أن بعضهم قد ضاع معظم أدبه الساخر ، ولم يبق منه إلا القليل .

السخرية فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى :

نستشف مما قلناه سابقا أن السخرية قــــد مرت فى حس العرب فاستخدموها كغيرهم من الأجناس الأخرى ، ولم يخرجوا عن ذلك الناموس الطبيعى الذى يلتقى فيه البشر جميعاً . غير أن للعوامل الحضارية المختلفة تأثيرا كبيراً فى تعبير الإنسان وتطويره ، وهذا ما يمكن قوله فى « السخرية » ذلك اللون من الأسلوب الذى يتأثر بتطور الإنسان عقليا وحضارياً تأثراً كبيرا وهو ماحدث لهذا اللون بعد بزوغ شمس الحضارة العربية الأموية الإسلامية العباسية ، تلك الحضارة التى غيرت الإنسان العربى تغييرا كبيراً فصار إنسانا آخر يختلف عن أبيه وجده اللذين عاشا فيما قبل هذا العصر ، ولذلك حق للمستشرق بروكلمان أن يطلق على أدب ما قبل العصر العباسى أدبا عربيا وما بعده أدبا إسلاميا .

وسوف ندرس ها هنا السخرية فى العصر الأموى وقد كان فارسها المجلى الشاعر الكبير جرير ، الذى يعد بحق رائد السخرية فى الأدب العربى ، وسنقدم له بمقدمة نتناول فيها حسان والحطيئة شاعرين ساخرين ظهرا قبله .

— ١ —

حسان والحطيئة :

ظهر فى صدر الإسلام شاعران كبيران يعدان أستاذين لشاعرنا جرير إذ يكون معهما مدرسة هجائية ساخرة . وقد كنت أود أن يصلنا من شعرهما

قدر كبير يصلح للدراسة وتبين مذهب كل منهما ، ولكن معظم هذا الشعر الساخر قد ضاع فيما ضاع من كنوز فنية .

أما أولهما وهو حسان بن ثابت فلم يرو الرواة عن حياته ما يجعله منبعا فياضا لطائفة كبيرة من شعر السخرية ، غير أننا نعثر له على شعر ساخر امتد أثره إلى مخيلة جرير فتأثر به . فمن ذلك ما قاله لقبيلة جذام :

لعمرو أبي سمية ما أبالى ... أنب[1] التيس أم نطقت جذام

إذا ما شاتهم ولدت تنادوا ... أجدى تحت شاتك أم غلام

فهذه سخرية لاذعة ، وتصوير لحالهم حينما يولعون بالحيوان هذا الولوع إلى حد أنهم يفرحون كل الفرح لما تلده الشاة ، وكذلك تكمن السخرية فى رميهم بإتيان الشاة وتهكمه بهم : إذا قد يظنون أن الشاة قد علقت من أحدهم بغلام ! وتنبع السخرية من الفعل « تنادوا » الذى يصور فرحتهم ودعاء بعضهم بعضا ، ثم من الاستفهام فى الشطر الثانى من البيت الثانى !

وقد كثر هذا المذهب من التهكم والتصوير الضاحك فى شعر جرير ، كما سوف نرى حين الكلام عن جرير .

ويصور امرأة من مزينة تصويرا مضحكا فيقول :

رب خالة لك بين قدس وآرة ... تسقى البشام[2] ورفغها لم يغسل
تسعى وترقص حول أير حمارها ... حتى يكاد يمسها أو يفعل

ويهزأ بهم قائلا :

---

(١) نب التيس : صاح عند الهياج .
(٢) رويت فى ديوانه ص ٢٩٦ « تحت البشام » ولعل الصواب ما سجلناه والرفغ : ما حول الفرج ، وقد يطلق على الفرج .

قوم تواصوا بأكل الجار كلهم خيرهم رجلا والتيس مثلان
لو ينطق التيس ذو الخصيين وسطهم لكان ذا شرف فيهم وذا شان (١)

وقال فيهم من مقطوعة :

فما منك أعجب يابن استها ولكننى مـن أولى أعجب
إذا سمعـوا الغى آدوا له تيوس تنب إذا تضرب (٢)
ترى التيس عندهم كالجواد بل التيس وسطهم أنجب !
فلا تدعهم لقراع الكماه وناد إلى سوءة يركبوا !!

أما معاصره الحطيئة فقد طار صيته فى الهجاء الساخر ، وشهر بيته اللاذع الذى يخاطب به الزبرقان :

دع المكارم ! لا ترحل لبغيتها واقعد ! فإنك أنت الطاعم الكاسى !

وقد كان أطول باعا من حسان فى السخرية التى لم تكد تفارقه فى أغلب هجائه:

ولعل دارس شعره وحياته دراسة دقيقة يفطن إلى عوامل ثلاثة طبعت شخصيته بطابع الساخر: أولها عدم اهتدائه إلى حقيقة أبيه أو كونه ولد زناء كما كانوا يعبرون ، وقد لازمته تلك العقدة طوال حياته ، وجعلته يحقد على المجتمع الذى عاش فيه ، سواء أكان مجتمع أسراته وأقاربه الأدنين ، أم المجتمع الأكبر ، وأعنى به قبيلته التى انتسب إليها ،أو المجتمع العربى كله ، ولهذا سلط سوط هجائه على هذا المجتمع برمته . أما العامل الثانى فهو حرمانه ميراثه ، وإحساسه بالظلم والفقر ينشب فيه مخالبه حين كان إخوته الآخرون يستمتعون بالمال الموروث ! وأما العامل الثالث فهو قبح

---

(١) الديوان طبعة البقوقى ٤١٦

(٢) آدوا : قووا . ديوان حسان طبعة الدار القومية سنة ١٩٧٤ ص ٣٧١

منظره الذى شهد به المؤرخون الذين أرخوا لحياته ، ومافى ، قبح المنظر أو تشوه الجسد عاملا خطيرا من العوامل التى تطبع الشخص بطابع ما ومحاولة تغطية هذا القبح بالتعالى على المجتمع بالسخرية ، وقد ذكرت عدة أمثلة تبين ذلك فى مقدمة ديوانه الذى حققته .

كل هذا إذن قد أذكى فى نفسه تلك المنحة السماوية التى عوضه الله بها عما فقد، وأعنى بها المقدرة البيانية ، فأخذ يستعين بها على مهاجمة المجتمع، وكان المجتمع لا يفتأ يضحك منه ومن مفارقاته ، وحاد عن سبيل كثيرين من الشعراء السابقين له ، واتخذ سلاحا آخر هو « السخرية » .فجعل كثيرين ممن كرههم هدفا لسخريته ، ولعل زوج أمه هو أول من سدد إليه سهامه .

فما قاله فيه ولم يضع عبر الزمن :

فنعم الشيخ أنت لدى المخازى ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالى !

ونلاحظ أنه هنا فطن إلى « المقابلة » ، وأزها فى السخرية وقد أولع بها جرير فيما بعد كثيرا ، وكذلك فى التهكم باستخدام ألفاظ المدح فى موضع « الذم » وعكسها .

ويلجأ إلى الأسلوب الهادىء فى السخرية بالتساؤل أو ما يطلق عليه « تجاهل العارف » كقوله لقدامة العبدى :

فخرتم ، ولم نعلم بحادث مجدكم ... فهات ، هلم بعدها للتفاخر !
ومن أنتم ؟ ! إنا نسينا من انتم ... وريحكم من أى ريح الأعاصر
متى جئتم ؟ إنا رأينا شخوصكم ... ضئالا ، فما إن بيننا من تناكر
وأنتم أولى جئتم مع البقل والدبا ... فطار ، وهذا شخصكم غير طائر !

ويظهر عابثا بالوليد بن عقبة فى حادث شربه الخمر أيام عثمان بن عفان فيورد القصة بهذا فيها كأنه مجرد واصف يصف ما أمامه، ثم يبث فى أثنائها ما يشتم منه روح السخرية.

يقدم لقصته بهذا البيت :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

فيوحى بأنه سوف يقف إلى جانب الوالى، وينفى التهمة عنه ؛ ولكنه يفاجئنا بقوله :

نادى ـ وقد قضوا صلاتهم أأزيدكم ؟ ثملا ! وما يدرى !
ليزيدهم خيرا ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر !
فأتوا أبا وهب ولو فعلوا وصلت صلاتهم إلى العشر !

فنحس السخرية تكمن فى عبارة « ليزيدهم خيرا » . وفى الشطر الثانى من البيت الثالث . وهو لا يكتفى بهذا ، بل يعلق هازئا بتصويره جوادا مندفعا ، ولولا كبحه لاستمر فى عدوه :

خلعوا عنانك إذ جريت ولو خلوا عنانك لم تزل تجرى

وسخر الحطيئة بعتيبة بن النهاس العجلى زعيم بكر فى الكوفة حينما سأله عن أشعر الشعراء ، فإذا به يفاجئه ليشفى نفسه وينتقم من بخله قائلا : أشعر الشعراء الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم !

فقال له عتيبة ـ وقد فطن إلى اذع الحطيئة ـ : « أما إن هذه الكلمة من مقدمات أفاعيك ! »[1].

---

(١) وهذا هو ما سماه العقاد وغيره من الباحثين عن أسباب الضحك « بالدغدغة

ولعل روحه الساخرة من كل ما حولها قد ظهرت بوضوح فى وصيته التى زعم للرواة أنها حدثت ، وبالغوا فيها ، وقد سيطرت عليه روحه الماجنة[1] فى أيامه الأخيرة كما سيطرت عليه طوال حياته: طلبوا منه أن يوصى بشىء للمساكين، فسخر أو تماجن قائلا : أوصيهم بالمسألة ماعاشوا فإنها تجارة لا تبور ! وحينما سألوه أن يعتق عبده قال متماجنا : اشهدوا أنه عبد مابقى !

— ٢ —

جرير :

هذا الشاعر اليربوعى التميمى قد ولد بين سنتى ٣٠ ، ٣٣ هـ وعمر حتى سنة ١١٤ هـ وقضى الجزء الأكبر من حيـــاته فى مرابع تميم وبخاصة قرية « أثيفية » إحدى قرى الوشم باليمامة وزار البصرة والكوفة ودمشق عدة مرات وكان نصيب الأولى من زياراته وإقامته أوفر من غيرها .

وقد عملت الوراثة والبيئة عملها فى طبع هذا الشاعر بالسخرية[2] : ولد

= الفكرية » فى قوله : « وكما أن الدغدغة الجسدية تحدث فى المواضع التى لاتتعرض كثيرا للمس، ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ، كذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو أن عنصر الطروء أو المفاجأة الذى يجرى فى سياق التفكير هو العنصر القوى فى تكوين المضحكات» ، انظر كتاب جحا الضاحك المضحك للعقاد ص ٦٣

(١) انظر كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزى حيث يعرف المجون بأنه صرف اللفظ عن حقيقته إلى معنى آخر .

(٢) انظر كتابنا عن « جرير: حياته وشعره » ص ١١٩ وما بعدها، ص ١٧٧ وما بعدها، ص ٣١٧ ، ص ٣٨٤

لسبعة أشهر فكان لهذا أثره فى طبعه بالحساسية(١) ، وولد لأبوين يجتمعان فى جد واحد فزاد هذا من وراثته مافى الأبوين من عيوب خلقية وخُلقية ، تلك العيوب التى يومىء إليها من بعيد أو قريب حمق خاله معرض ، وشح أبيه وقصره واشتهاره بأنه كان مضعوفا ، ولججه - أى التواء قدميه - كل ذلك قد أصاب جريرا ولا شك بالشعور بالنقص ، ذلك الذى زاده ضعة قبيلته الدنيا « كليب » التى نعتتها مليكة ابنة الحطيئة بأنها - لفقرها ودناءتها - بعر الكبش ! ولقد زاد من تلك الحساسية وقوف جرير - الذى كان قصيرا دميما ذا غنة - وقوفه يطاول ويفاخر الفرزدق أكبر شاعر تميمى بل أكبر الشعراء فى زمنه ، والذى طالما باهى وفاخر بحسبه وقوة محتده : كل تلك العوامل قد تضافرت وامتزجت بكيانه حتى صيرته الشاعر الذى يأبى أن يعترف بنقصه سواء ذلك الذى يرين على نفسه أو يبـــدو واضحا جليا فى خلقه ، بل يتملكه الروح الساخر الذى يفطن إلى متناقضات الحياة حوله فيتحول من الضعف والاستكانة إلى فارس يمسك بيديه سلاحاً فتاكا هو سلاح السخرية ! !

وقد ظهر شعوره بالنقص من خلال قولة له فى معرض الموازنة بينه وبين الفرزدق بعد أن روى نادرة تدل على حقارة أبيه عطية : « فكيف برجل يريد أن يسامى بنى دارم بهذا ؟ » وقد ظهر هذا الشعور أيضا حينما نأى عن الفخر بكليب قبيلته الدنيا إلى الفخر ببنى رياح قائلا :

أتوعدنى وراء بنى رياح كذبت لتقصرن يداك دونى !

فقال له بنو كليب - وقد شعروا بذلك - ما هجانا أحد قط بأشد مما هجوتنا به ، حين استوى لك أن تقول : وراء بنى كليب فرغبت عن آبائك إلى أعمامك !

إذن شعر جرير بالنقص أمام خصمه المتعـــالى الفرزدق ، ذلك الذى

---

(١) هناك عوامل أخرى فصلتها فى كتاب « جرير »

احتقره ونظر إليه دائما راعيا حقيرا لا يملك الإبل، بل النقاد كغيره من الفقراء :

فياعجبا ! حتى كليب تسبنى وكانت كليب مدرجا للمشاتم

لخنق جرير على هذا المجتمع المتعالى «الأرستقراطى» الذى يمثله الفرزدق وكان صاحبنا يمثل الديمقراطية الشعبية المتواضعة التى أخذت تحاول إيجاد مكان لها فى مجتمع تسيطر عليه طبقة المجتمع المتعالية بحسبها ومحتدها، وهى التى توورثت عن الجاهلية، وحاول الإسلام إزالتها بمثل قول النبى (ص) : «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» . سخر جرير من هذا المجتمع المتعالى فى شخص الفرزدق الذى التحم معه فى معركة هجائية حامية الوطيس لم يشهد لهـــا الأدب العربى مثيلا ، تلك المعركة التى استمرت نصف قرن تقريبا (٦٥ — ١١٤ هـ) .

لعل جريرا لم يكن متفلسفا بهذا المعنى الكبير ، ولكنه كان البؤرة التى تتجمع فيها إحساسات الشعب أو المجتمع ، فيعطى القدرة على الكلام أو التعبير فيتكلم ، ويترجم عما أحسه مجتمعه ، وما ينوء به من آلام وعلل ، ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن شاعرنا قد ورث الإحساس بالظلم الاجتماعى عن أجداده منذ القـــدم : هؤلاء الذين تسلسل فيهم هذا الشعور بالظلم الاجتماعى ، فأخذ ينتقل من أب إلى ابن إلى حفيد ، حتى تركز فى مثل هذا الشاعر الذى منحه الله جهازا عصبيا حساسا شحن بالآلام منذ قديم الزمان ، ثم انعكست عليه آلام مجتمعه البدوى ثم الحضرى الذى عاش فيه، فكانت أخيرا عود الثقاب الذى أشعله بالسخرية ، يحاول بها تكبير عيوب هذه الطبقة التى تزعم لنفسها الكمال والعظمة والمجد وتدوس بأقدامها بقية مجتمعها الضعيف المهضوم ، معتمدة على أن ما تمتلىء به من عيوب قد غطاه ستار المجد الزائف الكثيف.

وليست العيوب التى سدد إليها جرير سهامه عيوبا شخصية فى الفرزدق أو الأخطل أو غيرهما ، بل هى عيوب اجتماعية تتمثل وتظهر فى المجتمع

الخاص أو الأسرة التى ينتمون إليهـــا ، وهناك عناصر مشتركة فى هجائه الأشخاص المختلفين : كالعنصر النسائى الذى استند إليه استنادا كبيرا بحق وبغير حق ، وهناك عناصر غير مشتركة كالنصرانية التى تميز بها الأخطل ، والفسوق والفجور اللذين اشتهر بهما الفرزدق ، ودقة الأصل ولؤمه وهما ما عرف بهما بنو التيم ، والعور الذى عير به الأعور النبهانى .

وأما الفرزدق : فقد مى جدته قفيرة بالزنا وقفيرة هذه أم جده صعصعة ، وكان لصعصعة عبيد قيون منهم جبير ووقبان وديسم ، فلذلك جعلت مجاشع قيونا واتخذ جرير من هذا مادة لسخريته ، كما فى قوله ذاكرا غالبا أباه :

وجدنا جبيرا أبا غالب   بعيد القرابة من معبد

ويتحدث عن بنى مجاشع دائما بالقيون ، كأنه قد أصبح اسمهم حقا ، وأنه لا ينكره منكر . ولما وصف غالب أبو الفرزدق بأنه مثل « حوق الحمار » وأنه كان يقبقب كالبعير كلما تكلم ، التقط هـــذه التسمية ، ونعت الفرزدق بها ، ضاربا صفحا عن اسمه الحقيقى ، فكأنه لا يعرف إلا بحوق الحمار :

وإذا فخرت بأمهات مجـــاشع   فأفخر « بقبقب » واذكر النخوارا

* * *

وكان جرير كثيرا ما يستعمل الألفـاظ التى تدل على الاستخفاف ، لإبهامها ، ولموسيقاها مثل جوخى [١] ، وخجخج [٢] ، والنخوار [٣] ،

---

(١) اسم للإماء .

(٢) الخجخجة : سرعة الإناخة والجماع ، ولها معان أخرى.

(٣) أى الجبان

والجيثلوط (١) ، وخضاف أو خيضف (٢) ، وقذام (٣) ، ووقبان (٤) ، وضوطر (٥) ، ورغوان. وشعرة ، وزبد استها ، والجلوبق (٦) ، وهذه أمثلة لما قلت ، ونلاحظ ما تشعه الألفاظ بموسيقاها ورنينها من إحساس بالهزء :

لقد كان يا أولاد خجخج فيكم محول رحل للزبير ومانع
فإن مجاشعا - فتبينوهم - بنو جوخى وخجخج والقذام

ولعل إيحاء الألفاظ السابقة لا يكون بالقوة التى كان بها فى عصر جرير، ولكننا إذا تصفحنا المعاجم استطعنا أن نستشعر إيحاءها ، بالإضافة إلى موسيقاها ، فعلى الرغم من أنها تشتمل على الحروف التى تنفر منها الأذن ولا تحبها كثيرا كالخاء وبخاصة إذا اجتمعت مع الجيم فى مثل جوجى وخجخج ، أو إذا ما تكررت فى كلمة واحدة ، وكذلك حرف الثاء والطاء فى جيثلوط ، والضاد والطاء فى ضوطر ، والجيم والقاف فى هذه اللفظة المستطيلة جلوبق :

رجوتم يابنى وقبان موتى وأرجو أن تطول لكم حياتى !
إذا لاقى بنو وقبان غما شددت على أنوفهم العصابا

وقوله :

تلقى بنات أبى الجلوبق نزعا نحو القيون ، ومابهن نفار !

وهكذا يتخذ جرير من غرابة الألفاظ ووقعها مادة للهزء حتى يبالغ فى ذلك فيستعمل ألفاظا ربما لم يعرف معناها كلفظة « الجيثلوط » التى تشع

---

(١) شتم اخترعه للنساء وكأن معناه : الكذابة السلاحة ، مركب من جلط ، جثط ، ثلط (القاموس)

(٢) الخضف : الضرط

(٣) هى التى تلطخ الجعر

(٤) من الوقب وهو دخول الأير

(٥) الضخم اللئيم العظيم الاست

(٦) الرجل ذو الجلبة والضجة .

إشعاعا غريبا كأنها تومىء حقا - فى البيت - إلى أن الذى يتحدث عنه مجهول النسب أو المكانة أو كليهما ، لأن معنى اللفظة ورنينها الموسيقى منفر بطولها من جهة ، وبإنهائها بحرف الطاء ، أو بالمقطع الأخير (لوط) من جهة أخرى ، وربما كان ساخرا فى ذلك كالمعرى حينما أطلق على « الجنى » الذى زعم أنه التقى به فى الجنة اسما يكاد يكون مضحكا بتركيبه وإبهامه : « الخيتعور أحد بنى الشيصبان » ويبالغ فى السخرية بكنية ساخرة طويلة فى حروفها ، غريبة فى وقعها على الأذن « أبو هدرش » كما نعت مجاشعا « بأبى الجلوبق » وإنما هذا يحدث فى كل زمن ، وربما فى كل لغة ، فقد سمعت أحد العامة يلقب الآخر ضاحكا ساخرا : لا يقصد السباب بل السخرية « يا ابن مكله زغل » وليس بالطبع لهذه التسمية أو اللفظة معنى يفهمه الناعت أو المنعوت بها ، ولكن إبهام معناها هو الذى ينبع منه السخرية بطوله أو بشكله أو بهيئته .

وإذا تصفحنا المعاجم ، وجدنا كثيرا من هذه الألفاظ التى تطن فى الأذن طنينا خاصا ربما عرف الإنسان مدلولها من وقعها فى أذنه مثل « العفنجج » (وهو الضخم الأحمق) والعشوزن (وهو العسر الملتوى من كل شىء ، والشديد الخلق) وربما اخترعت هذه الألفاظ فى عصور اللغة الأولى حيث لم تشتق من مواد كانت واضحة المدلول فى أذهانهم ، ونحتوا منها ألفاظا مقاربة لما فى أذهانهم فى المعنى ، بل مثل هذه الألفاظ الطويلة المقاطع من اشتقاق شخص من الأشخاص هدته إلى ذلك حاسته السمعية التى تدرك بالفطرة الحروف وصفاتها ومخارجها ومدى دلالتها .

وقد لحظ الدكتور محمد محمد حسين هذه الخاصية وهى مهارته فى استعمال بعض الألفاظ ذات الرنين الساخر فقال : ومن الهجائين من يرزق إلى جانب هذه الموهبة عبقرية فى الحس اللفظى تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هى حروف تتوالى - بالصور التئاما عجيبا ، ولا نكاد نعرف هجاء عربيا يعدل جريرا فى هذه الناحية : فهجاؤه يستفز القارىء للضحك ، قبل أن يروى فى معناه ويحققه[1] .

(1) محمد محمد حسين : الهجاء والهجاءون ١/٣٠

ولم يسخر جرير بالفرزدق وآله عن طريق الألفاظ ذات الرنين الساخر فحسب ، بل سخر أيضا عن طريق الصور المركبة أيضا : فقد عير الفرزدق بأدوات القيون التي يستعملونها ، فذكره بها كثيرا - ونسبها إليه ونسبه إليها - كما ينسب الابن إلى أبيه ، في تركيب ضاحك ساخر : يستعمل أسلوب الأمر التهكمي مرة ، وأسلوب التفخيم التهكمي مرة أخرى ، والمقابلة مرة ثالثة :

ألا إنما مجد الفرزدق : كيره وذخر له في الجنتين تعاقع

كيرك ياأخبث قين عرقا !

هلا حميت الكير أن يخرقا ؟!

وهكذا يذكر دائما - ويلح في هذا إلحاحا - أنه قد ورث عن أبيه وأجداده أدوات القين ، كأنما يثبت أنهم حقا أولاد العبيد القيون - جبير وديسم - الذين ادعى أنهم نزوا على جدته قفيرة :

وأورثك القين العلاة ومرجلا

وإصلاح أخرات[1] الفؤوس الكرازم

إذا عدت مكارمها تميم فخرت بمرجل وبعقر ناب

وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم قدوم غير ثابتة النصاب

ويخاطب قوم حدراء - بني زيق من شيبان - ساخرا بالفرزدق :

فامثل ما في صهركم أن صهركم مجيد لكم لي الكتيف وشاعب

أيفخر بالمحمم قين ليلى وبالكير المرقع والعلاة

---

(١) أخرات جمع خرت وهو الثقب في الفأس ، الكرزم : فأس مفلولة الحد والعلاة : السندان .

وفاز الفرزدق بالكلبتين   وعدل من الحمم الأسود
فرقع لجدك أكياره   وأصلح متاعك لا يفسد
وأدن العلاة وأدن القدوم   ووسع لكيرك فى المقعد
وأوصى جبير إلى غالب   وصية ذى الرحم المجهد
فقال ارفقن بلى الكتيف   وحك المشاعب والمبرد

وكثيرا ما يذكر هازئا الرفق بالكير وغيره :

ترفقت بالكيرين قين مجاشع   وأنت بهز المشرفية أعنف

وهكذا نجد جريرا يسخر فى صورة حية ، كأنها حدثت فى الواقع ، حينما يتخيل حوارا كأنه وقع حقا بين غالب — أبى الفرزدق — وبين جبير الذى ينسب إليه ، فينصحه ، بماذا ؟ بأعز شىء عنده ! وكأنما الوصية التى يريد أن يهمس بها فى أذنه قبل الوداع الأخير .. هذه الوصاة هى : أن يرفق بلى الكتيف !

ويضحك جرير ضحكا عاليا حينما يزعم أن جدهم القين قد دفن ، ومعه أعز شىء يملكه ، ألا وهو أدواته التى يعتز بها ... ومن يبكى صداه؟ إنسان؟ كلا ! بل هو شىء حى ، وما زال حيا فى نفس الميت . ألا وهو « المرجل » الذى كان ذا صوت مدو فى الدنيا :

وجد الكتيف ذخيرة فى قبره   والكلبتان جمعن والميشار

ولعل السخرية نابعة من لفظة « ذخيرة » حالة كونها مذخورة له وذخرا فى قبره .

يبكى صداه — إذا تهزم — مرجل   أو إن تثلم برمة أعشار(١)

إنه قد شخص المرجل — لأنه عزيز عليه — فجعله شخصا مخلصا يبكى

(١) البرمة : قدر من حجارة .

شيده حين لم يجد مخلصا من بنى قرابته يبكى صداه ، ويأخذ بثأره كما قاد الجاهليين ، حتى تقول الهامة اسقونى ، ثم يتصور اكان يحدث فى الحياة من اهتزاز الأرض لكثرة طرق الحديد فيتصور هازئا « المقر » الذى دفن فيه غالب أبو الفرزدق والذى افتخر به الفرزدق كثيرا ، يتصوره كأنه رجف :

رجف (المقر) وصاح فى شرقيه   قين عليه دواخن وشرار !

ويصور جرير الفرزدق قينا حقا ، فيسبغ عليه من سمات القين ماجعل « حدراء » خطيبته تتبين فيه هذه الصفة ، وتنكره أيما إنكار ، وتأبى أن يكون لها قريناً ، ثم يدير حواراً ـ كأنه حدث حقيقة ـ وذلك لكى يزيد من واقعية الصورة ، فيجعل الحوار بين حدراء والفرزدق ـ مع أنهما لم يلتقيا ـ كأنه قد تزوجها حقاً :

حدراء أنكرت القيون وريحهم   والحر يمنع ضيمه الإنكار
لما رأت صدأ الحديد بجلده   فاللون أورق والبنان قصار
قال الفرزدق رقعى أكيارنا   قالت وكيف ترقع الأكيار ؟
رقع متاعك إن جدى خالد   والقين جدك لم يلده نزار !

ولعلنا نلحظ هنا مهارته فى تصوير سلاطة لسان الزوجة فى بعض الأحيان حينما تخاطب زوجها ، فتعيره بأبيه وجده ، إذ تفخر هى بحسبها ونسبها ، ثم تزيد فى سلاطتها وحدتها ، حتى تنفيه عن العرب !

ثم زاد جرير فى التهكم ، فتخيل أنها دعت ربها « المصور » الذى صور الفرزدق بهذه الصورة ، دعته مستغيثة ضارعة :

دعت المصور دعوة مسموعة   ومع الدعاء تضرع وجؤار !
عاذت بربك أن يكون قرينها   قيناً أحم لفسوه إعصارا

إن البيتين مشحونان بالسخرية فى كل لفظة ، فهى مع دعائها قد تضرعت ووقفت منه ـ تعالى ـ موقف الضراعة لأمر عظيم ، وخطب جسيم نزل بها ـ أو كاد ـ وتريد جاهدة أن تتخلص منه . ثم يهزأ به بأن يصفه بكلمة واحدة وفيها من الاستصغار والهزء ما لا سبيل لوصفه أو لتصويره ، بل تمسه الأذن فيبتسم الثغر ، ثم يكبر صورة فسائه فيجعله إعصارا ! أرأيت إلى أى حد يهزأ به ويقسو عليه ؟ ثم ينتهى بالحوار الساخر فتقول له عذراء :

ليست لقومى بالكتيف تجارة لكن قومى بالطعان تجار !

وبذلك ترد عليه رداً سخريا مفحما تجعله ينقمر ، ولا يحاول أن يلح فى طلب يدها . وإذا أضفنا مدى ما يشعر به الرجل من إهانة وخيبة أمل إذا ما تقدم إلى امرأة خاطبا ، فيرد عنها خائبا ، فيزيد جرير من هذه الخيبة بأن يشيع هذا بين الناس ويذيعه بهذا التهكم المرير ، وبهذه الواقعية التى يظنها السامع أنها حدثت حقيقة ، إذا عرفنا هذا أدركنا وقع هذا على الفرزدق ومقدار جبنه وخوفه من جرير ، وهناك قصة يرويها أبو الفرج الأصفهانى : وهى أن ماجنا كان يسبح مع الفرزدق وغيره فى بركة ماء ، وجعل هذا الماجن ينفلت إلى الفرزدق ويقول : دعونى أنكحه حتى لا يهجونا أبداً ! فجعل الفرزدق يستغيث ويقول : ويلكم ، لا يمس جلده جلدى فيبلغ ذلك جريرا فيوجب علىّ أنه قد كان منه الذى يقول[1] وتدل هذه القصة على مدى خوف الفرزدق من تشنيع جرير بحق وبغير حق .

ولا يكتفى جرير بوصف خصمه بلونه الأورق وبنانه القصير ، بل يصف الشرار المتطاير حوله ، والدخان المتصاعد من النار : « قين عليه دواخن وشرار » ، فيقول :

---

(١) الأغانى ١٩ / ٢٩ .

أقين يا تيم يعيب قيساً   يطير على لهازمه الشرار ؟!

فيجسد الصورة تجسيداً : فهذه لهازمه ، وهذا هو الشرار المتطاير حوله كأنها ماثلة أمام أعيننا الآن بحركتها الواقعية .

ثم يكني عن القين الذى اتهمت به أمه وجدته بالكلبتين والكير ، لأنها من أخص لوازمه ، وبذلك رمى أمه وجدته بالزنا فى صورة مظللة متوارية مضحكة :

ولقد نهيتك أن تسب مخرقا   وفراش أمك كابتان وكير

ومما سلكه فى السخرية طريقة « المقابلة » فيقابل كثيرا صورة صنع الفرزدق - الذى هو أحد القيون - السيوف بينما جرير وقومه يستخدمونها بعد ذلك فى ميدان الشرف والفخار :

كان العنان على أبيك محرما   والكير كان عليه غير حرام !

إذا صقلوا سيفا ضربنا بنصله   وعاد إليهما جفنه وحمائله !

فأورثك العلاة وأورثونا   رباط الخيل أفنية القباب

تصف السيوف وغيركم يعصى بها
يا بن القيون ، وذاك فعل الصيقل

وتنكر هز المشرفى يمينه
ويعرف كفيه الإناء المكتف !

وهنا يمزج بين حادثة « نبو السيف » فى أيام سليمان بن عبد الملك ، حينما أعطاه بنو عبس سيفا كليلا ، فلم يستطع أن يضرب به رقبة الأسير ، بينما نجح جرير فى ذلك ، ومن ثم عيره كثيرا بهذه الحادثة ، فهو يقابل ويجمع بين هذه الحادثة التى خزى بها وضحك منه سليمان والحاضرون ، وبين كونهم « قيونا » أو رميهم بذلك :

وسيف أبي الفرزدق ـ قد علمتم ـ قدوم غـــير ثابتة النصاب !

وأخيرا فهو يضع هذه الأدوات بالقرب من أعضاء خفية من جسمه فيجعلها داخل إطار ساخر :

هو القين يدنى الكير من صدأ استه
ويعرف مس الكلبتين أنامـــله !

أتجعل يا بن القين أوسا وحاتما كذى مرجل عند استه وقدوم
إذا ما لوى بالكلبتين كتيفة رأين وراء الكير أيرا محمما !

ويقابل مقابلة لطيفة هازئا مصورا حبهم للكير وترفقهم به ، لأنه عزيز عليهم !

ترفقت بالكيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفية أعنف !

* * *

التعيير بالحبوة ، ومقتل الزبير وأكل الخزير (١) :

لما قال الفرزدق مفتخرا : « بيتا زرارة محتب بفنائه » سخر جرير سخرية لاذعة من صورة المحتبي التي كانت تعد فى أيامهم علامة الشرف والعزة والمنعة وقرن هذه الصورة « الصامتة » التى تمنع صاحبها من التحرك ، قرنها بعدم تحركهم لإنقاذ الزبير بن العوام ، الذى قتل بعد أن استجار بهم ولم يجيروه ! وارتسمت كذلك فى مخيلته ـ بمناسبة الحبوة ومقتل الزبير ـ تلك الصورة التى نقلتها الأسطورة ، وهى أكلهم الخزير سراعا ، متلهفين لما دعوا إلى ذلك ، فكرر هذا المعنى كثيرا ـ وهو أنهم قوم لا يستطيعون إلا عقد الحبى ، والقعود عن إجارة المستجير وأكل الخزير بنهم :

ودعا الزبير ـ فما تحركت الحبى ! لو سمتهم جحف (٢) الخزير لثاروا

والمقابلة بين دعوة الزبير ، وعدم تحرك الحبى هى منبع السخرية هنا ،

(١) الخزيرة : شبه عصيدة بلحم وبلا لحم عصيدة أو مرقة من بلالة النخالة.

(٢) الجحفة : اليسير من الثريد فى الإناء لا يملؤه والغرفة من الطعام أو ملء اليد.

وكذلك استعماله جمع « حبوة » : حبى ، ثم يكمل البيت بأنهم : لو سامهم أحد « الخزير » لتحركوا ، بل : لثاروا ، فيجعل غضبهم ممن يطلب الخزير ثورة، أما إذا دعاهم أحد واستجار بهم ، فهم هامدون محتبون !

أتفخر بالحبى وخزيت فيها ‏ ‏ وقبل اليوم ما فضحت حباكا
قتل الزبير وأنت عاقد حبوة ‏ ‏ قبحا لحبوتك التى لم تحلل !

وثم يشبههم تشبيها مضحكا ، فكأنهم ضباع تبكى ، لا على القتلى ، بل « كمرها » !

مثل الضباع تغنيهن نائحة ‏ ‏ تبكى على كمر القتلى بصفين !
وقد كان فى يوم الحوارى جاركم ‏ ‏ أحاديث صمت من نثاها المسامع
وبتم تمشون الخزير كأنكم ‏ ‏ مطلقة حينا وحينـــاً تراجع
إذا طرب الحمام ـ حمام نجد ـ ‏ ‏ نمى جار الأقارع والحتـــات
إذا ما الليل هاج صدى حزيناً ‏ ‏ بـــكى جزعا عليه إلى الممات !

والسخرية نابعة من إضافة « جار » إلى الأقارع والحتات ، ليزيد فى تفخيمهم ، ثم يضيف إليه ذلك العار :

ولا نحتبى عند عقد الجوار ‏ ‏ بغير النجاد ولا نرتدى
شدد تم حباكم على غدرة ‏ ‏ بحبشان والسيف لم يغمد

وكثيرا ما يشبه مجاشعا ـ ساخرا ـ بالضباع ، التى يقال عنها إنها تقترب من القتلى ، وقد انتفخت بطونهم ، ونعظت أيورهم ، تبغى من وراء ذلك غرضا من ميت لا يفيد :

تراغيتم يوم الزبير كأنكم ‏ ‏ ضباع بذى قار تمنى الأمانيا

والسخرية نابعة من هنا من كلمة « الأمانى » فجعل الأمنية الواحدة — أمانى كثيرة ـ فهو قد صور حب الضباع لما تتمنيناه بأنها كثيرة . فهو لم يكتف

بسخريته منها بتسميتها أمنية ، حتى عدها أمانى . والمعروف أن الأمنية شىء بعيد التحقيق يتمنى المرء حصوله، فكذلك هى تتمنى الضراب (الجماع) الحقيقى وهو شىء بعيد الحصول من ميت .

ويصفهم جرير ـ بعد قتل الزبير ـ كأنهم تعشوا الخزير ، وامتلأت به بطونهم فثقلت لذلك أجفانهم، فناموا من البشم ،ولم يستطيعوا إجارته :

باتوا ـ وقد قتل الزبير ـ كأنهم   خور صوادر عن نجيل قراقر
ودعا الزبير مجاشعا فترمزت   للغدر ألأم آنف وسبال[1]

وهو هنا يعبر تعبيرا قويا عن غدرهم بلفظة (ترمزت) وفيها من القوة والدلالة الصوتية مايدل على أنه وصل إلى غرضه بتعبيره عن غدرهم وتجمعهم له وتهيئهم تهيأ شديدا قبل القيام به ، وهو بهذا يرسم صورة كاريكاتورية لهذه الآنوف التى اضطربت ، وهذه السبال التى تحركت ، علامة على الغدر .

ثم يقابل بين الخزير ـ كطعام ـ وارتضاع الفيشل فى حادثة أبى سواج فقال :

ما كان ينكر فى ندى مجاشع   أكل الخزير ولا ارتفاع الفيشل

فهو منتهز فرصة هذا التقرير أو الإقرار الذى ينسبه إليهم : وهو أكل الخزير ـ فيمزج به فى الخفاء وفى دهاء ـ شيئا آخر قبيحا أشد القبح ، ليولد السخرية بهم ويزيد التهكم والهزء بهم فيقول : ارتضاع الفيشل كشراب ، نتيجة منطقية بعد الطعام !

شهد المهول أن جيش مجاشع   رضعوا الأيور على الخزير فخاروا

---

(١) واستعمل جرير (الترمز) فى عدة مواضع أخرى ، فمما قال :

اذا سار فى الركب البعيث عرفتم   ترمز حمراء العجان على الرحل
أضحى يرمز حاجبيه كأنه   ذيخ له بقصيرتين وجار

ويضاحكهم ساخرا فيقول :

لا تغلبن على ارتضاع أيوركم أوصى بذاك أبوكم المهمار !

ويربط كذلك بين تخمة بطونهم التي أصيبوا بها من أكل الخزير — وبين انتفاخ خصاهم الذي يمكن أن يكون قد نتج عن انتفاخ البطون :

تقرقر يا فرزدق إذ فزعتم خزيراً بات في أدر ثقال

ومثله ما قال الأخطل (واستخدم لفظ قرقر بما فيها من دلالة صوتية)

مسخ العباء وريح نسوة تغلب عدس يقرقر في البطون وفول

وفي القرقرة دلالة على الترجيع وإخراج الصوت ، فكان لهضم الطعام (الخزير) في بطونهم صوت يشبه القرقرة ، ولعل مثله قوله :

يغدون .. قد نفخ الخزير بطونهم رغدا ، وضيف بني عقال يخفع
مباشيم عن غب الخزير كأنما تصرت في أعفاجهن الضفادع

* * *

التعيير بعقر الناب بصوءر ، وحادثة نبو السيف

وعير جرير الفرزدق وسخر منهم — أي من مجاشع — بشيئين : أحدهما عقر الفرزدق بعقر الناب بصوءره ، وهي المعاقرة التي حدثت بين أبيه غالب وسحيم بن وثيل الرياحي في أيام عثمان بن عفان .

وكذلك سخر منهم ثانيا بشيء آخر ، وهو (نبو السيف) لما أراد أن يضرب به عنق الأسير أمام سليمان ، وكذلك سخر منهم كثيرا برميهم بارتضاع الفيشل في مقابل سخرية الفرزدق بـ كليب حينما عيرهم بحادث (صرد اليربوعي) الذي شرب مني عبد أبي سواج ، كما فصل ذلك أبو عبيدة في النقيضة رقم ٣٩ ص٢٠٦ من النقائض .

وكان جرير — يمزج كل هذه العيوب بعضها ببعض ، فيركب من عقر

الناب والكير صورة ساخرة ضاحكة : فيقول ـ مقابلا بين إيراد يربوع الخيل للحرب وإيراد مجاشع الإبل حاملة الكير :

فنورد يوم الروع خيلا مغيرة … وتوردنا نابا تحمل الكير صوءرا
سبقت بأيام الفعال فلم تجد … لقومك إلا عقر نابك مفخرا !
لقيت القروم الخاطرات فلم يكن … بكيرك إلا أن تكش وتيعرا !!

وقال أيضا فى عقر الناب :

لقد سرنى ألا تعد مجاشع … من الفخر إلا عقر ناب بصوءر

ويمزج بين نبو السيف عن رقبة الأسير أيام سليمان ، وعدم نبوه حين عقر الناب :

ضربت به عرقوب ناب بصوءر … ولا تضربون البيض تحت الغماغم
دعوا المجد إلا أن تسوقوا كزومكم … وقينا عراقيا وقينا يمانيا

ويسخر عليها بارتضاع الأير :

تلك المكارم لم تجد أيامها … لمجاشع ، ففقوا ثعالة فارضعوا
لا تظمأون وفى نضيح عمكم … مروى ، وعند بنى سويد مشبع
رضعتم ، ثم سال على لحاكم … ثعالة حين لم تجدوا شرابا

* * *

نسوة مجاشع :

وقد قلت قبلا إنه يمزج عناصر السخرية بعضها ببعض ، كما سماه برجسون « تداخل السلاسل » فهو لا ينسى الخزير فى هجائه نسوة مجاشع ، والسخرية بهم ، فيقول :

إذا طرقت بنخوبة من مجاشع … أتى دون رأس «السابياء» خزيرها

وأكثر هجاء نسوة مجاشع يدور حول أعضائهن التناسلية ورميهن

بالفاحشة فى تصوير ماجن يميل إلى السخرية أحيانا ، وأكثر من تعرض لهجائه الموجع « جعثن » أخت الفرزدق . فقد انتهز فرصة تعرض « عمران بن مرة المنقرى » لها فى الطريق — انتقاما من الفرزدق — فادعى ادعاء بارتكابها الفاحشة ورماها بها فى جل قصائده الهجائية ونقائضه :

وجعثن حين أسهل ناطفاها   عفرتم نيم جعثن فى التراب
فشدى من صلاك على الردافى   ولا تدعى فإنك ان تجابى
فـاو كاوم جعثن إن سعدا   ذوو عادية وهى رغاب !

ويربط بين « جعثن » والحى ، كما تعود دائما أن يربط ويمزج بين السوءات أو النقائص مقابلا بينها :

نسيتم عقر جعثن واحتبيتم   ألا تبا لفخرك بالحبات !
وقد همبت مواقع ركبتيها   من التبراك ليس من الصلاة !
تبيت الليل تسلق اسكتاها   كدأب الترك تلعب بالكرات
وحط المنقرى بها فقرت   على أم القفا ، والليل عات !

فهذا تصوير مجسم للحادثة المزعومة حتى يخيل للناس أنها وقعت حقا ، ويزيده من واقعيتها إجراء الكلام على لسانها مستغيثة فيقول :

تنادى غالبا وبنى عقال   لقد أخزيت قومك فى النداة
تدلى بابن مرة — قد علمتم   تدلى ، وهو ينهز بالفلاة !

فهو يبالغ فى نكاحها حتى يجعل ركبتيها تدمى ، وتسلق اسكتاها فيشبهها تشبيها ساخرا بكرة يتلقفها الترك — وهم الذين يكرههم العرب ويسخرون بهم دائما — ويلعبون بها ، وهذا زيادة فى احتقارها ، وهنا يزيد فى المبالغة فيصور الحركة بكلمة « حط » وتبلغ السخرية منتهاها بإضافة « العتو » لليل ، كأنه حمل شدة المنقرى بها على الليل أيضا ، فهو من قبيل تماوج الأضواء

والألوان وتأثير أحدها فى الآخر ، ، فأراد جعله بهيما شديد السواد فنعته بالعتو : ومن الغريب أنه لا يذكر الفاعل بعد (تساق) فيستعمل المبنى المجهول كأنه لا يعـــرف من الذى فعل بها الفاحشة ، فكأنهم كثر لا يستطيع إحصاء عددهم ، فبنى الفعل (تساق) المجهول ، وهذا زيادة فى بحر نه بهجائها ، وكذلك فقد صور حركة رفعها والانخفاض بها تصويرا واقعيا لا بكلمة (حط) فحسب ، بل بالفعل (ينهز) من (نهز الدلو) ، فهو دائما أبداً مدلى آنا مصعد به آنا آخر فى حركة دائبة .

وكذلك يسخر سخرية لاذعة حينما يشبه (جس ابن مرة فرجها) بجس الطبيب ، فهو يترفق بها كأنما يعالجها ، مع اختلاف العلاج فى كلا الحالين ، فالأولى يعالج فيها من داء خارجى مادى ، والأخرى من داء داخلى ألا وهو الشهوة .

غمز ابن مرة يافرزدق كينها غمز الطبيب نغانغ المعذور

ولعل فى استعماله للفعل (غمز) خبثا ودهاء يدلان على براعة فى استعمال الألفاظ، وكذلك نداؤه الفرزدق فى وسط العبارة فيه تنبيه وغمز وسخرية عنيفة ، وهذه أمثلة أخرى لا تخفى فيها السخرية من الكلمات (حط) و (تثاءب) :

وجعثن حط بها المنقرى كرجع يد الفالج الأجرد
تثاءب من طول ما أبركت تثاؤب ذى الرقية الأدرد

ويسخر منه لما تغزل ، فيلومه أن لم يثأر لبنت العظماء : (بنت القيون) :

فهلا ثأرت ببنت القيون وتترك شوقا إلى (مهدد)
وهلا ثأرت بحل النطاق ودق الخلاخل والمعضد ؟!

ويضحك ساخراً حينما يشبه النكاح , بالطعن ، ثم يبالغ ، فيزعم أنها جرحت ودعا لها الطبيب ، ولكن بعد فوات الوقت :

طعنت بأير مقاعسى مخلج فأصيب عرق عجانها النعار
باتت .. تكلف ماعلمت.ولم تكن عون تكلفه ولا أبكار

دعى الطبيب - طبيب جعثن - بعدما
عصت العروق وأدبر المسبار
شبهت شعرتها إذا ما أبركت أذنى أزب يفره السمسار !

أما السخرية العنيفة فى تشبيهه شعرتها فى البيت الأخير يجسها بعناية كما يفعل السمسار الذى يدقق النظر واللمس ، ويطيـــل ويبالغ فى الفحص ، فهى فى غنى عن التعليق .

ويطعن الفرزدق طعنة نجلاء حين يتباله ، فيتخيل ويزعم أن ثمة حوارا دار بينه وبين أخته يسألها - إمعانا فى الواقعية - من الذى أصابها ؟ آبن مرة أم صحار ؟ ثم يرد هو قائلا : ليس لها أن تتكلم ، لأن عجانها ناطق وشاهد بأن كليهما فى الحقيقة هما اللذان تداولاها :

قال الفرزدق هل أصابك فى السرى
عمرو بن مرة أو لقيت صحارا
وسألت جعثن من أصابك منهم وعجان جعثن يخبر الأخبارا

ثم يتهكم بغالب ، ويزعم أن الحسرة أخذت منه كل مأخذ :

رأى غالب آثار فيشل منقر فما زال منها غالب بعد مهترا
بكى غالب !! لما رأى نطفا بها من الذل إذ ألقى على النار أبصرا

ولما استغاثت جعثن - ولم تجد مغيثا - دافعتهم . . . باستها ! وهذا أنكى وأمر !

نبشت جعثن دافعتهم باستها إذ لم تجد لمجاشع من يدفع

قال الفرزدق ـ وابن مرة جامح ـ

كيف الحياة ؟ وفيك هذا أجمع ؟!

والسخرية تنبع من كلمة « وفيك هذا أجمع » كما قال :

لم تلق جعثن حاميا يحمى استها وبخلجم زبد المشـــافر تتق

وقال :

وجدوا الجعثن ـ حين قبقبت استها ـ مثل الوجار أوى إليه الأضلع
هدموا وجارك بعد ما خبرتهم ألا تكاد تجوز فيه الإصبع
يبكى الفرزدق ـ والدماء على استها ـ قبحا لتلك غروب عين تدمع

وينطقها أيضا فتقول :

وتقول جعثن ـ وابن مرة جامح ـ خلجا ، رويدا ، قد نزعت طحالى

وقد كرر « جامح » كثيرا ولهذه اللفظة دلالتها العنيفة المضحكة .
وأخيرا ... يتهكم بالفرزدق جامعا بين عنفقته واسكتيها :

ترى برصا بأسفل اسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا

ويتهكم عابثا « بسكينة » عمة الفرزدق :

ودت سكينة أن مسجد قومها كانت سواريه أيور بغال !

ويجمع بين « سبال » الفرزدق ، وشرار القين ، وولوع أمه بالقين :

يظل القين ـ بعد نكاح ليلى ـ يطير على سبالكم الشرارا !
ليلى التى زفرت وقالت حبذا عرق القيانة من خبير يتبع
قفيرة أم القين يثمر بظرها مرارا ، إذا ما عرفج الصيف أثمرا
تسوف صنان القين ـ من ربة به ـ ليجعل فى ثقب المحالة محورا !

* * *

هجاء جرير الفرزدق نفسه وسخريته به :

نراه كثيرا ما يستخدم المقابلة الغريبة :

وجد الفرزدق فى مساعى دارم قصرا ـ إذا افتخروا ـ وطول أيور

ويطعنه فى أخلاقه ، فيصور قلة دينه وفجوره حتى يقول هازئا :

فإنك لو تعطى الفرزق درهما على دين نصرانية لتنصرا
منحت الجار أيرك ـ وهو أعمى ـ وبئس منيحة الزمن المحيل
تدليت تزنى من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلى والمكارم

وكما قلنا ـ من قبل ـ إنه يربط بين المخازى أو السوءات التى يعيره بها ، فهو هنا أيضا يربط حادثة « نبو السيف » وولوجه الماخور ، عادلا عن خطته الأولى من تقييد نفسه لحفظ القرآن الكريم فى مطلع شبابه :

لحى الله من ينبو الحسام بكفه ومن يلج الماخور فى الحجل يرسف
وقائلة ما للفرزدق لا يرى على السن يستغنى ولا يتعفف

وما ألطفه حينما يتهكم به ، فيجمع بين ربطه نفسه بالحجل وعدم ربطه (حدراء) بالأغلال ، ففرت بذلك منه :

وقد بات مغترا بحدراء قينكم ونام ، ولم يجعل على قيدها قفلا

ومن ناحية هجائه الخلقى ، فإن الفرزدق ـ لكونه قصيرا قبيح الوجه ـ فقد شبهه كثيرا بالقرد :

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا ؟

ومما يتصل بهذا الهجاء الخلقى الذى يصور الشخص تصويرا كاريكاتوريا مضحكا سخرية جرير ـ بالحيقطان ـ وكان أسود ، وقد رآه جرير يوم عيد فى قميص أبيض :

كأنه ـ لما بدا للناس ـ
أير حمار لف فى قرطاس[1]

---

(١) رسائل الجاحظ (طبعة الساسى) ص ٥٦ .

وكذلك هجا جرير الأخطل ساخرا ، وأكثر ما استغله فى سخريته « نصرانيته » ذات السمات الغريبة عن الدين الإسلامى ، فمزجها ببعض بالناحية النسائية التى يغيظ خصمه ذكرها ، والتى يبرع فى تناولها البراعة كلها.

وأول عنصر نلحظه فى سخريته : « التصغير » فيخاطبه دائما بالأخيطل ويتحدث عن نسوته « نسية تغلب » والعنصر الثانى هو سمات الدين النصرانى التى منها إباحة الخنزير لهم فيقول مثلا :

الضاحكين إلى الخنزير شهوته ... يا قبحت تلك أفواها إذا اكتشروا

ويقول :

أتزعم ذا المناخر كان سبطا ... يهوديا ، وتزعمه أبا كا ؟

ويقرن « الصليب » بأعضاء نسائهم فى سخرية أليمة مجسمة ، فيقول :

فالتغلبية ـ والصليب على استها ـ ... رجس موقعـــة العجان ذلول

ويربط بين نسائهم وبين « القس » والخنزير والصلب فى عبث مضحك فيقول :

إذا ما القس نادمهن يوما ... على الخنزير ، وانكشف الفدام[1]

بدأن شواءهن بخصيتيه ... وهن إلى جحافله قرام !

ويقابل ـ كعادته ـ بين شىء داخلى يقبح ذكره ، وبين شىء خارجى ، فيقول :

والتغلبية فى ثنى عباءتها ... بظر طويل ، وفى باع ابنها قصر

كما قال للفرزدق من قبل :

وجد الفرزدق فى مساعى دارم ... قصرا إذا افتخروا ، وطول أيور

وللأعور النبهانى :

ألست لنبهانية طال بظرها ... وباع ابنها عند الفخار قصير

وأعور من نبهان أما نهاره ... فأعمى ، وأما ليـــله فبصير !

(١) الفدام : شىء تشده العجم والمجوس على أفواهها عند السقى ، والمصفاة فوق الإبريق .

ويجمع جرير بين القس ، والدير ، والخنزير ، والصليب ، والعباءة في سخرية وعبث لاذعين :

قل للأخيطل لم تبلغ موازنتي ... فاجعل لأمك أير القس ميزانا
يا خزر تغلب ما بال نسوتكم ... لا يستفقن إلى الديرين تحنانا

ويصفهن ضاحكا وقد سكرن :

لما روين على الخنزير من سكر ... نادين : يا أعظم القسين جردانا
هل تتركن إلى القسين هجرتكم ... ومسحكم صلبهم رحمان قربانا ؟

ويستخدم التشبيه أيضا في سخرية صارخة لجة :

تلقى بني تغلب زبا مناخرهم ... كأن آنافهم بالموصل الكمر

وقال :

هم جردوا للتغلبيين نسوة ... كأن معراهن أفواه أكاب !

ويصور الفم :

تفتر عن قرد المنابت لطاط(١) ... مثل العجان ، وضرسها كالحافر

ويقول :

شبهت أرآد لحييها إذا سكرت ... خصيي حمار مذك عند بيطار

وأخيرا نذكر له قوله :

تسوف التغلبية وهي سكرى ... قفا الخنزير تحسبه غزالا !

وقوله :

إذا شربت بالليل قسطين أصبحت ... شبيها بجردان الحمار وريدها

وهكذا نرى جريرا قد شق لنفسه طريقا معلما في عالم الهجاء الساخر ، ذلك الأسلوب الرفيع الذي يشفي المتفنن أو الفنان مما به من غيظ مكبوت بلذع أشبه بالسم القاتل الذي يسري في جسم الفريسة من غير ماضجة ولا ضوضاء وقد ساعده على التفوق في السخرية خيال خصب ، استطاع أن يكونه من

(١) القرد : الكثير القردان ، جمع قرد : وهي دويبة . واللطلط : الغليظ الأسنان .

أربعة عيوب ـ تلك التى فطن إليها ابن الأثير فى المثل السائر ـ استطاع بعد مزجها بعضها ببعض أن يكون منها الصور العديدة المضحكة ، وبهذا فطن إلى إحدى صور السخرية ذات الأثر الرائع وهى التى أسماها برجسون « تداخل السلاسل » ، ومازلت أقف أمام خيال جرير متعجبا من اقتناص شوارده ، ذلك الخيال الذى يملى عليه مثل هذا البيت :

ودت سكينة أن مسجد قومها كانت سواريه أيور بغال !

أو تشبيهه « الحيقطان » هذا التشبيه المضحك :

كأنه لما بدا للناس
أير حمار لف فى قرطاس

ولقد فطن جرير إلى مقدرته على السخرية ، فيروى أنه كان يقول : إذا هجوت فاضحك[١] . ولقد طارت شهرته حتى قال أبو الشبل فى قينة هددته بالهجاء تسمى خنساء :

خنساء ، قد أفرطت علينا وليس منها لنا مجير
تاهت بأشعارها علينا كأنما ... جرير[٢]

وأخيرا فإن سخرية جرير قد شابها أحيانا العنف الصارخ والاتجاه إلى الصور الجنسية مما يقف حائلا أمام أدبه إذا أردنا عرضه وتحليله لاستمتاع الناس به ، وما زلت أقول صادقا إن جريرا من أكبر الساخرين فى الأدب العربى بل فى الآداب العالمية ، ولولا ماشابه سخريته من صور وألفاظ جنسية لترجمت إلى كثير من لغات العالم .

---

(١) العقد الفريد (طبعة ١٩١٣ م) ٣ / ٣٩٨ .

(٢) نهاية الأرب ٤ / ٨١ .

السخرية فى العصر العباسى :

كان للحضارة الأجنبية من فارسية وهندية وسريانية وغيرها تأثير كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى هذا العصر ، وكان للأدب - مرآة الحياة فى شتى وجوهها - نصيب كبير من التطور : فنرى فيه تيار جديد شمل الأسلوب والموضوعات ، وكان لرقى العقلية العربية وازدياد نموها الثقافى واحتكاكها الاجتماعى أثر أى أثر فى تطور السخرية وشيوعها ، وبخاصة فى ذلك المجتمع الذى انتشر فيه الترف ورغد العيش وشاعت فيه الفكاهة والظرف ، فلا غرابة أن يظهر العديد من الشعراء والكتاب الذين يتسم أدبهم بالسخرية : كبشار بن برد ، وأبى نواس ، وحماد عجرد ، وعبد الصمد بن المعذل ، ومنصور الأصفهانى ، والعتبى ، والحمدونى وابن الرومى وابن سكرة وغيرهم كثيرون .

أما الكتاب فكان منهم الجاحظ وأبو العيناء وبديع الزمان الهمذانى وأبو العلاء المعرى وغيرهم . وكان هناك أيضا الشعراء المجان الذين خلطوا سخريتهم بالمجون إذ كان غالبا عليهم ومنهم أبو العبر ، وأبو غلالة المخزومى الذى اشتهر برثاء حماره طياب ، وأبو حكيمة الذى اشتهر برثاء متاعه ، ووهب الذى شهر بضرطته .

وقد مالت السخرية فى هذا العصر إلى الأسلوب البعيد عن الجزالة والرصانة ، أسلوب قريب مما يلهج به الناس فى أحاديثهم ، ولذلك يمكن أن نطلق عليه « الأسلوب الشعبى البسيط » سواء فى المعانى أو الألفاظ أو الصياغه ، كقول دعبل يسخر من إبراهيم بن المهدى حينما بويع بالخلافة أيام الفتنة بين الأمين والمأمون :

يامعشر الأعراب لا تقنطوا   خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينية   يلتذها الأمرد والأشمط

والمعبديات اقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق أصحابه خليفة مصحفه البربط !

وشملت سخرية الشعراء التنديد والهزء بمن تدور حوله الشكوك فى أصله العربى كقول بشار فى أبى عمرو بن العلاء :

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربى من قوارير !!

وقول أبى نواس فى الهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب الهيثم بن عدى صار فى العرب
كأنى بك فوق الجسر منتصبا على جواد قريب منك فى الحسب

وتشمل السخرية أيضا ملامح الوجه وغيرها من أعضاء الجسم ، كقول منصور الأصفهانى :

وجه المغيرة كله أنف موف عليه كأنه سقف[1]
رجل كوجه البغل تبصره من أجل ذاك أمامه خلف !
حصن له من كل نائبة وعلى بنيه بعده وقف !

وقال بشار فى ثقيل :

ربما يثقل الجليس وإن كا ن خفيفا فى كفة الميزان
كيف لا تحمل الأمانة أرض حملت فوقها أبا سفيان

ويتهكم حماد عجرد بعمى بشار ، فيقول فى أسلوب تصعى ساخر[2] :

إن ابن برد رأى رؤيا فأولها بلا مشورة إنسان ولا أثر
رأى العمى نعمة لله سابغة عليه إذ كان مكفوفا عن النظر

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٩ .
(٢) الحيوان للجاحظ ١/٢٤١

وقال : لو لم أكن أعمى لكنت كما ... قد كان «برد» أبى فى الضيق والعسر
أكد نفسى بالتطيين مجتهدا ... إما أجيرا وإما غير مؤتجر
أو كنت إن أنا لم أقنع بفعل أبى ... قصاب شاء شقى الجد أو بقر
كإخوتى دائبا أشقى شقاءهم ... فى الحر والبرد والإدلاج والبكر
فقد كفانى العمى عن كل مكسبة ... والرزق يأتى بأسباب من القدر!

وشملت السخرية الظواهر الاجتماعية ومنها «التطفيل» فمن أصداء ذلك قصيدة عبد الصمد بن المعذل فى رثاء طفيلى مات وقد غص بلقمة ساخنة من فالوذج[١] :

أحزان نفسى عليه غير منصرمه ... وأدمعى من جفونى الدهر منسجمه
على صديق ومولى لى فجعت به ... ما إن له فى جميع الصالحين لمه
كم جفنة مثل جوف الحوض مترعة ... كوماء جاد بها طباخها رذمه
قد كللتها شحوم من قليتها ... ومن سنام جزور عبطة سنمه
غيبت عنها فلم تعرف لها خبرا ... لهفى عليك وويلى يا أبا سلمه
ولو تكون لها «حيا» لما بعدت ... يوما عليك ولو فى جاحم طعمه
قد كنت أعلم أن الأكل يقتله ... لكننى كنت أخشى ذاك من تخمه

وسوف أتناول بالدراسة بعض الساخرين الذين اكتملت شخصيتهم الساخرة، ووصلنا من أدبهم ما نستطيع أن نلقى بهضوءا على تراثهم الساخر، وقد وددت أن أضيف إلى عقد دراستى ساخرا من أكبر الساخرين، ألا وهو ابن الرومى، ولكن ديوانه لما يكتمل تحقيقه بعد، ولذلك أرجأت الانتهاء من دراسته إلى طبعة أخرى إن شاء الله.

---

(١) الأغانى ١٣/٢٣٢.

٣ - ابن المقفع :

وها هى شخصية من الشخصيات الممتازة الساخرة . تطالعنا فى أوائل العصر العباسى، وكان للبيئة من جهة ، ولما امتازت به من خصال شخصية مميزة فذة من جهة أخرى ، أكبر الأثر فى طبعها بطابع فريد نستطيع أن نلمحه بوضوح فى قسماتها .

إنها شخصية ابن المقفع الذى كان يسمى - كما يقول ابن النديم[1] - روزبه ومعناه المبارك ولم تعرف السنة التى ولد فيها ، ولم يتفق المؤرخون على السنة التى قتل فيها ، إذ يحصرونها بين سنتى ١٤٢ ، ١٤٥ هـ ، ويحدد الدكتور عبد اللطيف حمزة مولده بين سنتى ١٠٦ ، ١٠٧ هـ وقد عاش بفارس ، حيث لاءمته بيئتها التى كان يميل إليها بطبعه وجوهره كل الميل ، وتشبع بالروح الفارسى والثقافة الفارسية . لذلك فمن الطبيعى أن ينتحل نحلة المجوس .

ولم يعرف المؤرخون الكثير عن حياته الأولى ، بل معظمها غامض ، غير أنهم يقولون إنه انتقل إلى البصرة التى كانت فى ذلك الوقت إحدى العواصم الكبرى التى كان يهفو إليها من تسمو أنفسهم إلى المعالى ، وهناك عاش مولى لآل الأهتم ، فأخذ عنهم الفصاحة ، واستطاع عن طريقهم أن يتصل بأمراء العرب والأعراب ، وكان كثيرا ما يستمع إليهم ، ويأخذ عنهم العربية الصحيحة .

ولم يلبث قليلا حتى عرف ذكاؤه وقوة قلمه ، وحسن كتابته ، فاتجه إليه الولاة والأمراء يطلبون إليه أن يكتب لهم فى دواوينهم ، ويتقلد عندهم بعض الوظائف التى كان يشغلها أمثاله من الموالى فى ذلك الوقت ، وقد ذكر د. حمزة أن يزيد بن عمر بن هبيرة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) ربما كان من الأمراء الذين كتب لهم ابن المقفع ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوالى وصلة لابن المقفع لأن يطلع على كثير من أسرار الدولة الأموية الزائلة التي كان نجمها إذ ذاك آخذا فى الأفول .

---

(١) الفهرست ص ١١٨

وبعد موت يزيد ، قيل : إن ابن المقفع كان يكتب لأخيه داود بن عمر ابن هبيرة . وقال الجهشيارى إنه كتب أيضاً للمسيح الحويلدى والى سابور قبل سفيان بن معاوية ، وقد يكون المسيح الحويلدى هو الذى سلط ابن المقفع على سفيان بن معاوية ، حتى استطاع المسيح فى نهاية الأمر أن يهزم سفيان بعد أن أوغر صدره من ابن المقفع(١).

انضمامه إلى العباسيين وإسلامه :

ولما انقضت الدولة الأموية ، وجاءت على أثرها الدولة العباسية، أخذ يبتغى الوسيلة للاتصال برؤوسها ، حتى تمكن أخيراً من الكتابة لأعمام المنصور: فكتب لعيسى بن على والى الأهواز ، ولزم بعض بنى أخيه إسماعيل، يؤدبهم ويشتغل بتعليمهم وتهذيبهم ، ثم اشتغل كاتباً لأخيهما سليمان . ولما سمع صبياً يقرأ القرآن ، أخذته روعته ، فذهب إلى عيسى بن على ليسلم فأسلم.

موقفه السياسى :

كان الموالى من الفرس يقصدون بدعوتهم العلويين ، فلما لم ينجحوا فى إيصال الخلافة إليهم ، وكانت من نصيب العباسيين، أحبوا أن يصلحوا خطأهم ، ويظهروا الميل إلى العباسيين ، ولكن هؤلاء لم يخف عليهم أمر الموالى ولا أمر زعيمهم أبى سلمة الخلال بنوع خاص ، وفكروا لذلك فى القضاء عليه وعلى الرجل الآخر وهو أبو مسلم الخراسانى ، فأغروا كلا من الرجلين بالآخر حتى قضيا . ولذلك لم يكن الموالى من الفرس يميلون إلى العباسيين ، ولم يكن ابن المقفع عباسى الهوى أو كان عربى الميل، ولكنه كان علوى السياسة فارسى النزعة ، فهو على الأقل كان لا يحب العباسيين ،ولا يشعر قلبه مودة خالصة لهم ولا لخلفائهم.

إذن كان ابن المقفع من أعداء الدولة العباسية ، ومن المتظاهرين فى

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٥٥ .

الوقت نفسه بصداقتها ، وربما أنه اكتسب الخلق السياسى الأخير من دراسته لتاريخ الفرس (١) . ويظهر أن الخليفة المنصور كان يفهم ذلك عنه ، فلم يستخدمه للكتابة له ، بل كان له يد طولى فى قتله كما كانت له فى قتل غيره من زعماء الفرس كأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى أو الزعماء المناوئين له [illegible] من العلويين .

مصرعه :

يذكر المؤرخون فى مصرعه عدة أسباب ، بعضها [illegible] مباشر، فمما يذكرون فى ذلك : حقد المنصور عليه ، لأنه هو الذى كتب « الأمان » الذى كلفه بكتابته أعمام الخليفة المنصور لأخيهم الثائر عليه عبد الله بن على ، ويقال إن ابن المقفع كتب الأمان وبالغ فى احتراسه من كل تأويل يقع عليه فيه ، بل أسرف فى توكيد الأمان ، فلم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيه لفرط احتياط ابن المقفع ، فامتلأ قلب الخليفة غيظاً وحفيظة على كاتب الأمان فقال « : فما أحد يكفينيه ؟ »

أما السبب الآخر المباشر فى قتل ابن المقفع فهو شدة نقمة سفيان المهلبى عليه لأشياء كثيرة : منها قصة المسيح الخويلدى الذى قيل إن ابن المقفع كان يكتب له قبل مجىء سفيان بن معاوية ، وهو الذى أوغر صدره على ابن المقفع حين أخذ هذا جانب المسيح ضده ، ومن أسباب غضب هذا الوالى أيضاً : احتقار ابن المقفع له ، ذلك الاحتقار الذى يظهر فى سخريته به سخرية قاتلة ، أرثت العداوة فى قلبه حتى جعلته يودى به . وقد قتل ابن المقفع غيلة وغدرا ، وتذكر فى ذلك روايات أشبه بالأساطير ، والشبه عظيم فى رواية مقتل عبد الله بن على حين أقدمه أخواه - بعد أن أمنه الخليفة - وبين الرواية التى تروى فى مصرع ابن المقفع، ومن الأسباب التى تعزى فى مقتل ابن المقفع

(١) ابن المقفع لعبد اللطيف حمزة ص ٦٤ .

رميه بالزندقة، وشهرته بهذه الصفة، ويمكن أن تكون السبب الأقوى الذى تذرع به الخليفة فى قتله كما قتل غيره بها فى عهد العباسيين وبخاصة المهدى . ولعل من أسباب قتله أيضا : أنه رجل فارسى ، يعمد ـ لحنقه وغيظه ـ إلى السخرية من العرب ، وهو فى الوقت نفسه لا ينسى أن يذيع فى الناس شيئا من أخبار أجداده الفرس ودياناتهم ، وهو لهذه الأسباب كان رجلا [illegible]
كثير الأعداء ، ولابد لهؤلاء جميعا أن يكن [illegible] ب التى قتلت الرجل :
[illegible] برنامج ثورة ، موجهة إلى المنصور ، وهى
التى يلصق [illegible] به [illegible]
الصحابة ، وفيها تشريع جديد من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به فى أمور شتى ، كان أهمها أمر القضاء الذى كثرت فيه الأقوال ، وأصبحت بسببه الدماء مباحة مرة وكان من حقها أن تحقن. ومحرمة أخرى وقد كان من حقها أن تهدر ... إلى غير ذلك من المقترحات الخطيرة التى تتصل بحاشية المنصور وعماله المقربين إليه الذين طعن فيهم من طريق غير مباشر ، فكانت تلك المقترحات بمثابة ثورة عظيمة قام بها الكاتب ضد النظم القائمة، ووجه فيها الكلام إلى هذا الخليفة الطاغية .

وأخيراً ، يضيف الدكتور حمزة ـ إلى كل ما سبق من أسباب فى قتله ـ ترجمته كليلة ودمنة ، وما أخفى فى ثناياه من تعريض بالمنصور، وبما اشتهر عنه من جوره وحبه سفك الدماء .

ابن المقفع المفكر :

كان ابن المقفع صاحب عقلية كبيرة ، أبت إلا التفكير المستمر، وتسليط أضواء الفكر على كل ما حوله من نظم سياسية واجتماعية وغيرها ، فوجدها أمام منظاره المكبر مليئة بالأخطاء ، فحاول نقدها ، ورسم الطريق الصحيح الذى يجب أن يسير فيه المصلحون أو من يدعون أنهم يحبون الإصلاح

كالخليفة والولاة ، ولم يفتأ يذيع آراءه مجاهرة مرة ، وبينه وبين من يظن فيهم الولاء له مرة أخرى ، وتلميحا مرة ثالثة ، وتعريضا مرة أخرى وهكذا ...، وليس من السهل أن تقبل الطبيعة البشرية النقد بسهولة أو بصدر رحب ، فما بالك بالخليفة ، ذلك العربى القح الذى تعود السيطرة وعدم الإذعان لمن هو أقل منه ، وبخاصة إذا كان هذا الناقد يشتهر بقلة الدين أو الزندقة ، وأنه فارسى ينتمى إلى العنصر الذى ناوأ العرب منذ القدم ، والذى يحاول أن يحول دفة الحكم من العباسيين إلى العلويين ، أو بالأحرى من العرب إلى الفرس ... كل هذا وذاك كان السبب فى عظمة الكاتب من جهة ، وكان السبب فى مصرعه من جهة أخرى .

أخلاقه :

إذا كانت الشخصية الإنسانية تتأثر كل التأثر بعاملى البيئة والوراثة فقد تأثر ابن المقفع بتلك الصفات الخاصة المميزة للشعب الفارسى من ناحية الجنس ، أما من ناحية الآباء والأجداد ، فلم يذكر المؤرخون عنهم شيئا حتى نستطيع أن نقرن بين أخلاقه وما أثر عنهم ، ونمزج بين هذه وتلك ، فنتمكن من استنباط شىء من صفاته يميزه بعض التمييز أو كل التمييز فى ناحية أو أكثر من نواحى حياته أو شخصيته .

أما من ناحية عصره ، فقد كان عصر انتقال من الدولة الأموية العربية إلى الدولة العباسية الفارسية ، وتمتاز عصور الانتقال عادة بأنها عصور التمرد والمجانة والشك ، وبأنها عصور النشاط والحركة وحرية الفكر وتناول كل شىء بالنقد(١) ولذلك طبع ابن المقفع بطابع عصره ، من ميل إلى إنفاذ فكره فى كل ما حوله ، وحرية تجعله يبدى رأيه فى كل ما تقع عليه عيناه ،

(١) ابن المقفع للدكتور حمزة ١١٢ .

إلى عين ناقدة لا تكاد ترى عيبا إلا تنبهت له ، ومن ثم أرادت أن تجهر به وتقاتله . ومما ساعد ابن المقفع على ذلك طبيعة عقله التي تنزع أبداً إلى المثل الأعلى وأصدق مثال على ذلك كتابه « الأدب الكبير » وطبعه عصره بطابع الحذر والأخذ بالتقية ، لكثرة ماسفك في أيامه من دماء على يد أبي مسلم من جهة ، والخليفة العاتي من جهة أخرى .

وأدى به عقله الشاك وعصره المضطرب إلى الحيرة التي كانت تقسو عليه في كثير من الأحيان ، حتى اضطرب بين عدة ديانات هي المزدكية والإسلام والمانوية. وقد انتشرت في الأقاليم التي تنقل بينها وذاعت في العصر الذي عاش فيه ، وكان كثير الشكوك الدينية ، وقد ظهر أثر ذلك فيما كان يفلسف من حديث كان يدور بينه وبين أصدقائه ونظرائه ممن كان يختلف إليهم بالبصرة ويختلفون إليه بها : كمطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، وحماد عجرد ، وبشار بن برد ، وأبان اللاحقي وغيرهم ، ومما يدل على شكه ماختم به باب « بعثة برزويه » الذي كتبه في أول كليلة ودمنة ، إذ قال : « فصار أمري إلى الرضا بحالي وإصلاح مااستطعت من عملي لمعادي ، لعلي أصادف فيما أمامي زمانا فيه دليل على هداي ، وسلطان على نفسي ، وأعوان على أمري »

وقد ظهرت تلك الحيرة وذلك الشك في ذلك الباب الذي صدر به « كليلة ودمنة » وحاول به إخفاء شكوكه الدينية بعبارات إسلامية يرضى بها الرأي العام ، إذ قال على لسان برزويه : « فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها ، والنظر فيها » ثم أخذ الكاتب بعد ذلك يسوق الأمثلة الكثيرة لكل حالة من حالات العقل عندما يكون واقعا تحت تأثير هذه الشكوك الدينية المجهدة ، ومما يؤيد هذه الشكوك نفسها ذلك الكتاب الذي نسب إليه ، ورد عليه - فيما بعد -

القاسم بن إبراهيم بكتاب عنوانه «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله آمين»، وذكر فى أوله: «حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان، فقال من عيب المرسلين، وافترى الكذب على رب العالمين».

ويقول بعض الكتاب إنه كان إلى جانب ذلك يتسم بشيء من الظرف والمجانة تجعله يجلس ويصادق بعضا من ظرفاء عصره، فى مجلس الشراب، وكان مترفا سخيا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه، وكان يميل - بطبيعته الفارسية - إلى المجون واللهو إذ ذكره أبو الفرج الاصفهانى ضمن جماعة يجتمعون على الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضا هزلا وعمدا وكلهم متهم فى دينه[1].

---

(١) غ ١٣ / ١٣٢ : وإنى لأعجب من صاحب هذه الشخصية التى تبدو فى ما أثر عنها من مؤلفات حكيمة معنة فى الحكمة، متئدة تكاد تكون قاسية فى اتئادها، ثم يروى عنه أنه كان يجلس فى بعض الأحيان مجالس لا يجلسها إلا المجان الذين تختلف أحاديثهم ومجالسهم عن الحكماء الفلاسفة أمثال ابن المقفع: وقد يرد على ذلك بأنه لا غضاضة فى أن يروح الفيلسوف عن نفسه بعض الترويح بالجلوس إلى أهل الظرف والمجانة، فإن لم يطرق معهم جميع الأبواب التى يطرقونها، فلا أقل من أن ينعم بالأنس إلى جانبهم وبخاصة أنهم كانوا يشتركون معه فى ناحية عقلية واحدة هى الشك فى الإسلام أو الأخذ بمذاهب الزنادقة وغيرهم ممن كانوا على أديان الفرس المتوارثة. ولكن مهما يكن من أمره فإن شخصية ابن المقفع فى مهتزة بخيلتى لدرجة أنى لا أستطيع - مع وصلنا وما قرأت عنه - أن أحيط بصورته إحاطة تامة كما أبغى، أو أن أرسم له صورة أطمئن إليها كل الاطمئنان، ولعل مرد ذلك إلى عدم اجتراء أهل عصره - سياسيا أو دينيا أو كليهما - على الكتابة عنه بشيء من الحرية اللازمة، أو عدم وصول أخبار كاملة عنه نستطيع بها أن نكون ما نريد من إطار قوى واضح.

ويصل جهل المؤرخين به وعدم اجترائهم على الكلام عنه إلى حد أن كتابا واحدا من كتب التاريخ التى اهتمت بتدوين الحوادث على حسب السنين لم تذكر حتى سنة وفاته، مع ماله من جليل القدر والمنزلة فى الكتابة وذلك بمزاحمته بمن هم أقل منه شأنا والذين ذكرت سنة وفاتهم .

وكان يميزه شىء من خفة الروح . والميل إلى المرح والدعابة ، ولكن المؤرخين لم يرووا الكثير عن هذا الجانب من حياته : إما لأنه كان يترفع عن التبذل أمام الناس ، وإما لأنه لم يعش طويلا ، ولم يجرؤ أحد من عصره على كتابة أخباره لما ذاع عنه من زندقته .

على أن أظهر خصلة بلورت أخلاقه كلها وطباعه هى روح السخرية التى سببها إحساسه وشعوره بالكراهية للعرب الذين أدالوا دولة الفرس وسيطروا على بلاده تمام السيطرة ، ومعاملتهم إياهم موالى فلا يفتأون يشعرونه بالذلة والمهانة وبخاصة فى الدولة الأموية . وقد روى ابن عبد ربه . والمبرد كثيرا من الأخبار التى تدل على عظيم احتقار العرب للفرس ، هذا إلى جانب شعوره بالميزات العقلية والفنية التى وهبه الله إياها ، وإلى أنه لم ينل ما كانت تصبو إليه نفسه ويطمح إليه من مناصب عالية فى الدولة الجديدة التى انتزعت ممن كانوا أحق بها فى نظره ألا وهم العلويون هؤلاء الذين كان من المحتمل أن يرفعوه إلى المقام الذى كان يأمل أن يصل إليه لو نجح الثائرون الذين كتب لهم من قبل — وهم أعمام المنصور — فى إدالة دولة العباسيين والظفر بالحكم .

كل هذا — ولا شك — ولد السخرية فى نفسه ، تلك السخرية التى كانت تختفى أحيانا فى أعماقه ، وتطل برأسها فى كتابته ، وكانت أحيانا أخرى تظهر على لسانه حينما كان يعبث ببعض الناس . ولعل أكبر هدف سدد إليه سهامه اثنان : أحد الحكام فى عصره وهو سفيان بن معاوية ، والهدف الثانى الذى استهدف لسخريته تلك الأمة التى كان يتعالى عليها ويحتقرها فى قرارة نفسه ، وبخاصة كلما قارن بين ماضيها وماضى أمته .

أما سفيان بن معاوية بن يزيد المهلبى : فلم يورد المؤرخون عنه الكثير ، وكل ما نستطيع أن نورده هنا : هو أنه قد حقد على ابن المقفع ، لاتصاله بعدوه وسلفه المسيح الحويلدى الذى كتب له ابن المقفع قبل أن يخلفه معاوية على ولاية سابور ، فانضم ابن المقفع إلى المسيح . وكان هذا الذى أوغر

صدره على ابن المقفع ، ومما أغضبه أيضا سخرية الكاتب به ، فيروى أن ابن المقفع كان يسأل سفيان عن الشيء ، فإذا أجاب ، قال له : أخطأت ! ويوما سأل سفيان : ما تقول فى شخص مات عن زوج وزوجة ؟! أراد بذلك أن يسخر منه على مسمع من الناس ومرأى . وقال سفيان يوما : ما ندمت على سكوت قط ـ وكان ابن المقفع جالسا ـ فقال : الخرس زين لك ، فكيف تندم عليه ؟!

ومما أوجع سفيان سخرية ابن المقفع بأنفه ـ وكان كبيرا ـ فيروى أنه كان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما ! يعنى بذلك سفيان وأنفه . وإن هذه السخرية من عضو مادى طبيعى باق ببقاء صاحبه ، لموجعة مؤلمة ، لأن أثرها لا يفتأ يعتمل فى النفس البشرية ما دامت على قيـــد الحياة ، إذ أنه ليس عيباً يمكن استئصاله فيمنع بذلك الساخر من اتخاذه هدفا لسخريته .

وقد سخر ابن المقفع أيضا من العرب ، كما سخر بهم الموالى جميعا شعراء وكتابا كبشار وأبى نواس وغيرهما ، وكان ذلك رد فعل لمعاملتهم كموالى وخصوصا فى العصر الأموى . ويذكرون فى معرض التدليل على ذلك أنه التقى ببعض أصحابه فى المربد ، فسألهم : أى الأمم أعقل ؟ فأخذوا يسردون عليه أسماء الأمم الواحدة تلو الأخرى ، فبدأوا بفارس ، فقال : إنهم ملكوا كثيرا من الأرض ووجدوا عظيما من الملك ... فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم !

قالوا : الروم ! قال : أصحاب صنعة !

وهكذا أخـــذوا يعددون أمامه الأمم كلها : الروم ، والصين ، والهند ، والسودان ، والترك ، والخزر .. ثم قالوا له ، فقل . قال : العرب[1]

---

(١) وهو فى ذلك يشبه سقراط فى ادعائه الجهل وسؤاله الحاضرين وهو ما يسمى SoCratie Jrona

ثم تفوقهم أخيرا على سائر الأمم ، فأخذ يمدح العرب ، ويذكر أصلهم وجهلهم وهو فيها يتملق العرب من حيث يحقد عليهم ويحسدهم حيث يسخر بهم ، جلساؤه أولا حين قال : إن العرب أعقل الأمم ، ومن أجل ذلك ألح هو فى مدحهم ؛ ليخفى ما يحتمل فى نفسه ولكن لاشك أن جلساءه كانوا يفطنون إلى ما بأعماقه جيدا ، وكانوا يدركون أنه يريد أن يقول لهم : إن العرب قوم لا حظ لهم من الحضارة أو الرقى ، وهم جياع لا يجدون ما يأكلون ، ومع ذلك فقد فتحوا الفتوح ، وملكوا الأمصار وهم لا يستحقون من هذا كله شيئا .

مؤلفات ابن المقفع (١) :

يذكر لابن المقفع كثير من المؤلفات ، وصل إلينا بعضها ، وضاع بعضها الآخر ، وما وصل إلينا ينقسم قسمين :

أحدهما يبحث فى الأخلاق والاجتماع : كالأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة : أما الأولان فكان فيهما ناقلا أكثر منه مبتكرا ، وكان حريصا على أن يكثر فيهما من إيراد حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال . وأما رسالة الصحابة ، فكان فيها مؤلفا ناقدا نعى فيها على الصحابة — وهم رجال البلاط أو بطانة الخليفة — جورهم وظلمهم ، وممن ذكرهم ابن المقفع أيضا : القضاة والجند وعمال الخراج . وأما مالم يصل إلينا ، فيذكر منها : كتاب تنسر ، والخداينامه ، والآيين نامه ، وهى كتب تاريخية .

أما ما يهمنا من كتبه جميعا ، إذ هو الذى يختص به بحثنا ، فهو كتاب : « كليلة ودمنة » .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١١٨

كايلة ودمنة :

والكلام كثير حول هذا الكتاب ، تكلم عنه الأقدمون ، وأفاض في الكلام عنه المحدثون ، شكوا في هذا الكتاب : أترجمه ابن المقفع كما زعم في مقدمته ، أم ألفه ؟ قال ابن خلكان : « ويقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة، وقيل: إنه لم يضعه وإنما كان بالفارسية فنقله إلى العربية ، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه » . وذكر الدينوري في الأخبار الطوال نصا يدل على أن الكتاب قديم قبل ابن المقفع.. أن كسرى بن هرمز سار إلى بهرام ... وانصرف إلى كسرى ، فكان مما أخبر به : أن بهرام إذا نزل المنزل دعا بكتاب كليلة ودمنة ، فلا يزال منكبا عليه طول نهاره »[1] .

ومما يؤيد الرأي الأخير أن هرتل Hertel عثر على بعض الأصول الهندية المسماة « البانشتانترا »[2] ، ومعناها « المقالات الخمس » ومن ثم لم يعد أحد يشك في أن بعض هذه القصص هندي الأصل ، ولو أن ذلك لا يمنع من أن تكون هذه القصص نفسها تطورت بعد .

وبهذا يدور بأذهان الباحثين سؤال آخر، وهو : إذا كان الكتاب قديما، فهل هو هندي حقا أم فارسي لم ينسب إلى الهند إلا لزيادة قيمته أم هو هندي أضاف إليه الفرس أبوابا ، ثم نسبوه كله إلى الهند ؟ وأخذ الباحثون يبحثون في الكتاب وقصصه من الناحية الموضوعية. فوجدوا أن هذا الكتاب يخلو من أثر للمجوسية وبه بعض الآثار الهندية ، كالكلام عن الدراويش

---

(١) الأخبار الطوال ص ٨٩ .

(٢) ترجمها الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس عن الإنجليزية وطبع في الكويت منذ ثلاث سنوات .

والرهبان والنار المطهرة والحيوان المقدس فى قصة « الناسك وابن عرس » وفكرة تحريم البوذية أكل اللحم فى قصة « اللبؤة الممتنعة عن أكل اللحم » وكذلك اشتقاق الكلمات: « كايلة ، ودمنة، وشتربة » من أصل هندى حرفت عن « دمنكا ، كاراتاكا ، شنزباكا » .

وانتهى الباحثون من بحثهم إلى : إثبات بعض أبواب جزموا بأنها فارسية : كباب « بعثة برزويه إلى بلاد الهند » وباب « ملك الجرذان » الذى يرى نولدكه أنه لابد أن يكون من إضافة الفرس .

وعلى كل ، فلا شك أن الكتاب مر بأدوار كثيرة وبطبقات وأجناس مختلفة من الناس ، وتداولته الأيدى والعقول جيلا بعد جيل منذ أن بدأ المؤلف الهندى ـ كائنا ما كان عقله ـ يجمع قصصه ثم يتلقفه المؤلف الفارسى ـ كائنا ما كان شعوره وعقله وتفكيره ـ يترجمه إلى لغته من جهة، ويضيف إليه من عبارات وقصص ، ويصبغه بالصبغة الفارسية والروح الفارسى من جهة أخرى ، وينتقل من مترجم فارسى له أهواؤه ونزعاته إلى فارسى آخر يختلف عن صنوه نزعات وأهواء ، حتى يصل بعد عدة قرون من تأليفه ، أو إن شئت الصدق فى التعبير ، بعد عدة قرون من تحريفه أو جمعه جمعاً ما ، حتى يصل إلى ابن المقفع ، الذى لا شك قد قرأه مرة ومرتين وأكثر ، ثم أمعن فيه فكره المرة بعد المرة حتى تمثله فى أعماقه ، فصادف منه هوى لأن يترجمه،إعجابا به من جهة ، ولاتخاذه وسيلة من وسائل التعبير عما فى نفسه من جهة أخرى وربما كان الغرض الأخير هو الغرض الأهم الذى دفع الفيلسوف الفارسى إلى ترجمة هذا الكتاب ، إذ أن كل كائن حى لا يستطيع إلا أن يعبر عما يشعر به من فرح أو ترح ، وأن يخرج شعوره إلى خارج نفسه أو بعبارة أرسطو ـ « أن يطهر عواطفه » ـ كما قال فى كتابه الشعر Poetica ولابد أن يسلك ابن المقفع مسلك الإنسان المثقف المتحضر ، الذى يقاوم هذا الجبروت الذى سله المنصور على أبناء عصره. لذلك كله اتخذ من

الحيوان الأعجم فى «كليلة ودمنة» لسانا ناطقا لأن يعبر عن حقده وكرهه آنا ، واستخفافه واحتقاره آنا آخر لهذا الجبار الذى خشى الناس فى عهده التعبير عما يحسونه من ظلم ، لدرجة أنهم يقصون قصصا أشبه بالأساطير فى ذلك ، منها أن سهما عائرا سقط بين يدى المنصور وفيه :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتى به القدرُ
وسالمتك الليالى ، فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واتضح أن رجلا من همذان سجنه الوالى ليسلب ضيعته هو الذى فعل هذا ، وقد ذكر المسعودى قصصا كثيرة فى تعذيب العلويين حتى بلغت القسوة بالمنصور أن قتل أحدهم ، ثم أرسل برأسه إلى أخيه فى السجن المظلم ، ووضعت فى حجره ! ... وإذا به يلتفت إلى الربيع ويقول ـ وفى قلبه مرارة الأسى وفى عينيه ظلمة السجن وعلى لسانه هزء الفانى : «قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ، والملتقى القيامة !» ويقال إن المنصور قبل أن يموت بأيام ، قرأ بيتين على جدار :

أبا جعفر ، حانت وفاتك وانقضت
سنـــوك ، وأمر الله لابد نازل
أبا جعفر ، هـــل كاهن أو منجم
يرد قضاء الله ، أم أنت جاهل .

ويقال إنه لم يكن أحد يجرؤ على مجابهة المنصور بأفعاله ورفض عطاياه

(١) المسعودى : مروج الذهب ٣ / ٢٢٢ وقد اعترف المنصور بأنه جبار فى قصة أوردها المسعودى فى المرجع السابق ٣ / ٢٢٢

بشمم وإباء وتمنع غير عمرو بن عبيد الذى كان يعظ المنصور حينما يطلبه.
وهكذا نرى إلى أى حد ساد الناس الظلم والعسف والتعذيب أيام المنصور وقل من يتصدى للمعارضة ، ولذلك كان على ابن المقفع أن ينقد هذا الأسلوب الوحشى الدامى فى الحكم ، فاستطاع - ولاشك - أن يصل إلى مآربه من خلال قصص كليلة ودمنة وعباراتها بالتزيد فى هذه العبارات ، بل وصبغ أسلوبها بأسلوبه ، حتى يمكن أن نقول : إنها هيكل عظمى اكتسى بأسلوب ابن المقفع ، وغذاها بآرائه وأفكاره التى أولجها فى عبارات كليلة ودمنة : قال البارون دوساسى « وربما كان من العسير علينا أن نقول : إلى أى حد استطاع ابن المقفع أن يتحلل من النسخة البهلوية أو يبعد عنها ؟ » وقال د. عبد اللطيف حمزة رحمه الله : أثبت ابن المقفع فى ترجمته العربية أنه كان لايتقيد كثيرا بالنسخة البهلوية التى اتصل بها ، كما أثبت أيضا أنه كان يرمى من وراء كتابه إلى أغراض كثيرة رمز إلى بعضها : منها أنه أراد أن يخاطب فيه عربا سذجا يظهرهم على آثار أسلافه من الفرس ، ومنها أنه أراد أن يوجه الكلام فيه إلى خليفة داهية كان - لبطشه وطغيانه - لايستطيع أحد أن يلفته إلى أخطائه ومعايبه ، ومنها أنه أراد أن يشكك المسلمين فى دينهم الذى كان وحده مدعاة إلى فخرهم على غيرهم من الأمم : فكيف كان يتسنى لابن المقفع إذن إدراك هذه الأغراض جميعها ، إن هو قيد نفسه بالنسخة البهلوية التى اتصل بها ؟

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه كان يبلغ به التصرف إلى أنه يحذف الجملة أو الفقرة بتمامها من النص البهلوي ، وذهبوا إلى أنه كان

يضيف الفصل الكامل إذا احتاج الأمر ، والأمر قد احتاج فعلا إلى أن يضيف الباب الأول وهو مقدمة الكتاب لعلى بن الشاه الفارسى ، والباب الثالث فى عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع والباب السادس وهو باب « الفحص عن أمر دمنة » ، والباب السادس عشر وهو باب الناسك والضيف ، والباب العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين ، والحادى والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، ويميل الدكتور حمزة إلى إضافة باب « برزويه المتطبب » إلى ما وضعه ابن المقفع .

ومما يدل على أن ابن المقفع قد أخضع الكتاب كله إلى أسلوبه ، وتصرف فيه بما يمليه عليه مزاجه وشعوره ، أننا لا نجد اختلافا بين الأبواب التى ثبت بدليل قاطع أنها هندية ، والأبواب التى ثبت بدليل قاطع أنه كتبها بأسلوبه ولم يترجمها عن غيره .

ويدل على تصرف ابن المقفع بما يمليه عليه هواه تلك الإضافات التى نجدها فى نسخة ما ، ولا نجدها فى نسخة أخرى من النسخ القديمة التى وجد أصلها ، وأعنى بها النسخة القديمة التى نشرها الأب لويس اليسوعى سنة ١٩٢٢ والنسخة الأخرى التى نشرها عزام ، وقد قرأتهما قراءة فاحصة ثم قارنت بينهما فى عدة مواضع أهمها قصة « إبلاد وإيلاذ وإيراخت » ، فوجدت القصة مختلفة فى نسخة منها عن الأخرى .

وأخيراً يقول نولدكه : « يجب أن نلاحظ أن ابن المقفع لم يكن مترجما دقيقا فى جميع الأحوال ، وإنما كان محرراً فحسب .... » وقد اعترف البيرونى أن « كليلة ودمنة » تردد بين الفارسية والهندية ، ثم العربية والفارسية وعلى ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب « برزويه » فيه ، قاصدا تشكيك ضعفى العقائد فى الدين ، وكسرهم

للدعوة إلى مذهب المانوية ، وإذا كان متهما فيما زاد ، لم يخل من مثله فيما نقل(١) .

من هذا كله نعرف إلى أى حد كان ابن المقفع واسع التصرف فى النسخة البهلوية لكتاب كليلة ودمنة . وأستطيع أن أقارن هنا بين ابن المقفع الفارسى، وبين رابليه الكاتب الفرنسى Rebelais مؤلف Pantagruel ذلك الكتاب الملىء بالسخرية من طبقات كثيرة ، والذى أثار نقاشا حادا وبحثا مستفيضا حول مايقصده المؤلف من هذا الكتاب: وهو يخلط فى شخصياته خلطا عجيبا متعمدا أن يربك من بعده من الناقدين ، فتارة يذكر أشخاصا حقيقيين بأسمائهم الصحيحة ، وتارة يستر أشخاص كتابه بقناع خفيف ، يشف عما تحته من أشخاص حقيقيين ، وطوراً ثالثا يستخدم شخصيات خلقها بخياله ، فاختلف النقاد لذلك فى تفسير الغرض من هذا الكتاب : فقيل إنه هجاء سياسى شخصى ، وقيل بل هو نقد للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقيل إنه دفاع عن الفلسفة المادية الأبيقورية التى تنادى بالبحث عن حياة لذيذة ممتعة ، وأخيرا ذهب بعض النقاد إلى أنه مخادعة ماكرة من مؤلف ماهر أراد بها أن يضلل قراءه، فيوهمهم أن شيئا مقصودا يكمن وراء هذه الألفاظ ، وعليهم أن يتعقبوه ليكشفوا عنه ، وكل ما قاله النقاد عن رابليه ، بل كل ما قصده رابليه، نرجح أنه الذى قصده ابن المقفع من غير أن يفصح به فى كتابه أو حديثه مع أهل عصره ، ولكن ـ ككل ساخر متحفظ محتاط ـ أحاط كتابه بمسحة أجنبية : فارسية هندية من حيث موضوع المقدمة ، وأسماء الأشخاص ، ونسبه المقدمة إلى بهنود بن سحوان الذى يشك بعض الباحثين فى نسبتها إلى هذا الشخص الخيالى الذى لم يسمع به فى التاريخ ، كل ذلك ليبعد القرا عن الغرض الحقيقى من ترجمه أو تأليف

(١) تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى ص ٧٦ .

هذا الكتاب ، وليتخذ من تساؤل القراء عن الغرض من تأليف هذا الكتاب ستاراً يخفى - على الأقل - شخصية المؤلف الحقيقية أو الباعث الحقيقى لتأليف هذا الكتاب إخفاء أبدياً أو على الأقل مدة حياة ابن المقفع الذى كان يخشى كل الخشية أن يصاب بأذى إن هو كشف أمره ، وليست صورة مصرع صديقه عبدالحميد الكاتب ببعيدة عن ذهنه أو ذاكرته .

وليس أدل على هذا من ذكره فى المقدمة التى لا يشك باحث فى أنه كتبها بقلمه ، تلك العبارة بعد أن عدد الأغراض الثلاثة من ترجمة هذا الكتاب :

« والغرض الرابع وهو الأقصى — وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة[1] . (والعجيب أن عنوان الباب فى جل المراجع يذكر هكذا « باب عرض الكتاب لا غرض الكتاب) . ومما نلاحظه أنه أومأ إلى غرضه فى إصلاح الملوك تصريحا ، حينما ذكرهم فى الغرضين الثانى والثالث فقال : « والثانى : إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان : ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة فى تلك الصور . والثالث : أن يكون على هذه الصفة ، فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل ، فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً » . فنلحظ أنه لا يلح - بعد ذكره الملوك - فى النصح لهم ، والإبانة عن غرضه إبانة ظاهرة مباشرة ، بل يعقب على ذلك بذكر : « السوقة وانتفاع المصور والناسخ به أبدا » .

إذن لا يمكن أن يكون كايلة ودمنة قد ترجم ترجمة حرفية لم تتدخل فيها

---

(١) والعباره فى نسخة بيروت ص ٥٩ (والغرض الرابع وهو الأقصى ؛ وذلك يخص الفيلسوف خاصة ، أعنى الوقوف على أسرار معانى الكتاب الباطنة)

روح ابن المقفع وأغراضه ، ولا يمكن أن يكون إلا معبرا عن نقد ابن المقفع الملوك، والدليل على ذلك شيئان : أولهما أن الأديب الساخر الذى يخشى بطش الملوك يستحيل عليه أن ينقد نقدا صريحا ، بل لا بد له أن يعمد إلى المواربة والأسلوب غير المباشر فى النقد كما فعل صامويل بتلر القصصى الإنجليزى وغيره. وإلا لو أظهر نفسه على حقيقتها لتعرض لما يخشى مغبته كما فعل الشافعى حينما سأله المأمون عن خلق القرآن فسخر به قائلا ـ بعد تعداده القرآن وغيره على أصابعه : كل هؤلاء مخلوقون (يشير إلى أصابعه ، لا إلى القرآن الذى أراده المأمون على الاعتراف بخلقه) ، وبذلك نجا من هلاك محقق ، ومثله حجر المدرى الذى أمره محمد بن يوسف أن يلعن عليا ، فقال ـ زاعما أنه ينفذ أمره ـ إن الأمير محمد بن يوسف أمرنى أن ألعن عليا ، فالعنوه ـ لعنه الله ـ فعماها على أهل المسجد ، فما فطن لها إلا رجل واحد[1] .

ثانيهما : أن ابن المقفع قد حث على معرفة ظاهر الكتاب وباطنه ، فقال : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، كما لو قدموا لرجل جوزا صحيحا لم ينتفع به إلا أن يكسره وينتفع بما فيه » . يريد من قارئه الذى تفهمه وفطن لما فيه أن يعمل بما به ، قال : « ثم إن العاقل ـ إذا فهم هذا الكتاب وتفهمه وبلغ نهايته وعلم ما فيه ، ينبغى له أن يعمل بما علمه منه ، لينتفع به ، ويجعله مثلا لا يحيد عنه ، فإذا لم يفعل ذلك كان مثله مثل الرجل . . . إلخ[2] » .

ونراه يلح فى ذلك حتى يقول فى آخر الباب : « فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف السبب الذى وضع عليه كتاب كليلة ودمنة ، وحول من أرض الهند إلى أرض فارس ... » وهكذا يلح فى قراءته ، وكذلك فى معرفة سبب تأليفه وكذا فى نسبة الكتاب إلى الهند وفارس .

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى ص ٢٣

(٢) ص ٥٢ طبعة بيروت لكليلة ودمنة .

ثالثا : أن ابن المقفع كثيرا مايذكر القصص التى يقدمها أمثلة وبرهانا على صدق نصيحته ودعواه ، يذكرها وفيها طابع السخرية ، كمثل الرجل الذى علم العلم ، ولم يعمل به : كالذى أعطى صحيفة صفراء ، وجعل عالما يكتب له فيها علم العربية ، فكتب له فى الصحيفة ماأراد ، فانطلق الرجل إلى منزله ، وجعل يقرؤها ولا يدرى مامعناها ... وظن أنه قد أحكم مافى الصحيفة . . . وأنه تكلم فى بعض المجالس — وفيه جماعة من أهل الأدب والفصاحة — فقال له بعضهم : لحنت ! فقال — وهنا موضع السخرية — ألحن ، والصحيفة الصفراء فى منزلى !؟

وكذلك قصة السارق الذى خدعه صاحب البيت بأنه ظفر بمتاعه عن طريق السرقة بواسطة ارتقاء شعاع ضوء القمر الذى ينفذ من كوة فى حجرة من الحجر ، وذلك بواسطة عدة كلمات يقولها اللص فى أثناء نزوله على الشعاع « شولم . شولم »[١] ، وكذلك هناك قصة بائع السمسم[٢] . وقصة الغادر ، وسارق البر[٣] .

رابعا : هناك عدة مواضع فى الكتاب يذم فيها الملوك وحكمهم بالهوى وتجبرهم ، إذ نقرأ حواراً رائعا بين كليلة ودمنة فى ذم صحبة السلطان ينتهى بقول كليلة : أمور ثلاثة لا يجترىء عليها إلا الأهوج ، ولا يسلم منها القليل : صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة »[٤] .

وقد أكثرت كتب الحكمة القديمة والأدب من ذكر فصول فى ذم صحبة

---

(١) كليلة دمنة طبعة دار المعارف ص ٢٢٢

(٢) كليلة ودمنة (دار المعارف) ص ٨

(٣) المرجع السابق ص ٩ ، ١٠

(٤) المرجع السابق ص ٥٠

السلطان ، فالأرجح أن الدافع إلى ترجمة الكتاب أنه صادف هوى فى نفس ابن المقفع فترجمه تعريضا بالسلطان ، وصاغ العبارات ، وأضاف إليها لتوافق هواه فى ذم السلطان والتعريض به ، وإشعار نفسه بأنه لم يفقد كثيرا حينما لم يتخذه الخليفة كاتبا له وهو ماهو عليه من حذق فى الكتابة وبراعة فيها كعبد الحميد صديقه ، وتصديقا لذلك قال : أمران لاينبغى لأحد — وإن كان ملكا — أن يجعل شيئا منهما فى غير مكانه وأن ينزله غير منزلته : الرجال والحلية(١) . وفى أول باب كليلة ودمنة ، يذكر عادة ذميمة من عادات الملوك : « وقد قيل فى أمور شتى : من كانت فيه لم يستقم أمره له ... ومنها : التصديق لكل مخبر ، ورب رجل يخبر بالشىء لايقبله ، ولا يعرف استقامته ، فيصدق به ، لما يرى من تصديق غيره ، فيتمادى به ذلك حتى يكون كأنه عرفه ، ورجل يصدق به لهواه فى الأمر الذى يخبر به ، فالعاقل لايزال للهوى متهما ... فمن قرأ هذا الكتاب ، فليقتد بما فى هذا الباب ؛ فإنى أرجو أن يزيده بصرا ومعرفة . فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره ، وإن لم يعرفه ، لم ينتفع به ، فيكون مثله كمثل الذى رمى بحجر فى ظلمة الليل . فلا يدرى أين يقع الحجر ، ولا ماذا صنع !

ومن تحامله على الملوك ، أو تصويره إياهم بمظهر المصدق للوشايات الغادر بالصديق ماضرب به مثلا لذلك بقصة الأسد والثور ، وهى أطول قصة فى الكتاب ، ولعله قد زاد فيها من الزيادات مايشفى به غليله ، وإنى لأعدها أكبر قصة صورت ماحدث بين الملك وأقرب المقربين إليه ، وحينما أقرأ شخصية الأسد فى هذه القصة أتمثل شخصية أبى جعفر المنصور بعنفه وقسوته حينما قتل الثور فى النهاية ؛ وليس هناك من فرق فى ذلك بين مصرع الثور

---

(١) كليلة ودمنة (طبعة دار المعارف ص ٥٢)

ومصرع من أسسوا دولته كأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى وغيرهما ممن صرعهم . ويكاد ابن المقفع ينطق بلسانه مخاطبا أبا جعفر فى قصة الملك والطائر فنزة ، قال : « ترحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! ويل لمن ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ، ولا رحيم ، ولا يحبون أحدا ، ولا يكرُم عليهم إلا منْ يطمعون عنده فى غناء ، أو يحتاجون إليه ، فيقربونه عند ذلك ، ويكرمونه فإذا قضوا منه حاجتهم ، فلا ود ولا إخاء ! ولا البلاء الحسن مجازى عندهم ، ولا الذنب مغفور ، وليس أمرهم إلا الفخر والرياء والسمعة وكأن عظيما من الذنوب يركبونه ، هو عندهم صغير ، وعليهم هين [١] ... » .

ولا شك أننا نلاحظ أسلوبا عنيفا فى هذه العبارة ، ما كان لابن المقفع أن يستخدمه لو لم يكن واجدا – فى نفسه – على من قصد به هذا الكتاب ، ونلاحظ استطرادا وإطنابا فى العبارات ، مما يجعله يشعر براحة كلما زاد فى العبارات والمترادفات وأطنب فيها معددا مساوىء الملوك الذين هم فى ضمير ابن المقفع : أبو جعفر المنصور ، وليس أحد غيره .

وقال أيضاً : « قال فنزة : إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت ، وأخوفها وأشدها : ما كان فى أنفس الملوك ، وإن الملوك ، يدينون بالانتقام ويرون الطلب بالوتر مكرمة وفخرا » . [٢] ثم ينصح الملك بنحو ما نصحه به فى رسالة الصحابة : من الاهتمام باختيار الأعوان : ... ثم على الملك – بعد ذلك – ألا يترك تعاهد عماله ، والتفقد لهم والأمور ، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء . ثم عليهم – بعد ذلك – ألا يتركوا محسنا بغير جزاء ، ولا يقروا مسيئا ولا عاجزا على العجز والإساءة ، فإنهم إن صنعوا ذلك ،

---

(١) كليلة ودمنة (طبعة دار المعارف ص ٢٣٨) وطبعة شيخو ص ٢٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥١ (طبعة دار المعارف) .

تهاون المحسن ، واجترأ المسيء ، ففسد الأمر ، وضاع العمل ... [1] » ومن يدرى لعله قصد نفسه بتذكير الملك أو الخليفة بالإحسان إلى المحسن ، حتى لا يتهاون المحسن ! ولعمرى إن هذه الفقرة السابقة من الفقرات التى حث الملك على قراءتها وتفهمها ثم العمل بها كما نصح فى أول الكتاب : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، وهو لاشك يقصد الخليفة ومن حوله لا السوقة ، لأن السوقة ليس فى يدهم شيء من زمام الملك أو تصريف أمور الناس ولا يتحكمون فى صغير أو كبير من أرزاق الناس وما يصلح لمعاشهم ، أما الحكام فهم الذين عليهم المعول ، وبالتالى هم الذين يوجه إليهم ابن المقفع أمثال هذا الكتاب للعمل بما فيه ، فينفعونه وينفعون أنفسهم .

وأعتقد أنه ليس من المستبعد أن يكون قد مر بذهنه فى قصة « الأسد والأرنب التى تخلصت منه » و « الذئب والغراب وابن آوى يهلكون الجمل » أنهما مثلان لانتصار الضعيف على القوى - مهما أوتى من قوة - وسخريته بهذا القوى الذى يشفى غليله منه .

وبذلك تكون السخرية من النوع الذى يطلق عليه الأوربيون « سخرية الحوادث Irony fo events أو ما يسمى سخرية القدر التى تجعل الإنسان يبتسم من مفارقات القدر حينما يتجبر شخص ما وإذا به يغلب بواسطة شيء ضعيف ما كان الإنسان يظن أنه سيغلبه ، وحينذاك يبتسم المرء ابتسامة السخرية ، وهذا شائع فى حياتنا الدنيا . ومما يستوقفنى فى نهاية باب الفحص عن أمر دمنة » تلك العبارة : « ثم قال الفيلسوف للملك » : فلينظر أهل الفكر فى الأمور فى هذا وأشباهه ، وليعلموا أنه من يلتمس منفعة نفسه بهلاك غيره ظالما له بخديعة أو مكر ، أو خلابة ، فإنه غير ناج من وبال ذلك عليه وعاقبته

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٦ (طبعة دار المعارف) .

ومغبته ، وإنه مكافأ به ، ومجزى بما عمل ، عاجلا وآجلا ، وصائرا إلى البوار على كل حال ، ،[١] .

وهناك حديث طويل لنقد الأشحاء اللئام وذمهم يمكن أن يكون تعريضا بالمنصور ، لفرط ما عرف عنه من شح شهر به[٢] . ولا شك أن ابن المقفع قد اتبع فى « أسلوبه » ما جاء فى عبارات الكتاب عن التعريض .... حتى ربما أغضبه بعيبه ـ وهو لا يغضبه ـ إنما يضرب له الأمثال ويحدثه عن عيب غيره ، فيعرف به عيبه ، ولا يجد للغضب عليه سبيلا . ، ،[٣] . وقد عرض ابن المقفع بسرعة غضب الملك على لسان إيلاد ـ لما طلب منه الملك أن يذكر حاجته بعد إصلاح شأنه ـ « ليست بى حاجة فيما قبلك إلا التأنى عند الغضب ، والروية عند الفكر ، ،[٤] .

وقد عرض ابن المقفع بنهاية الظالم فى قوله : « فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد ، فوثب من بقى منهم ومن به رمق ، وتجمعوا إلى باب الملك ، فقتلوه ووزيره وأهله ، ولم يبق منهم أحد . ،،[٥]

* * *

وقد تجلت سخرية ابن المقفع الحقة التى هى أقرب إلى التصريح منها إلى

---

(١) كليلة ودمنة ص ٢٤ .

(٢) جاء فى مروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٣٢ « وكان مع هذا يضن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه عـلى أن له الرؤوس والأكارع والجلود ، وعليه الحطب والتوابل . ، ، وانظر كليلة ودمنة (طبعة دار المعارف) ص ١٣٨ .

(٣) كليلة ودمنة ص ٢١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

الإبهام ، فى ذلك الحوار الرائع الذى عقده فى نهاية قصة إبلاد وإيراخت وشادرم » وتتلخص هذه القصة فى أن ملكا من الملوك يدعى « شادرم » غضب على زوجته ، لأنها هفت معه هفوة صغيرة ، رأى أنها تستحق العقاب فقسا عليها إلى حد أنه أمر وزيره « إبلاد » بقتلها . فأخذها الوزير بعيدا عن القصر ، ووكل بها من يعنى بأمرها ، ثم رجع إبلاد إلى الملك.. وقد خضب سيفه بالدم ـ زاعما أنه قد قتلها ، منفذا بذلك أمر الملك .

أما الملك فحينما سكن غضبه على « إيراخت » الملكة ، وتذكر « جمالها ورأيها وعظم عنائها ، وجسيم منفعتها اشتد حزنه ، وجعل يقوى نفسه ويتجلد ، وفطن إبلاد إلى ذلك ، فأخذ يعزى الملك ، ويضرب له الأمثال ، ويقص عليه القصص فى السلوى والعزاء ، وأن لديه النساء الكثيرات ، وأن لاداعى للحزن عـــلى إيراخت ، فلما سمع الملك ذلك ، خشى أن تكون إيراخت قد هلكت .

فقال لإبلاد : أفى سقطة واحدة كانت منى فعلت ما أمرتك به من ساعتك وتعلقت بكلمة واحدة ، ولم تتثبت فى الأمر ؟.

قال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف كلامه عندى ، واحد .

قال الملك : ومن ذلك ؟

قال الله عز وجـــل : الذى لا يبدل كلامه ولا يختلف قوله !

وهكذا يبدأ حوار رائع بين إبلاد الوزير والملك شادرم ، يأخذ الوزير فيه بالعبث بالملك ساخرا منه تسرعه فى الحكم ، وأول شىء يبصره به هو أنه ضعيف بجانب الملك الأكبر خالق كل شىء . وطريقة الوزير فى هذه السخرية : هى محاولة الإجابة عن عبارة الملك أو تساؤله (خبرا كان أو استفهاما) بواسطة التفريع أو وضع حالة الملك ـ التى نسبها لنفسه

أو نسب نفسه إليها - بين عدة حالات ، ثم يثبت له أن حالته هذه التي نسبها لنفسه ليست من بين هـــذه الحالات التي تكاد تكون الحالات الصحيحة الحقيقية التي اتفق عليها الفلاسفة - بكون إبلاد فيلسوفا مثلهم - ويمكن أن يطلق على طريقته طريقة « التصامم » أو ادعاء الصمم ، أو التخابث أو التباله ، فهي أشبه بطريقة سقراط التي كان يدعى فيها عدم العلم أو الجهل ، فهو أيضا يدعى أنه لم يفهم أو أنه فهم ولكن قول الملك لا يعول عليه لأنه ليس صحيحا كما يظن ، ولأنه ليس واحدا من هؤلاء الذين يذكرهم له : فإجاباته فيها تعزية ممزوجة بالسخرية . ونستطيع أن نذكر هذا المثل تبيانا لذلك . يقول الملك : اشتد حزني لقتل إيراخت !.

يرد عليه إبلاد ساخراً ، متصنعا الجد - وهو جد الفلاسفة - اثنان ينبغي لهما أن يشتد حزنهما :

الذي يعمـــل الإثم
والذي لم يعمل برا قط
لأن فرحهما في الدنيا قليل !

فهو كأنه يقول له : إنك إما أن تكون واحداً من هذين اللذين ذكرت آنفا ، فحينذاك تكون من يعمل الإثم أو من لم يعمل برا قط ، وإلا ، فلا يحق لك الحزن ، وهذا شيء كبير بالنسبة للملك ، لأنه لا يحتمل أن ينسب إلى أحد هذين الأمرين اللذين ذكرهما الوزير ؛ ولا يحتمل أيضا أن لا يحزن لهذه الفجيعة الكبرى - فجيعة أمره بقتل إيراخت ، ولا يحتمل ثالثا أن يخرجه الوزير من هذا الأمر الذي هو ظاهر للعيان أنه يستحق الحزن ، إلى أمرين بعيدين كل البعد عن ذهن الملك - في حالة الحزن الذي يسد المنافذ على الشخص ، فلا يجعله يفكر أو يتأثر بشيء غير الذي هو فيه !.

وهكذا يستمر فى العبث بالملك بطريقة السخرية أو الهجاء غير المباشر حتى إنه لما قال الملك : ما أنا بناظر إلى إراخت سوى ما نظرت ! يرد عليه إبلاد ـ الفيلسوف ـ قائلا : اثنان لا ينظران أبداً :

الأعمى ؛ والذى لا عقل له ! فإنه كما أن الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض ، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه وكذلك الذى لا عقل له ، لا يبصر منفعته من مضرته ، ولا يعرف العاقل من الجاهل ، ولا الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء !

وهو بهذا يقول له ـ بطريق غير مباشر ـ إنك : إما أعمى وإما لا عقل لك : فيسب الملك ، وبذلك يزيده حزنا ـ من غير أن يمنحه الفرصة لأن يغضب ولأن ينتقم منه هو الآخر ،وهكذا يتشفى بالملك أعظم تشف حتى يفطن الملك إلى هذا بعد أن يضيق به ذرعا فيقول له :

إنى لحقير فى عينك يا إبلاد ! فيرد عليه إبلاد هازئا ـ كأنه لا يعنيه من أمر الملك شيء بل يعنيه مجرد السخرية به أو أن يظل سادرا فى غى حكمته « ثلاثة يحقرون أنفسهم : الذى يهذى بالكلام، ويتحدث بما لا يسأل عنه... والمملوك الغنى وسيده فقير فلا يعطى سيده شيئا من ماله، ولا يعتد به،والعبد الذى يغلظ لسيده فى القول ويستطيل عليه ونلاحظ أنه حتى اعتراف الملك بأنه حقير فى عينى إبلاد ، لا يريد إبلاد أن يوافق الملك عليه أى على هذا الاعتراف ـ أو الاعتراف به ، ولذلك يفطن الملك إلى ذلك فيقول ـ وقد لاحت عليه سمات الانكسار التى تدعو إلى الإشفاق عليه والرثاء لحاله : « إنك لتسخر بى يا إبلاد ! ، أى إننى قد هنت عليك إلى حد أنك لم تكتف بتركى وحزنى ، بل أخذت فى السخرية بى (ونلاحظ أن عبارة الملك هى العبارة الثامنة عشر من هذا الحوار ، أى قيلت تلك العبارة بعد سبع عشرة عبارة سالفة ـ ويستمر الفيلسوف فى لذعه فيرد على عبارته السابقة بقوله :

ثلاثة ينبغى أن يسخر منهم ... ، وهكذا يحير الملك هذه الحيرة العنيفة فيأبى حتى مجرد الاعتراف بأنه يسخر منه !

وهكذا نرى إيلاد (أو ابن المقفع) يسخر سخرية لاذعة تمتد حتى تصل إلى حوالى أربع وأربعين عبارة فى عدة صفحات ، وإنى لأعدها بل أعتبرها أكبر مكان أو مناسبة سمحت لابن المقفع بأن يشفى غليله من الملك أعنف شفاء .

وقد أظهر ابن المقفع فى هذه القصة ضعف الملوك وهم يتصنعون القوة ، أمام حوادث تافهة نسبيا : كفقد زوجة من الزوجات ، وأظهرهم أيضا بمظهر الحمق والطيش الذى هم عليه ، والنقص كغيرهم من البشر بتسرعهم فى إصدار الأحكام ، ثم محاولة الندم على ذلك حيث لا ينفع الندم ! وإن هذه الحالة لتذكر بعقدة ألف ليلة وليلة حيث تحاول شهرزاد إنقاذ بنات جنسها من ملك طاغية يريد أن يقتل بسبب وبغير سبب ، ولا يبغى من وراء ذلك إلا إظهار قوته المجنونة أو ضعفه أمام نزواته وشهواته !

ويحاول ابن المقفع أن يطنب أو يتوسع فى إظهار ضعف الملك بإظهاره بمظهر الحزين ، العميق الحزن ، فى مواضع كثيرة حتى إنه يأخذ فى تكرار ذلك على لسان الملك بعبارات مختلفة تدور حول معنى واحد هو الندم على خطأ لا يمكن إصلاحه ، مثل : اشتد حزنى لقتل إيراخت (٢) لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن أبداً (٣) ما أنا بناظر إلى إيراخت سوى ما نظرت (   ) - لئن رأيت إيراخت ليشتدن فرحى (   ) ما شبعت من رؤية إيراخت قط (   ) صرت من إيراخت صفرا (   ) لقد ازددت حزنا بتعزيتك يا إيلاد - هلكت إيراخت ضيعة فى غير شىء ! (   ) ليتنى قد رأيت إيراخت يا إيلاد ! (   ) لقد أوجعت قلبى يا إيراخت ! (   ) أنا الذى شققت على نفسى ! (   ) لن تطيب نفسى بقتل إيراخت يا إيلاد ! أفسدت على العيش يا إيلاد ! (   )

ثم يظهر الكاتب الملك بمظهر الضعيف حتى إنه يبدأ فى تعنيف إبلاد ، ثم يبدأ فى تهديده وسبه : إنه لينبغى لنا أن نتباعد عنك ياإبلاد فإنك بذلك جدير (٧) إنك لأهل أن تعذب أشد العذاب (٢٠) إنه لينبغى لك أن تسفه ياإبلاد (٢٠) كان ينبغى لك أن تسكت حتى يهدأ غضبى ياإبلاد (١٤) قد تصدم ما بينى وبينك ياإبلاد (٢١) ما ينبغى لى أن أكلمك ياإبلاد ! والغريب أن الفيلسوف — برغم هذه التهديدات — لا يتورع عن الرد على الملك بتقريع الإجابة كما تعود بطريقته الخاصة .

ويبلغ ابن المقفع منتهى السخرية بالملك حتى إنه ينطقه بهذه العبارات أمام وزيره إبلاد : إنى لحقير فى عينك ياإبلاد : (١٧) إنك لتسخر بى ياإبلاد (١٨) إنك لمتجبر ياإبلاد ! (١٩) إنى لخائف منك ياإبلاد ! (٢٧) أما لك رحمة فترحمنى ياإبلاد !؟

ثم يظهر الملك بمنتهى الضعف الذى يستحق الاستهزاء والرثاء حينما ينطقه بمثل قوله : لم يصبنى قط وجع أشد على مما وصل إلى من إيراخت لحلمها وعقلها (   ) لا أرى لإيراخت فى النساء شبيها (   ) ليس يأتينى النوم على حزنى لإيراخت (   ) حسبك ياإبلاد فقد تركتنى فى شـــك من رأى (٤٤) !

وهكذا يعبث إبلاد بالملك أشد العبث ، حتى إذا ما رآه قد هوى وأصبح فى شدة القنوط (كما تدل عليه العبارة الأخيرة) فاجأه بإظهار إيراخت مرة ثانية ، وإنها لعمرى خاتمة ساخرة بالملك حتى لو أنه كان قد قتلها حقا ، لكان أهون على مركز الملك وأحفظ لكرامته من أن يعنفه بكل هذه الأجوبة الطويلة السامة ـ إن سمح لى التعبير بذلك ـ ثم ينتهى أخيرا إلى إظهارها مرة ثانية : كأنه الطفل الغرير الذى عبث به بإخفاء أمه — مصدر حياته — ثم

عاد فاظهرها ، وكأنه يقول له مر بتا على كتفه لاتبك ، هاهى أمك قد عادت إليك أيها الطفل الصغير !

* * *

وقد اختلف عدد عبارات الملك ووزيره فى هذا الحوار باختلاف النسخ، فبلغت فى كتاب « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » ثلاثين عبارة للملك ومثلها للوزير فى الرد عليه . أما فى نسخة دى ساس والنسخ المصرية (التى طبعتها وزارة المعارف ومكتبة الهلال) فهى مختصرة جدا لاتزيد على ثمانى عبارات للملك ومثلها للوزير . أما أطولها فهى ماذكر فى النسخة السريانية الحديثة[١] ونسخة شيخو إذ بلغت سبعا وثلاثين عبارة ونسخة عزام فتبلغ ستا وأربعين عبارة ، وبذلك فهى أكثر النسخ إطنابا فى هذا الحوار . وإنى لأحار فى سبب الاختلاف فى عدد العبارات بين النسخ إلى هذا الحد ، وقد يكون لسقوط بعض العبارات فى النسخ الناقصة لضياع بعض الأوراق منها أو التزاما للاختصار كما يسلك بعض الناسخين الذين لايراعون الأمانة والدقة فى النقل ، أو بسبب تزيد بعض الكتاب المتأخرين والنسج على منوال ابن المقفع فى هذا الصدد حبا فى هذا النوع من الإنشاء وفى هذا النوع من الحوار فى هذا الموقف بين الملك ووزيره الذى ربما قد استهواهم وحل من نفوسهم محلا جعلهم يقلدون ويتزيدون ، ومهما يكن من أمر ، فإن النسخ المطولة : وهى نسخة ابن الهبارية وشيخو وعزام تحتوى على عبارات تتفق عليها النسخ كل الاتفاق أو فى كثير من الألفاظ : والنسخ تتفق كلها فى كيفية بدء الحوار ولا تختلف إلا فى بعض الألفاظ التى لاتغير من المعنى فى شىء : ففى نسخة وزارة المعارف المصرية يبدأ الحوار هكذا :

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة (طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢) بقلم عبد الوهاب عــزام .

- لم لاتأنيث وتثبت ، بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة، فتعلقت بها، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك !

فقال إيلاد : إن الذى قوله واحد ، لايختلف : هو الله الذى لاتبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله .

أما ابن الهبارية ، فيذكرها هكذا :

فقال يا بهلار هل من كامه ؟	قتلتها ، لقد جنيت ، مؤلمه
هلا تثبت ولم تستعجل	فالخير فى الرفق وفى التمهل
قال له : إن الذى لايختلف	منه الكلام واحد إذ تعترف
فقال : من ذاك ؟ فقال الله	لغيره الأضداد والأشباه

أما فى نسخة شيخو فقد بدأها كما ذكرنا فى أول هذا الفصل (منذ بضع صفحات) وكانت نسختا عزام وشيخو أكثر النسخ اتفاقا ، حتى كأنهما من مصدر واحد ، ولا يختلفان إلا فى بعض الكلمات ، ونمثل لذلك بمقارنة الفقرة رقم ٣٦ لدى شيخو بالفقرة رقم ٤٢ عند عزام :

قال الملك : لقد غبنتنى وغبنت نفسك ياإيلاذ .

فتذكر فى نسخة الدكتور عزام محرفة هكذا :

قد عنيت نفسك ياإيلاد وإياى معك (لحرفت غبن إلى عنى) .

ثم يقول فى نسخة شيخو : ثمانية يغبنون أنفسهم وغيرهم .

فتذكر فى نسخة عزام : تسعة نفر يعنون أنفسهم وغيرهم .

وفى نسخة شيخو : « والبذىء الفجور الأشر العادى طوره المستغنى برأيه عن مشاورة الأخلاء .

فتذكر فى نسخة عزام مختصرة هكذا « والبذىء الفاجر العادى طوره ».

وفى نسخة شيخو « ومطالب العلم الذى يخاصم فيه من هو أعلم به منه ، ولا يقبل منه ما علمه » .

وتذكر فى نسخة عزام : « وطالب العلم بخصومة من هو أنبل منه » .

وهكذا نرى الاختلاف بين النسختين فى بعض الأحيان هينا لا يتعدى الاختلاف فى ترتيب العبارات ، وفى بعض الأحيان كبيرا إلى حد حذف بعض العبارات الموجودة فى نسخة دون غيرها أو وجود عبارات جديدة ذات معنى مختلف عن مثيلتها فى النسخة الأخيرة ، أو حذف بعض فقر برمتها كالعبارة رقم ٢٩ فى نسخة شيخو وهى غير موجودة فى نسخة عزام وهى :

« قال الملك : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغى لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا » أى لا يجوز المزاح معهم .

قال إيلاذ : « أربعة لا ينبغى لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا »[١] .

وكذلك الفقرة التالية لها برقم ٣١ ، رقم ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ فإذا اتخذنا نسخة عزام أساسا فى عدد الفقر وجدنا أن نسخة شيخو تحتوى على هذه الفقر من نسخة عزام : ١ - ٢٦ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٣١ ، ٣٥ - ٢٧ .

أما ترتيب ابن الهبارية فى منظومته وعدد فقراته فهو كالآتى[٢] :

١ - ٢١ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، فقرة مزيدة ، ٢٢ ، ٣٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤٠ ، فقرتان مزيدتان ، ٤٣ .

---

(١) كليله ودمنة (طبعة بيروت التى نشرها شيخو) ص ٢٢٦ .

(٢) ص ٢٠٤ — ٢١٤ من طبعة نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة للوزير الشريف أبى يعلى على بن أحمد بن الحسين المعروف بابن الهبارية . هذبه الخورى نعمة الله الأسمر المارونى اللبنانى ، وطبع فى المطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٠ .

أما ترتيب طبعة مكتبة الهلال (وهى الطبعة المصرية المتداولة) فهى كالآتى : ١ ـ ٩ فقط[١] .

ونلحظ أن جميع النسخ تتفق فى البدء بالفقر التسع الأولى ثم تختلف بعد ذلك ، ولهذا أرى أن تحقق نسخة شيخو وابن الهبارية (التى أعترف ناشرها اللبنانى بأنها مهذبة) وذلك بالاستعانة بباقى المخطوطات وفى مقدمتها نسخة عزام ـ التى عنى بها عناية كبيرة وحققها تحقيقا أمينا ـ وبذلك نستطيع أن نخرج للعالم العربى نسخة أقرب إلى الدقة ، وإلى الأصل الذى أخرج عليه ابن المقفع نسخته الأولى إلى العالم العربى ، ويمكن الاستعانة بالمجهود القيم الذى بذله المرحوم الدكتور عزام فى تحقيق أسماء الكتاب لما لحذفه اللغة الفارسية .

* * *

أما تفريع إيلاد لعبارة الملك فهى فى المتوسط أربع حالات ، ولكنها قد تصل إلى عشر حالات كما ذكر فى الفقرة الأخيرة من الحوار رقم ٤٤ . أما أجوبة إيلاد فى هذا التفريع فهى أجوبة فلسفية حكيمة ، فيها شىء من الغموض أحيانا . وفى بعض عبارات ابن المقفع تعريض كقوله : « والفجرة الذين يسفكون الدماء ـ بغير حق ـ ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأتقياء » فلا شك أن هذا تعريض بأبى جعفر المنصور[٢] وتبلغ سخريته بالملك إلى حد أن شادرم الملك حينما يوجه بقوله : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغى لهم أن يضاحكوا ، »[٣] أى لا ينبغى أن يمزح معهم حاول الكاتب ـ كعادته ـ الهزء به بطريقته الخاصة . وحينما قال له الملك : كأنك

---

(١) كليلة ودمنة طبعة مصر سنة ١٩٢٤ ص ٣١٧ — ٣١٩ .

(٢) كليلة ودمنة (طبعة عزام) ص ٢٠٦ .

تريد أن تعلم الناس حتى يمهروا ، وتعلمنى أيضا حتى أكون ماهرا » ينفلت منه الفيلسوف أيضا ولا يقر بذلك - مع أن قول الملك هو الحقيقة - ويحاول أن يذكر له أمثلة أخرى غير ماذكر الملك وما اعتقد .

ونلاحظ على العناصر التى احتوت عليها أجوبة الفيلسوف أن بعضها مكرر ، وبعضها عناصر من الطبيعة كقوله : أربعة الحقد فيهم ثابت : الذئب والخروف ، والسنور والجرذ ، والبوم والغربان ، والبازى والدراج[1] . أو « أربعة يخافون مما لا ينبغى : الطائر الصغير ... والكركى ... والدودة ... والخفاش ... » وبعضها يتخذ عناصر مما يتكون منه المجتمع الإنسانى ؛ غير أنه أكثر من المرأة وصفاتها وأخلاقها وبخاصة ضرب المثل بالمرأة الفاجرة « رقم ٢٧ . صفات المرأة التى هى حقيق أن يحزن عليها ، رقم ٣٥ ، رقم ٢٨ ، رقم ٢٦ ، رقم ١٨ والمرأة التى تذكر أنها عذراء وليست بعفيفة ولا حصان .

ومن أفراد المجتمع أيضا بطانة الملك ، والملك - وبخاصة السريع الغضب كما فى رقم ٤٢ « سبعة لايزالون فى سخط : الملك السريع الغضب الضيق الصدر غـــير المتئد » . وفى رقم ٤٤ « . . . والملك فى الغضب كيف يكون حلمه وعلمه » وفى رقم ١٣ « ... الملك الحقود الهذر فى القول » وفى رقم ٣٠ « . . والملك الذى يأتى المعروف إلى كل غامط كفور منكر لكل ما يصنع » وفى رقم ٣٢ « .... والملك يكرم العبد » وفى رقم ٢٥ « ... والملك الذى يهم بالأمر العظيم ويرتكبه . وتمتلىء أجوبة إبلاد أيضا بحكم رائعة صادقة كما فى رقم ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ مثلما ذكر فى رقم ٢٠ « أربعة لا يخالط بعضهم بعضا : النهار والليل ، والبر والفاجر ، والظلمة والنور ، والخير والشر » ! .

وأخيرا فإن عبارة من عبارات الفيلسوف فى هذا الحوار لا تكاد تخلو من الكلام فى الأخلاق وكيف تكون .

---

(١) المرجع السابق (طبعة عزام) رقم ٣١ .

وإن طريقة كاتب هذه القصة وكاتب هذا الحوار «التفريعي» لتذكرني بطريقة كان يمارسها الأمير الشهابي – الذي كان معاصراً لمحمد علي الكبير والي مصر – إذ كان إذا سئل السؤال ولم يعجبه أو لم يرد الرد عليه، تظاهر بأنه لم يسمعه أو لم يفهمه وأجاب – بكل ثبات – على سؤال آخر لا يمت إلى هذا السؤال بصلة وقد اتبع هذه الطريقة مع جميع السياسيين المعاصرين له وبذلك كان يسخر منهم سخرية لاذعة من غير أن يحرك ساكناً[١].

وليست هذه القصة التي حللتها وعلقت عليها فيما سبق هي القصة الوحيدة الساخرة في كليلة ودمنة، بل هناك الكثير مما يمكن أن يدخل في هذا النوع من السخرية المسمى بسخرية الحوادث Jrony of events مثل «بائع السمسم[٢]» وسارق الثوب والبر[٣] والسارق راكب الشعاع[٤] وقصة القدر الذي لابد أن يصيب الإنسان كالرجل الذي هرب من الذئب في البحر ثم وقع عليه الجدار[٥] وإن على رأس هذه القصص اثنتين هما قصة القرد والقيلم وسخرية القرد بأنه ترك قلبه فوق الشجرة[٦] وقصة الحمار الذي زعم الثعلب أنه ليس له قلب ولا أذنان[٧].

• • •

وبعد، فإن هناك كلمة أخيرة في سخرية ابن المقفع: هي أنها سخرية جادة حزينة، ليست بالضاحكة ولا بالخفيفة، فهي أشبه بأن تكون صارمة، وبأن يكون منبعها رجل مفكر عظيم التفكير، ونستطيع أن نطلق عليها السخرية الحكيمة أو الحكمة الساخرة، وهو لم يسلك في سخريته الأساليب الهازئة المختلفة كأسلوب الأمر أو النهي أو الاستفهام أو غيرها من الأساليب التي

---

(١) مجلة الاثنين سنة ١٩٤٨ من مقال للأستاذ حبيب جاماتي بعنوان «تاريخ ما أهمله التاريخ».

(٢) كليلة ودمنة ص ٨ (٣) المرجع السابق ص ٩، ١٠

(٤) المرجع السابق ص ٢٠-٢٢. (٥) نفس المرجع ص ٤٥

(٦) نفس المرجع ص ١٧٥. (٧) نفس المرجع ص ١٨١ من طبعة عزام.

ذكرت سابقا ، وذلك لأنه يخاطب ملكا غاضبا فلا يستطيع أن يظهر له هزأه فى حالة حزنه ، وإلا قتله ، وكذلك فإنه كان بصدد أسلوب فلسفى ساخر هو من طبيعة الفلاسفة كابن المقفع ، فلا غرو أن استخدمه ليكون فى السخرية والنصح فى آن واحد ، كذلك فطبيعة ابن المقفع طبيعة الرجل العاقل المتزن الرزين الذى تتجافى رزانته عن أساليب السخرية اللعوب الأخرى .

— ٤ —

الجاحظ

وننتقل الآن إلى كاتب يعد أكبر كتاب الدولة العباسية إن لم يكن أكبر كاتب ظفرت به اللغة العربية ، وأعنى به الجاحظ .

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثى الكنانى ، ولد فى البصرة ، فى سنة ١٥٩ أو سنة ١٦٠ هـ وقالوا : كان الجاحظ مولى أبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى ، ثم الفقيمى ، ومنهم من أضاف إلى هذا : وهو كنانى قيل : صليبة ، وقيل . مولى . وكان جده أسود يقال له فزارة . وكان جمالا لعمر بن قلع الكنانى .

هذا كل مايعرف عن نسبه وأصله ، وهذه المعرفة لاتضيء ظلمة ، فإن ناحية نسبه غامضة [1] . ولم يعرف من أقاربه إلا خاله - أو خال أمه كما قيل فى رواية أخرى - يموت بن المزرع [2] الذى توفى سنة ٣٠٤ هـ وكان من مشايخ العلم والأدب . أما أبوه فقد توفى وهو حديث السن [3] .

حياته :

طلب العلم - وهو صبي - فى الكتاب مع أولاد القصابين وغيرهم من

(١) الجاحظ : شفيق جبرى ص ٣٥ (٢) أدب الجاحظ الصندوبى ص ١١
(٣) الجاحظ : حنا الفاخورى ص ١٥ .

طبقات المجتمع ، ثم راح يتعيش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة ، وهو لا يألو جهدا فى طلب العلم ومطالعة الكتب ، وكانت البصرة أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد، يجتمع فى مسجدها طائفة من العلماء عرفوا بالمسجديين ، فجالسهم الجاحظ ، وأفاد منهم بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية ، وتلقى الفصاحة عن خطباء العرب فى « المربد » ومن العلماء الذين أخذ عنهم علومه : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى ، وأبو الحسن الأخفش ، وتخرج فى علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبى إسحاق النظام [١] وقد بلغ شغفه بالقراءة أن كان يكترى حوانيت الوراقين ، ويبيت فيها أحيانا للمطالعة - وبعد أن كان فقيرا تعيره أمه لعدم سعيه وراء رزقه وجريه وراء الكتب ، أصبح يصعد سلم الغنى رويدا رويدا ، حتى نال الجوائز السنية من الأمراء ، فأعطاه محمد بن عبد الملك الزيات خمسة آلاف دينار لما أهداه كتاب الحيوان، ومنحه أحمد بن أبى دواد مثلها لما أهداه « البيان والتبين » وأخذ كثيرا من الجوائز غيرها ، حتى أصبح يمتلك ضيعة بالبصرة ، وكان يقتنى الخدم ،وربما ابتاع من الخدم من كان يخدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك . [٢]

جمع هذا المال الطائل ، وتقلد جلائل الأعمال ، فقد صدر فى ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى فأعفى . وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب ! [٣] وكان يتقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولى على ديوان الرسائل . وبلغ من ارتفاع

---

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٨ .

(٢) البيان والتبين ٢ / ١٧٦ .

(٣) الجاحظ : لشفيق جبرى ٣٩ .

شأنه ، وبحبوحة عيشه أن سأله رجل عن حاله ، فأجاب : سألتني عن الجملة ، فاسمعها مني واحداً واحداً : حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلات إلي ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب أفخرها ، وأجلس على ألين الطبري ، وأتكيء على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ! فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ! قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري ويختلف إلي ، فهذا هو الفرج ! .. (1)

وقد اتصل الجاحظ بكثير من عظماء الرجال في عصره ، فاتصل أول ما اتصل بابن الزيات ، وما أن غضب عليه المتوكل وأحرقه ، حتى أراد عدوه أحمد بن أبي دواد أن ينتقم من الجاحظ ، لانضمامه إليه ، فأرسل إليه وأتي به مكبلا ولكن ظرفه كان شفيعاً لديه لأن يعفو عنه (2) قائلا : «أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ! ومن اتصل بهم ومدحهم : إبراهيم بن رباح ابن شبيب الجوهري الكاتب ، وكان والياً على الأهواز ، وأبو الفرج نجاح ابن سلمة ، وكان يكاتب جماعة منهم إبراهيم بن المدبر (3) .

وقد فطن الجاحظ إلى أن الضرب في مناكب الأرض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال ، لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور ، ومتباين الألوان مما يكون مادة لرجال العبقرية ، ولذلك فقد سافر إلى أنطاكية ودمشق ويقال إنه زار مصر أيضاً (4) .

---

(1) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ح ٢ / ٢٤٨

(2) معجم الأدباء لياقوت ٦ / ٥٨ .

(3) الجاحظ : لشفيق جبري ص ٤٩

(4) الحيوان ٤ / ٥١ ، ٥ / ١١٣

وأخيرا ، فقد أخذ هذا السراج الوهاج ، يخبو رويدا رويدا ، حتى أصيب بالفالج بعد أن بلغ الثمانين من عمره ، وقد قاسى من ذلك كثيرا ، كما روى المبرد وأبو على القالى : « كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ! »(١) وتوفى فى خلافة المعتز بالله سنة ٢٥٥ هـ بعد أن خبر كل أمر من أمور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات ، ومد الله فى أجله طوال قرن كامل (٢) :

مؤلفاته وكتبه : —

وقضى الجاحظ أغلب حياته قارئا باحثا ، مطلعا على كل ما يصدر فى عصره ، وكم كانت سخرية القدر به حينما كانت هذه الكتب التى ملأت جدران بيته السبب فى هلاكه !

وكتب الجاحظ فى كل موضوع تقريبا ، من المعلمين إلى بنى هاشم ، ومن اللصوص إلى الذئاب ، ومن الكلام فى صفات الله تعالى إلى القيان ، ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد ، ومن الإمامة إلى الحور والعور ، « فإن نحن قلنا إن كتبه « دائرة معارف » ازمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس ، كان ذلك صوابا ! وهو فى تأليفه أنيس محاضر تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجد وثقل الغموض الذى كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائما يخلط جدا بهزل ، ويسيغك

---

(١) أمالى القالى ١ / ٥ ، معجم الأدباء ٦ / ٧٩ .

(٢) الجاحظ : لشفيق جبرى ٥٧ ، ٥٨ .

القمة الجافة بكثير من الحلوى، ويجد، حتى إذا أعدك للبكاء - رمال بنادرة تمعن منها فى الضحك [١] قال المسعودى : ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه ... وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لانه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة ،، [٢].

ألف فى مواضيع المتكلمين مثل كتاب خلق القرآن وكتاب الرد على المشبهة وكتاب فى الرد على النصارى وكتاب الاعتزال، وكتاب الإمامة. وكتب فى موضوعات سياسية تاريخية : ككتاب العرب والموالى ، وكتاب العرب والعجم، ورسالة فى فضائل الأتراك، وكتاب السودان والبيضان، وألف فى الأخلاق التى كان يشعر بها فى عصره وطبقات الناس: فألف كتاب البخلاء والسلطان وأخلاق أهله وكتاب الجوارى والحاسد والمحسود وألف فى النبات كتاب الزرع والنخل وألف فى الحيوان كتاب الأسد والذئب وكتاب البغال وكتاب الحيوان.

وألف فى الفكاهة والنوادر - علاوة على ما بثه منها فى كتبه السابقة - : كتاب نوادر الحسن، كتاب الملح والطرف، كتاب المضاحك (ذكره أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »، كتاب المزاح والجد، كتاب فرط جهل الكندى، كتاب التربيع والتدوير [٣].

(١) ضحى الإسلام ١ / ٤١٠.

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٤.

(٣) انظر أدب الجاحظ للسندوبى من ١١٩ - ١٤٤ ومجموعة الروائع عدد ١٩ ص ٥١٥ - ٥١٩.

صفاته :

كان جد الجاحظ عبدا أسود ، فلا بدع أن يرث حفيده شيئا من خلقه ، فيأتى دميم الهيئة ، بشع المنظر ، قصير القامة ، ناتىء العينين ، وعلى هذا دعى بالجاحظ ، والحدقى ، فغلب عليه اللقب الأول . وهو فى بعض الأحيان يذكر بعض أخبار فى قبح صورته على سبيل التفكهة ، فمما رواه : « ذكرت المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآنى استشبع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم ، وصرفنى » [1] وقال أيضا : « ما أخجلنى إلا امرأتان : رأيت إحداهما فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلى كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا ! (معرضة بقصره) .

وأما الأخرى ، فإنها أتتنى ، وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأنا أريد أن تمشى معى . فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها أتت إلى بفص ، وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت : ياسيدتى . ما رأيت الشيطان ، فأتت بك ! [2] وقد هجاه بذلك أحد الشعراء فقال :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ما كان إلا دون قبح الجاحظ

وقد عوضه الله خيرا من قبح المنظر سرعة حافظة ، ووفرة ذكاء ، والظاهر أن فقره الذى بدأ به حياته ، وقبح منظره وقصر جسمه الذى عرف به قد هيآه لأن ينكب على الكتب انكبابا ، حتى يزيل بتفوقه فى العلم والأدب

---

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ما كسى به من سوء المنظر. وقد طبعته خلقته - كأمثاله من غالبية المشوهين - بطابع الظرف والفكاهة، فهو أشبه فى ذلك بإمام العبد الأديب المصرى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والشيخ عبدالعزيز البشرى الذى كان دميا، والممثل الهزلى على الكسار الذى طالما أضحك الملايين وقد ساعده على ذلك سمرة بشرته وخلقته الخاصة.

وكان الجاحظ أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم، وينظر إلى الأمور كما هى فى واقعها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بطباعهم وأخلاقهم، فيحاسن الكبراء دون إسفاف، ويجتنب مخاشنتهم، تفاديا لشرهم، ويحلم عن الأشرار طبعا وتطبعا، ويبتعد عن الحاسدين للتخلص من شرهم. وكان يحب اللهو وسماع القيان والمغنين، لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سدى[1]. وكان فكها يحب النكتة، ويتطلبها، حتى فى أقدس المواقف وأوفر المواضيع خطرا وأهمية، وله ولوع شديد بالضحك والإضحاك،، فمما يدل على اهتمامه بالضحك واستحسانه له قوله: «ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك، وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى: كأنه يضحك ضحكا، وقد قال الله جل ذكره: وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيى، فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمن على خلقه بالنقص، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما، ومن مصلحة الطباع كبيرا، وهو شىء فى أصل الطباع، وفى أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي، وقد تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه، الذى هو علة سروره ومادة قوته، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك

---

(١) الجاحظ: حنا الفاخورى ص ٢٠

وبسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي ﷺ وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، . . . . .[1] وقد ذكر أيضاً أن من فوائد الضحك أنه يساعد على هضم الطعام[2] . ومما يدل على ميله إلى الفكاهة مداعبته المرأة والتعريض بطولها بقوله : انزلى كلى معنا . وجاءه يوماً بعض الثقلاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها . فقال : نعم : فقال : إذا قال لى شخص : يازوج القحبة ، ياثقيل الروح ، أى شيء أقول له ؟

قال : قل له : صدقت ![3]

وكان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجاءوا بفالوذجة ، فتولع محمد بأبى عثمان الجاحظ ، وأمر بأن يجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتنظف مابين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ! فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً[4] .

ومن فرط شغف الجاحظ بالفكاهة أنه كان يخالط أهل الهزل ، ويروى من النوادر ولو على نفسه كقوله : « فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فإنى خرجت أمشى فى المبارك[5] أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فمررت فى عشب أشب ، ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفى ، فطردته ، فلم أقدر ، فتحول إلى عينى فطردته ، فعاد إلى موق عينى ، فزدت فى تحريك يدى ، فتنحى عنى بقدر شدة حركتى ، وذبى عن عينى ولذبان الكلا والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عاد إلى ، فعدت عليه ، ثم عاد إلى ،

---

(١) كتاب البخلاء ص ٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٨ .
(٣) أدب الجاحظ للسندوبى ص ١٦٩ .
(٤) المرجع السابق ص ١٧١ .
(٥) أى مبارك الإبل .

فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد ، استعملت كمى ، فذببت به عن وجهى ، ثم عاد وأنا فى ذلك أحث السير ، أؤمل بسرعتى انقطاعه عنى، فلما عاد ، نزعت طيلسانى عن عنقى ، فذببت به عنى بدل كمى ، فلما عاود ، ولم أجد له حيلة استعملت العدو ، فعدوت منه شوطاً تاماً لم أتكلف مثله منذ كنت صبياً ، فتلقانى الأنداسى ، فقال لى : مالك يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟

قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع الذبان على فيه سلطان ! فضحك حتى جلس ، وانقطع عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جداً ! (ونلاحظ النكتة فى استعماله السجع فى نهاية نادرته : الذبان على فيه سلطان) .

الجاحظ الساخر :

عرفنا شخصية الجاحظ ، ورأينا إلى أى حد كان مشوه الصورة : فجحوظ عينيه ، وسواد بشرته ، وقصر قامته : كان كل ذلك يلفت الأنظار إليه ، كذلك فإن شعوره بالنقص لإحساسه بأصله البسيط ونشأته الفقيرة كل ذلك قد بث فى نفسه الشعور بالنقص ، ومن ثم فقد حاول أن يعلو بنفسه عن ذلك الدرك الأسفل الذى ولد فيه ونشأ . وقد اكتشف فى نفسه ـ منذ الصغر ـ ميله إلى الاطلاع والقراءة ، ميلا جعله يصبر على أن يحبس نفسه الزمن الطويل فى القراءة ، تلك الوسيلة التى كانت تدفعه دفعاً إلى التفوق ، وكما أنه تنقل بين معارف شتى ، فكذلك أخذ يختلط بأناس كثيرين فى عصره : ينتقل من طبقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، زد على ذلك أنه عمر دهراً طويلا، فكان لا يمر عليه يوم إلا ويزداد فيه معلومات ، ويمتلىء فيه بالتجارب ، ويكتشف رويداً رويداً متناقضات الحياة التى يحياها الإنسان : أولها ذلك الحظ الذى لا يسير بين الناس بالمنطق الذى يرضاه العقل الإنسانى: فآناً يرفع من لا يستحق الرفعة ولا يطمح إليها، وآناً آخر يهبط بمن يريد الارتفاع..كل ذلك

قد ولد فى نفسه العجب والدهشة والتفكير الطويل من تلك المتناقضات التى مالبث أن ابتسم لها، ثم بدأ يوطن نفسه على ألا يهتز لها اهتزازاً عاطفياً أو ينفعل بسببها، بل حسبه منها، وحسبها منه أن ينظر إليها نظرة السخرية، وتلك دائماً خاتمة مطاف كبار الفلاسفة والمتأملين. فى تلك الحياة العجيبة المتناقضة، وفى ذلك الزمن الملىء بالمفاجآت والغرائب! ولعله قد ورث الاستعداد للسخرية عن تلك الأم التى سخرت به منذ صغره حينما تعبت فى محاولة ثنيه عن القراءة، والانكباب على الاطلاع إلى عمل يكسب منه قوته، فقدمت إليه ساخرة — لما طلب منها طعاماً — طبقاً عليه بعض الكراريس!

وإذا به يرد عليها بنفس الأسلوب، حينما خرج مغتما، وجلس فى الجامع، فعرف قصته موسى بن عمران، فأعطاه خمسين ديناراً فاشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمالون إلى داره، فلما أنكرت الأم ذلك وسألته عن مصدره، قال: من الكراريس التى قدمتها إلى[1].

وقد بلغت به السخرية حداً جعلته لا يأبه أن يروى عن نفسه استبشاع جارية منظره واصطحابها إياه إلى صانع لكى يرسم لها صورته — صورة عفريت — على خاتمها! أو أن يعترف برفض المتوكل مجالسته، ومنحه بعض الدنانير، تطييباً لخاطره مع أن هذا الخليفة قد تمنى رؤية أبى العيناء الأعمى! ومن كانت هذه حالته وتلك طبيعته، فلا عجب أن يمتزج به المجون والفكاهة امتزاجاً يجعله يعبث بكثير ممن صادفهم فى حياته[2]. ولعله قد اتخذ هذا الأسلوب فى الحياة ترويحاً عن نفسه لما شعر به من محاولة التضييق عليه ممن كانوا يحسدونه حسداً جعله آنا ينسب كتبه إلى غيره كما اعترف غير مرة — مع

---

(١) أحمد بن يحى بن المرتضى: ذكر المعتزلة طبعة حيدر آباد ص ٣٨.

(٢) انظر الحيوان ٣ / ١١٢، ١٠١.

أن النتاج الفنى كالولد ، يعز على الإنسان نسبته إلى غيره ـ وآناً آخر يحاول أن يداريهم و يصانعهم ومرة ثالثة يؤلف رسالة عنهم .

ومما يروى عن تماجنه وسخريته أنه قال ما جنا ســـاخراً بنفسه : نسيت كنيتى .

ولا شك أنه عرف ما يدور حول الوظائف الكبرى من حسد ودس ووشايات ـ وهو رجل لا قبل له باحتمال ذلك ـ ولهذا فقد رفض ذلك المنصب الخطير الذى عرضه عليه المأمون ـ رئاسة الكتاب ـ ولم يمكث فيه إلا ثلاثة أيام ، خوفاً من الحاسدين من جهة ، ولحبه للحرية وانطلاقه فى ذلك الجو الذى طبع عليه وخلق له : وهو التحلل من القيود التى يتقيد بها الناس لما تفرضه عليهم طبيعة وظائفهم ، وميله إلى النقد المستمر ، وخصوصاً النقد الساخر الذى طبع عليه ولا قبل له بمفارقته أو انتزاعه من نفسه[1] ومن عبثه الساخر ـ الذى يدل على حبه لهذا الأسلوب دائماً ـ تلك القصة التى رواها ابن عساكر فى تاريخه وهى : دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجمـــلة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأيى وينفذ أمرى ويواتر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمنها . . . . . . ثم أصبر على هـــذا حتى يأتى الله بالفرج !

فقال له الرجل . الفرج ما أنت فيه . قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج[2] ! فهو يتكلم بهذه العبارات تماجنا كعادته ، مصورا طموحه الذى لا يستحق منه إلا السخرية . . . ومن الطبيعى أن يقول تلك العبارات وهو

---

(١) شفيق جبرى : الجاحظ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢

يعرف تمام المعرفة ويعرف الناس معه أنه يقولها على سبيل السخرية ، وإلا لما استطاع أن يتفوه بها ، وأن تشيع عنه فيتحدث بها فى مجالس الخليفة وابن الزيات ، وإلا لدهدمت الأرض من فوقه جزاء هذا التهور ! وهو يشبه فى سخريته بنفسه الممثل الساخر « نجيب الريحانى » حينما سأل الأطباء - وهو على فراش المرض - عن اسانه لكى يطمئن على صحته - بعد فحصه - فلم يجيبوه خوفا عليه من التأثر ، وإذا به يقول لهم ساخرا: « أنا عارف إنه وسخ وطول عمره وسخ ! » وعما يدل على عبثه - مع أنه أصبح كبير الكتاب - عبثه بأبى العيناء حينما أمر إلى حاجبه بألا يدعه يخرجه ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فلما خرج أبو العيناء من بين يديه ، وصار فى الدهليز حجزه وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته . يا أبا عثمان ، قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك[٢] . ومما يدل على ذلك قصصه التى رواها عن نفسه[٣] .

وقد لبس الجاحظ لباس الساخر حتى فى تأليفه الذى لا يتصل بذلك ، إذ كثيرا ما يؤلف الكتاب مدحا فى قوم أو رأى أو مذهب من المذاهب ثم يؤلف الآخر فى مدح أعداء هؤلاء القوم أو تحبيذ الرأى أو المذهب المخالف لما مدح أو أثنى عليه ، وهو فى الحقيقه لا يمدح أو ينقض مدحه ، لأن غايته من وراء هذا وذاك هو العبث بكل تلك الطوائف المتعددة فى الحياة والتى تتناحر على شىء لا يستحق التناحر ، وتتفاخر بأشياء لا تستحق أن يفتخر بها ، ومن أجل هذا عابه ابن قتيبه - عصبية عليه وكراهية له - إذ قال :

---

(١) أنظر نوادر أبى العيناء للمؤلف .

(٢) أنظر أدب الجاحظ للسندوبى ص ١٧٠ ، ١٧١ ورسالة البخلاء ص ٦٠ ، ٦١ ، ٩٤ من نشرة الحاجرى طبعة المعارف سنة ١٩٥٨

وتجده فى كتبه يتصدى للمضاحيك والعبث[1] وفطن المسعودى إلى ذلك فقال: «ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب - وهو كتاب الاحتجاج للراوندية - ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية - وهم شيعة ولد العباس - لأنه لم يكن مذهبه، ولا كان يعتقده، لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا[2]» ويقول أيضا: «وقد صنف أيضا كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه، وأيده بالبراهين، وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله، ترجمه بكتاب العثمانية يحل فيه عند نفسه فضائل على ومناقبه، ويحتج فيه لغيره طلبا لإماتة الحق ومضادة أهله ... ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم[3]».

وهكذا نرى الجاحظ لا يأبه بما يدور حوله من تطاحن الناس فيعبث بهم، منحازا أو متظاهرا بأنه ينحاز إلى تلك الطائفة مرة، ثم إلى ضدها مرة أخرى، وإذا عرفنا هذا، عرفنا السبب فى تأليفه الكتاب وعكسه، كما نراه يؤلف كتابا فى ذم أخلاق الكتاب وآخر فى مدحهم! ولعل الذى ساعده على ذلك حبه أو غرامه بالجدل والحجاج الذى اكتسبه من طول دراسته لعلم الكلام، وكذلك لطبيعته التى تميل إلى شىء قليل أو كثير من التحلل من القيود والاستمتاع بملاذ الحياة وأطايبها، ولم يكن يتورع - زيادة فى الواقعية - أن يذكر ألفاظ العورات والفعل الجنسى أو العملية الجنسية كقوله: أربعة أشياء ممسوخة: أكل الرز البارد، ... فى الماء، والقبل على النقاب، والغناء من وراء الستار[4] ولعل كثيرا من أعدائه قد شكوا

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٧

(٢) مروج الذهب ٢/١٦٨ (٣) المرجع السابق ٣/١٢٠

(٤) أدب الجاحظ للسندوبى ص ١٧٥ وانظر رسالته مفاخرة الجوارى والغلمان فى أكثر من موضع.

فى عقيدته لمثل هذه العبارات ولعدم تأدية الفرائض ومنها الصــــلاة ، ولمـا أخذوه عليه من صفة « الوضع » فى الحديث وقد اعترف أبو العيناء بأنه وضع هو والجاحظ حديث فدك(١) .

والحق أن طبيعة ميله إلى « الوضع » التى سرت فى دمه وروحه ليست لها غاية دينية وضيعة - كالشعوبية وغيرهم - بل هى طبيعته الأدبية التى يساعد عليها ويخلقها جموح الخيال وحب الفن الذى يجعله لا يأبه ، ذلك بالحقائق - كما يراها الناس - أحياناً(٢) . قال الدكتور طه الحاجرى : « والجاحظ لم يكن يتحرج - لغاية فى نفسه - من أن يكتب الكتاب ، ثم ينسبه إلى غيره ، وما كانت هذه الغاية إلا نوعا من العبث بخصومه ، أو الرغبة فى إذاعة ما يكتبه وترويجه ، ومثل هذا لا يبلغ مبلغ ذلك الحافز الفنى الذى يحفزه إلى وضع الأحاديث إرضاء لتلك النزعة الغالبة عليه(٣) » وسنتكلم عن وضع الأحاديث وغيرها حين الكلام عن كتاب « البخلاء(٤) » .

سخر الجاحظ :

وقد سخر الجاحظ - أول ما سخر - من أصدقائه ، حتى قال السندوبى : « وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان تارة بالتلميح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السمات ، فقيد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم . . وعرض

(١) مقدمة نوادر أبى العيناء الطبعة الأولى ص ١٢

(٢) وجاء عنه فى جمع الجواهر للحصرى ص ١٢١ « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديرا على الشعر »

(٣) البخلاء (طبعة المعارف) سنة ١٩٥٨ ص ٢٨

(٤) انظر ص ١٦٥ من هذا المبحث .

لأخذهم بأغلاطهم وفلتات ألسنتهم ومساوىء أعمالهم ، وقد يجابه من شاء منهم بالنقد واللذع والتجريح غير عابىء بعتبهم ولا معتد بلائمتهم[١] » .

وإننا نستطيع أن نقسم نقد الجاحظ وسخريته من ناحية الموضوع إلى تلك الأقسام :

أولا : نقده الأحاديث الموضوعة ورفضه الخرافات وتفسير بعض آى القرآن بها ، وذلك لأنه عالم معتزلى مدقق لا يستمع إلا لصوت العقل وحده .

ثانيا : انتقاده العيوب الشائعة فى عصره وعلى رأسها التطفيل والبخل واللصوصية .

ثالثاً : انتقاده بعض الطوائف كالقضاة والمعلمين .

* * *

أولا ـ التفسير والخرافات :

ولتحكيمه العقل ، فقد خرج عما يعتقده الجمهور فى تفسير بعض الآيات كنقده تفسير رؤوس الشياطين بثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه[٢] أو تفسير « وطلح منضود » أن الطلح هو الموز[٣] . وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة ، فقال : « وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفار ، وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٠٠ . (٢) الحيوان ٦/٦٤ .
(٣) الحيوان ١/١٦٨

وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ؛ فكفاهم مؤونة الجرذان ؛ ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح زوج خنازير ؛ فكفياهم مؤونة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص[1] .

ويظهر تهكم الجاحظ ببعض المفسرين من مجرد ذكره لتفسيرهم ، ومن هذا النوع قوله على لسان كيسان تعليقا على قول المفسرين السابق : « فينبغى أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها[2] » .

قال شفيق جبرى : « للجاحظ أسلوب فى التهكم على بعض أهل التفسير والتأويل بسيط جدا ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء والسخرية ، فهو يدس هذا التهكم دساً دون أن يظهر على بيانه ، فبدلا من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضا ، ويجادلهم جدالا ، يكتفى فى أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم والإشارة إلى مذاهبهم ولكن هذه الإشارة مهما تكن خفية ، ومهما تكن رمزا ، لا تخلو من روح التهكم ، فبينما الجاحظ مثلا يمضى قوله فى باب من أبواب العلم ، كباب ما يعترى الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء ، وبينما يفيض فى هذا الباب فى أمور علمية ، إذ يعرض له رأى من الآراء التى لا يؤيدها العلم ، فيكتفى بالتنبيه عليه (كقصة خلق السنور لتأذى أصحاب نوح بالفأر) ثم يردف هذا القول كلامه على لسان كيسان (الذى ذكرته آنفا[3]) أن مجرد ذكره لأشباه هذه الآراء فى أثناء بحثه عن أمور مبنية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزا ؛ فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب ، وإنما يكفى نفسه مؤونة هذا الطعن بتركه

---

(١) الحيوان ١٠٦/٥ وانظر ١٤/٦ ، ١٥٣/٥ ، ١٦٢/٦ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/١ .

(٣) الجاحظ لشفيق جبرى ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥

للقارىء حق الحكم على مثل هذه الآراء ؛ وهذا الأسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق . فإن الجاحظ لا يتزلى فيه التشنيع والتهجين ، وإنما يجر القارىء جرا إلى هذا التشنيع وإلى هذا التهجين(١) .

ثانيا : العيوب العامة :

١ — كتاب البخلاء

موضوع الكتاب :

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال قبل قراءة الكتاب وبعده : إلى أى حد تتفق الأخبار التى أوردها الجاحظ عن البخلاء مع الواقع ؟

إنه يروى تلك الأخبار فى كثير من الأحيان عن بعض من عاصرهم كشاهد عيان أو بطريق رجال آخرين : كما قال فى أحد المواضع : « وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحوى ، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان ... الخ » ، ويضرب مثلا للنوع الآخر من الرواية : « وحـــدثنى صاحب لى قال . . . » ، وفى موضع آخر من الصفحة نفسها : « وحدثنى صاحب مسلحة باب الكرخ قال .... » وفى بعض الأحيان لا يسمى من يحدثه كالمثالين السابقين ، وفى كثير من الأحيان يسمى من ينقل إليه الخبر كقوله : « حدثنى أبو الجهجاه النوشرانى قال . . . »(٤) ، وهناك كثير من هذه الأسماء حاول محققو البخلاء وآخرهم الدكتور الحاجرى معرفة أشخاصها فلم يوفقوا : إما لعدم اهتمام المعاصرين لهم بالكتابة عنهم ، وإما لأنهم أشخاص وهميون

(١) انظر الحيوان ٤/٩٩ . (٢) البخلاء (دار المعارف) ص ٥٤
(٣) المراجع السابق ص ٤٤ (٤) المرجع السابق ص ٤٥

اختلقهم الجاحظ اختلاقاً كما شك فى ذلك الدكتور الحاجرى بصدد شخصية « أبى الفاتك » و « الثورى » وغيرهما[1].

ومهما يكن الأمر فى مدى صدق الجاحظ فى تلك القصص والأخبار التى ينسبها إلى المعاصرين له والسابقين عليه سواء رآها حقا أو سمعها ممن كان يجلس إليهم أو نقلها عما قرأ ، مهما يكن الأمر فى ذلك ، فإن هذه الأخبار أو القصص قد كتبت - ولا شك - بأسلوب الجاحظ ، وحتى ما يمكن أن يكون قد رواه عن أهل عصره بلسانهم حقيقة - فلا شك أنه قد بدل فيه التبديل الذى يخضعه لأسلوبه أو الذى يجعله طيعا لقلمه ، فيصهره ثم يلونه كما يشتهى : والدليل على ذلك أمران :

أحدهما عدم الاختلاف بين أسلوبه فيما قاله بلسانه ورواه فى البخلاء وغيره من الكتب التى صنفها ، وعما رواه ونسبه إلى أحد معاصريه ، كسهل بن هارون فى رسالته وكابن التوءم فى رده وفى تحامله على البخلاء .

ثانيهما : عندما عرضت الأحاديث النبوية التى استشهد بها الجاحظ - وهى كثيرة تربو على المائة - وجدته لا يرويها بلفظها غالبا - وأعنى بها كما دونت فى كتب الأحاديث الصحيحة - بل يخضعها لقلمه ، ومن كان هذا شأنه فى أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأولى به أن يصوغ ما يرويه حسب هواه ، أو بعبارة أخرى تبعا لروحه واستجابة لغرضه فى التحدث عن البخلاء والرواية عنهم .

وللتدليل على ما قلناه عن أسلوبه - الذى يكاد ينساب فى كتاب البخلاء من أوله إلى آخره - أنه يمتاز بعدة ميزات لا يكاد يخلو منها موضع فى الكتاب : وأظهر هذه الميزات التى لا تخفى على فطنة القارىء العادى

---

(١) انظر ص ٦٧ ، ١٠٠ ، ١١٢ من البخلاء .

ولوعه بتشقيق الكلام أو الخروج من جملة إلى جملة منشقة عنها وتتبعها هكذا الجمل التوالى لها : فهو فى كتاب الحيوان ، يحاول أن يعدد مساوىء الفارة ، فبدلا من ذكرها فى جملة أو اثنتين أو عدة جمل ، فإنه يستفيض فى ذلك لسعة خياله ومحاولة الإحاطة أو الشمول بذاكرته الغزيرة للموضوع وبذلك تتدفق المعانى عليه فى إطناب غريب فيقول فى معرض التهكم بزرادشت وفى اعتقاد المجوس بمساوىء الفأر :

« ويزعم زرادشت - وهو مذهب المجوس - أن الفارة من خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان - وهو إبليس - وهو أهرمن ، فإذا قيل له : كيف تقول ذلك ، والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح ، فتحرق[1] بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرباض الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال ، وتقرض دفاتر العلم ، وكتب الله ، ودقائق الحساب والصكاك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غربالا ، وتقرض الجرب ، وأوكية الأسقية ، والأزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع فى الآنية وفى البئر ، فتموت فيه ، وتحوج الناس إلى مؤن عظام ، وربما عضت رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضتها ، والفأر بخراسان ربما قطعت أذن الرجل ، وجرذان أنطاكية تعجز عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم ، وكرهها آخرون لمكان جرذانها ، وهى التى فجرت المسناة ، حتى كان ذلك سبب الحسر بأرض سبأ ، وهى المضروب بها المثل ، وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب ، والعرم المسناة ، وإنما كان جرذا ، وتقتل النخل والفسيل ، وتخرب الضيعة ، وتأتى على أزمة الركاب والخطم ، وغير ذلك من الأموال . . . . الخ[2] .

(١) هنا يبدأ فى تشقيق الكلام أو فى تعديد النتائج المختلفة المترتبة على الحريق .

(٢) الحيوان ٤/٩٩

ونجد من هذا الضرب الذى ذكرنا من كتاب الحيوان ، مثيله حينما يتحدث عن الضحك وفوائده فى أول البخلاء :

« وإذا كان البكاء - وما دام صاحبه فيه فإنه فى بلاء ، وربما أعمى البصر ، وأفسد الدماغ ، ودل على السخف ، وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبه بالأمة اللكعاء ، وبالحدث الضرع كذلك . فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى : كأنه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى » فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته »[1] .

وهكذا نرى أسلوب الجاحظ - على ألسنة البخلاء - يكثر فيه من الاحتجاج المنطقى ، ومن العناية بكثرة إيراد الشواهد عن المتأخرين من حكماء وشعراء أو الأحاديث النبوية الشريفة من غير عناية كبيرة بتحقيقها وتخير القوى منها والابتعاد عن المشكوك فيه أو المضعف أو الثابت أنه موضوع عقلا أو بمجرد النظر إليه نظرا بسيطا[2] . وكذلك يلاحظ على أسلوبه الذى يستخدم فى الحكاية عن البخلاء أو النطق به على ألسنتهم نلاحظ عليه العناية بأسلوبه الأدبى الرفيع ، حتى ما يحكيه عن أناس لا يظن بأنهم

---

(١) البخلاء (طبعة دار المعارف) ص ٦

(٢) المرجع السابق

فى كلامهم ونوادرهم الشعبية التى تقال بديهة يعنون بهذا النوع من الترف اللفظى والتأليف القوى بين الجمل أو الاستطراد فى إيراد المعلومات المختلفة من تاريخيه وجغرافية وطبيعية (فيزيقية) وحيوانية وفلسفية وغيرها مما يدل دلالة واضحة على عمل الجاحظ الذى ألفها : ذلك العقل الفلسفى الممتاز الذى استوعب جل ما كان فى عصره من معلومات وعلوم .

* * *

وبعد ذلك نحاول أن نسأل أنفسنا : ما السبب فى تأليف كتاب البخلاء ؟ يحاول الجاحظ أن يجيب عن هذا السؤال فى أكثر من موضع فى ثنايا الكتاب : فهو يبدأ كتابه ببيان السبب : وهو أن أحد الناس طلب منه تأليف ذلك الكتاب بعد أن أفاد من كتابه السابق « حيل لصوص النهار ، وحيل سراق الليل » فحاول أن يذكر « نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحا ، والراحة جماما »[1] ، وأغلب الظن أن هذا السبب قد اختلقه الجاحظ اختلاقا ليصدر به الكتاب ، لأن البخلاء ليسوا إلى هذا الحد من الخفاء عن أعين الناس أو ضمائرهم أو بصائرهم حتى يحاول الجاحظ أن يكشفهم للناس فيتجنبوهم ويتقوا شرهم ، كذلك فليس البخل شيئا مما يتعلم أو يمكن تجنبه أو اتباعه والتطبع به : إذ أنه غالبا ما يكون طبيعة فى بعض النفوس التى تكون ذات استعداد فطرى خاص للتطبع به ، وينتج عن عوامل وراثية بيئية تتصل بالمجتمع الصغير وهو الأسرة وبالمجتمع الكبير الذى يضم آلاف الأسر فى الوطن الواحد الذى تتحكم فيه تيارات اقتصادية خاصة : وهكذا نرى أنه ليس من الصعب أن يدرك الإنسان بقلبه السليم وبفطرته أن هذه

---

(١) ص ٦ من البخلاء (طبعة المعارف) .

المقدمة لا يقصد بها شخص معين يقدم له الكتاب بها ، وإلا فليس من المتعذر ذكر اسمه ، بل هى محاولة إخفاء غرض من تأليفه إخفاء ما وفى شيء من التماجن ، لئلا يلام الجاحظ اللوم الكبير على محاولة السخرية من البخلاء وكشفهم للعيان ، وقد أوما إلى شيء من ذلك فى موضع من الكتاب بقوله : « ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين فى شيء ، أما الصاحب فإنا لانسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لانسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله ، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيرا ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شينه »[1] .

وبالإضافة إلى ماسبق ، فنرى الجاحظ قد أوما إلى أحد أسباب تأليف هذا الكتاب وهو الهزل الذى أفاض فى الكلام عليه فى مقدمة الكتاب ، وهو مايعبر عنه — كما يفهم من كلامه تلميحاً — التعبير العلمى أو العصرى بالسخرية من هؤلاء ، لكى يضحك منهم المجتمع من جهة ، ولكى يحذر من تحدثه نفسه بالائتمام بهم ، والسير على منهاجهم من جهة أخرى .

وأغلب الظن أن السبب الرئيسى فى تأليف هذا الكتاب سبب شخصى : إذ أن الجاحظ يروى كثيراً من نوادر كتابه على أنها قد حدثت أمام سمعه وبصره وقد صدرت عن أصحابها الذين حينما كان يحضر مجالسهم كما حدث بينه وبين محفوظ النقاش حينما يختم ملاحظته على بخله بقوله « فما ضحكت قط كضحكى تلك الليلة »[2] . وكذلك ما يحكى عن أبى الهذيل[3]

---

(١) البخلاء ص ٥٧ .

(٣) البخلاء ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) البخلاء ١٣٥ ، ١٣٦

ولذلك قال فى أحد مواضع الكتاب : « هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا ، وما رأينا بعيوننا »[1] ومما يدل على ضيقه بالبخلاء وعلى أنه كان يعانى منهم ما يحكيه قوله : « وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شىء »[2] .

وفى أحيان أخرى يضيف هذه النوادر إلى بعض الأشخاص المجهولين ، ويزعم أنهم رأوا ما رأوا ، وقصوا عليه ذلك كقوله : « ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر » ، « حدثتنى امرأة تعرف الأمور » وبمحاولة البحث عن هؤلاء الأشخاص كأحمد بن خلف ، والباسيانى لا نجد لهم ذكرا فيما بين أيدينا من مراجع : فإما أنهم أشخاص غير حقيقيين اخترعهم اختراعا كطريقته فى وضع الشعر والأخبار والأحاديث ، وإما أن أكثرهم وهميون وبعضهم حقيقيون أهملهم التاريخ ولم يعن بذكرهم .

ويمكن أن نقول فى شىء من الاطمئنان إن السبب المباشر لتأليفه هذا الكتاب هو سخريته من هؤلاء البخلاء الذين حضر موائدهم أو رأى أحوالهم المضحكة فأراد الانتقام منهم لفرط حساسيته من جهة ، ولروحه الفكهة Sesne oF Humour من جهة أخرى ، فألف هذا الكتاب لأن الأديب الحق لابد وأن يكون قوى الحساسية ، وإذا أحس فلابد له أن يعبر ، وإذا عبر فلا غضاضة من أن يطلق لخياله العنان ، وأن يترك طبيعته على سجيتها ، حتى تنتج له ما يخفف عنه ما يحس به ، وما يرضى به تلك الطبيعة الفنية الخلاقة التى يسخر بها من البخل والبخلاء بعامة ، ومن بعض البخلاء بخاصة دون التعرض لذكر الأسماء كقوله : وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم ، وإما بالإكرام لهم »[3] .

---

(١) البخلاء ص١٤٨

(٢) المرجع السابق ص٥٨

(٣) المرجع السابق ص ٨

أما طريقته فى ذلك فهى متعددة الجوانب :

فهو آنا يتحدث عن أهل بلد بعينه اشتهروا بالبخل كأهل مرو (المراوزة) والمسجديين من أهل البصرة .

وآنا آخر يتحدث عن بعض البخلاء المشهورين بذلك كزبيدة بن حميد وأحمد بن خلف وسهل بن هارون .

وآنا ثالثا لا يذكر أسماء ، بل يسوق مجرد نوادر أو تشنيعات (كما يسمى الآن) لا يضيفها إلى أحد ، بل حسبه أنها حول البخل والبخلاء .

وأكثر بخلاء الجاحظ من أهل عصره ، ونادرا ما يذكر بخلاء سابقين ، كذلك الذى روى عن ابن المقفع ، وبعض الخلفاء الأمويين كمعاوية وهشام ابن عبد الملك .

وأكثر بخلائه ومعظمهم يبخلون بطعامهم ، وهذه هى الناحية الغالبة على البخلاء فى جل مواضيع الكتاب .

وفى بعض الأحيان لا يخصص الفصل من كتاب لبخيل واحد بل يستطرد بذكر نوادر بخيل آخر ، كما قال بعد أن أورد عن تمامة نادرة فى نهاية الحديث عن المراوزة ، « وليس هذا الحديث من حديث المراوزة ولكننا ضممناه إلى ما يشاكله[١] » ، « وليس هذا الحديث لأهل مرو ، ولكنه من شكل الحديث الأول[٢] » .

وفى بعض الأحيان يوجز فى إيراد النادرة : كتلك التشنيعة التى يرويها عن المراوزة ويفتتح بها الحديث عنهم[٤] . وفى بعض الأحيان يطيل حتى تستغرق القصة الصحيفتين .

---

(١) البخلاء ص ٣٨ .

(٢،٣،٤) المرجع السابق ص ١٧

والجاحظ يحاول فى هذا الكتاب أن يظهر بعض أخلاق البخلاء ومن أظهرها : الجبن والرضى بالذل[1] .

وأخيرا فمن أطرف ما جاء فى هـــذا الكتاب أربع رسائل وضعها الجاحظ وضعا : إما أسلوبا فحسب ، وإما أسلوبا وأفكارا وموضوعا .

* * *

كيفية السخرية فى كتاب البخلاء :

وقد ظهرت السخرية فى كتاب البخلاء جلية واضحة ، ولو أنه حاول أن يخفيها إخفاء . فتظاهر بأنه إنما يروى نوادر ووقائع حدثت وأن دوره فى الكتاب هو دور المصنف أو جامع النوادر ، وأن ليس له من هدف إلا مجرد تسلية القارىء ببعض ما يضحك : وقـــد ظهر عبث الجاحظ بالبخلاء وأنه كان يقصد قصدا إلى الاستهزاء بهم وجرهم إلى أن يتكلموا لكى يضحك منهم ملء فمه فى عدة مواضع من الكتاب فعبث مرة بالحزامى وأخذ يثيره بقوله ساخرا : أعلمت أن خبز البلدى ينبت عليه شىء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : حبذا ذلك من خبز ! وليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار[2] وسخر منه مرة ثانية قائلا :

استسلف منه علىّ الأسوارى مائة درهم ، فجاءنى وهو حزين منكسر . فقلت له : إنما يحزن من لا يجد من إسلاف الصديق ، مخافة ألا يرجع إليه ماله ولا يعد ذلك هبة له . أو رجل يخاف الشكية ، فهو إن لم يسلف كرما ، أسلف خوفا ... إلخ .

قال : اللهم غفرا ! ليس ذاك بى . إنما بى أنى قد كنت أظن أن أطماع الناس

---

(١) ص ٦١ ، ١٤٧ من البخلاء .

(٢) البخلاء ص ٦٠

قد صارت بمعزل عنى وآيسة منى ... إلخ (وهكذا أخذ يصوغ العبارات على لسانه تدل على فرط بخله[١]) .

وقال لمحمد بن أبى المؤمل : أراك تطعم الطعام وتتخذه ، وتنفق عليه المال وتجوده . وليس بين قلة الخبز وكثرته كثير ربح . والناس يبخلون من قل عدد خبزه ، ورأوا أرض خوانه ، وعلى أنى أرى جماجم من يأ كل معك أ كثر من عدد خبزك ... إلخ .

فرد عليه قائلا :

قال : يا أبا عثمان ، أنت تخطىء ، وخطأ العاقل أبداً يكون عظيما ، وإن كان فى العذر قليلا ... إلخ[٢] .

وللجاحظ طرق فى السخرية بالبخلاء بأساوبه على لسانهم :

١ — التصوير المضحك :

فقال على لسان الحارثى يدافع عن كرهه دعوة الناس لتناول الطعام على مائدته :

« هذا على الأسوارى ، أ كل مع عيسى بن سليمان بن على ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة ، فائقة السمن ، فخلط بطنها جلطة ، فإذا هو يكتنز شحما وقد كان غص بلقمة — وهو المستسقى — ففرغ من الشراب ، وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة . وكان عيسى ينتخب الأ كلة ، ويختار منهم كل منهوم فيه ومفتون به . فلما خاف على الأسوارى الإخفاق ، وأشفق من الفوت وكان أقربهم إليه عيسى - استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى وانكدار العقاب ، من غير أن يكون أ كل عنده قبل مرته . فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها إليه ، وشحا لها

(١) البخلاء ص ٦٠ (٢) ص ٩٤ من البخلاء .

فاه ، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة . قال : لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذالك . ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدى فى مقدم الشحمة ، ووقعت يده فى مؤخر الشحمة معاً ، والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معاً ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شىء فى لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتى ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر »(١) .

فهذا وصف مضحك ملىء بالتهكم الخفى من الجاحظ إزاء هذا البخيل الذى يصوره الجاحظ ثائرا على هذا الطاعم الجشع الذى أكل مع عيسى ابن سليمان ، ويحاول الجاحظ أن يصفه ـ على لسان الحارثى ـ وصفاً دقيقاً كأنه ـ أى الحارثى البخيل ـ كان ينظر طوال تناول الطعام إلى كل لقمة يأكلها على الأسوارى ، وإلى كل حركة يقوم بها ، ومن هنا يكمن التهكم وتنبع السخرية ، كذلك حينما يتحدث بلسانه مستخدما بعض الألفاظ المضحكة والحركات المثيرة مثل : فخلط بطنها جلطة ، كان عيسى ينتخب الأكلة ، كل منهوم فيه ومفتون به ، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى (وهذه الجملة تدل وتومىء إلى شدة بخل القاص من جهة وإلى هزء الجاحظ من جهة أخرى) ، وكم هو ساخر مضحك حينما يصف فى النهاية كيف استلب اللقمة من يد الأمير ، ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدى فى مقدم الشحمة ، ووقعت يده فى مؤخر الشحمة معاً ، فلما رفعنا أيدينا معاً كنت أنا أسرع حركة . . . . فتحول كل شىء كان فى لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتى . . . . » .

ويصف آكلا آخر نهما على لسان أبى فاتك قائلا ـ ولا يملك الإنسان نفسه من الإغراب فى الضحك من البخيل مرة ، ومن الجاحظ الساخر واضع هذا الكلام مرة أخرى :

---

(١) ص ٦٩ من البخلاء .

وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا ، فبلع ضرسه وهو لا يعلم ! (وهذا من تشنيعات الجاحظ) فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليم وكان إذا أكل ذهب عقله ! وجحظت عينه ! وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى . ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمراً إلا استفه سفاً ، وحساه حسوا ، وزدا به زدوا ولا وجده كنيزا إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ، ويقلها من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضاً ورفعا وخفضا ، حتى يأتى عليها جميعاً ، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث . ولم يفصل تمرة قط من تمرة . وكان صاحب جمل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعاً ، ولا نفى عنه قشرا ، ولا فتشه مخافة السوس والدود . ثم ما رأيته إلا وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان صاحب طائلة . وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور !

وهكذا يصور الجاحظ البخيل - بطريق غير مباشر - تصويرا ساخرا عن طريق إنطاقه بكل هذه الجمل المضحكة ، معبرة عن مدى غيظ البخيل ممن يأكل لديه أو على مائدته ، وهو بهذا يصور شدة حساسية البخيل ، ومن ثم مبالغته فى تصور من يأكل عنده تصورا يدفعه دفعا إلى تصويره بهذه الصور المضحكة : إذ هى تضحكنا من هذا النهم ، وتضحكنا من هذا الذى يتصوره قد أوتى كل هذا النهم : ولا يألو الجاحظ جهدا فى رسم الصورة مستخدما كل ما يستطيع من ألوان ومن قوة كامنة فى نفسه على السخر .

فمن ناحية الألفاظ يستخدم هذه الألفاظ المعبرة العنيفة التعبير مثل : نهش ، ما يعترى الطعام منه ، استف التمر سفا ، ويستخدم المفعول المطلق لتقوية المعنى الذى أراد ، ثم المترادفات : وحساه حسواً ، وزدا به زدوا . وهو حينما يصور النهم ، يصل إلى الغاية فى ذلك مصوراً إياه بأنه فقد عقله

حين هم يتناول الطعام ، فى حين أن الذى فقد عقله هو هذا البخيل الراوى لتلك القصة .

ويبالغ فى ذلك مبالغة مضحكة حتى يقول إنه ابتلع ضرسه ! « سكر وسدر وانبهر » (لاحظ الجناس القوى اللطيف بين الكلمتين سكر وسدر) وتربد وجهه ، وعصب ولم نسمع ، ولم يسمع ، ولم يبصر ، وبلغ نهاية القوة حينما قال : ما يعتريه وما يعترى الطعام منه !

ثم يستخدم التشبيه المضحك مما يدل على تحسره على طعامه الذى أكل : يتناول القطعة كجدجمة الثور ! ثم يعاملها كما يعامل الأسد فريسته : ثم يأخذ بحضنها ويقلها من الأرض .. ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ، ورفعا وخفضا ـ وهذه مبالغة فى إعطاء الصورة واقعيتها ـ ويتفكه فيقول : وكأنه صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ! وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم ، أو جائع مقرور[1] !

ويقول على لسان الثورى ناسبا إليه هذا المثل المعروف : « وكان يقول : كلوا الباقلى بقشوره ، فإن الباقلى يقول : من أكلنى بقشورى فقد أكلنى ، ومن أكلنى بغير قشورى فأنا الذى آكله ! فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاما لطعامكم ، وأكلا لما جعل أكلا لكم ؟[2] » .

ويبلغ الجاحظ نهاية السخرية والإضحاك حينما ينطق البخلاء بحجج على فوائد أشياء تافهة ، لا يصدقها العقل كما أنطق الثورى بقوله مخاطباً أولاده :

لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه ، وخذوا حلوقكم بتسويغه ، فإن النوى يعقد الشحم فى البطن ، ويدفىء الكليتين بذلك الشحم !

---

(١) البخلاء ٧٩ ، ٨٠ (٢) البخلاء ١٠٣

فهو هنا يغالط بقوله إن النوى يعقد الشحم فى البطن ، ويبنى مغالطة على مغالطة بقوله : يدفىء الكليتين بذلك الشحم !

ثم يستمر فى احتجاجه :

«واعتبروا ذلك ببطون الصفايا وجميع ما يعتلف النوى» وهنا يربط بين الإنسان والحيوان فى محاولته - لشدة بخله - تشبيه الأول بالثانى فى قوة الاحتمال : «والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت ، لوجدتموها سريعة القبول» وهنا يبدأ الجاحظ فى هزله ومجونه على لسان هذا البخيل : وقد يأكل الناس القت قداحاً ، والشعير فريكاً ، ونوى البسر الأخضر ، ونوى العجوة ! فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة (وكأنه وجدهم قد انصاعوا له ووافقوا على ما يقول) او رغبتم فى الدفء لالتمستم الشحم ، كيف لاتطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود ؟» وهنا يبدأ فى ذكر مبالغته وبنائه مغالطة على مغالطة - وعن شناعة السكر ، وعن ثقل الغرم . والشحم يفرج القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه[1] .

ويحاول الجاحظ أن يتهكم بتمام بن جعفر ووضعه فى صورة مضحكة حينما يحاول أن ينسب ألم غريمه الذى يأكل طعامه إلى جشعه فحينما يشكو وجع ضرسه ، يرد عليه رداً مضحكاً مغيظاً قائلا :

عجبت كيف اشتكيت واحداً ، وكيف لم تشتك الجميع ؟ وكيف بقيت إلى اليوم فى فيك حاكة ؟ وأى ضرس يقوى على الضرس والطحن ؟ والله إن الأرحاء السورية لتكل ، وإن المنحاز الغليظ ليتعبه الدق ، ولقد استبطأت لك هذه العلة . ارفق ، فإن الرفق يمن ، ولا تخرق بنفسك فإن الخرق شؤم !

وهكذا يطنب الجاحظ على لسان هذا البخيل فى مخاطبة هذا النهم الذى يشكو ضرسه ، إطنابا لا يجعل مجالا للشك فى أن هذه الجمل وهذه المترادفات

---

(١) البخلاء ص ١٠٢ .

هى من أسلوب الجاحظ ومن كلامه ، أطال فيها إطالة وأطنب فيها إطنابا لكى يستجلب الضحك ، فيصل إلى غرضه من السخرية والتهكم !

ويستمر الجاحظ فى تهكمه هكذا فى قصة تمام بن جعفر حين يعدد أنواع الشكاوى التى يشكو بها صاحبه أو « نديمه » أو أنواع المزايا التى يتمتع بها كفوته على المشى قائلا : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أقوى على الحضر منى !(١).

قال : وما يمنعك من ذلك ، وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمدك ! فإن قال — بالعكس — لا والله لا أقدر أن أمشى ، لأنى أضعف الخلق عنــه ، إنى لأنبهر من مشى ثلاثين خطوة ! قال : وكيف تمشى ، وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ ! وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأى بطين يقدر على الحركة ؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود ، فكيف بالمشى الكثير ؟

وهكذا يستمر الجاحظ فى الكلام على لسان تمام بن جعفر البخيل مبكتاً صاحبه بطريقة مضحكة ساخرة تجعلنا لا نملك أنفسنا من الضحك من هذا البخيل بهذا النشق الذى يظهر فى عباراته ، تلك التى يستخدم فيها كثرة المترادفات ! وإن هذا الأسلوب ليذكرنا بطريقة ابن المقفع فى سخريته من الملك على لسان الوزير فى قصة « إيلاد وإيراخت وشادرم » التى تكلمت عليها سالفاً !(٢).

✡

٢ — ومن طريقة سخرية الجاحظ أيضاً بالبخلاء : الكلام على لسانهم بمغالطات فى الاحتجاج لبخلهم أو التعليل له بعلل مضحكة كما قال بشار :

وللبخيل على أمواله علل ∴ زرق العيون عليها أوجه سود

---

(١) لاحظ استخدام الجملة الثانية فى هذه العبارة التى تدل على أن هذا الأسلوب ذا المترادفات التى يغنى بعضها عن بعض هو أسلوب الجاحظ .

(٢) أنظر صفحتى ١١٦ ، ١١٧ من البخلاء .

أو المغالطات الجدلية ،أو المبالغة فى الاحتجاج ،أو الإطالة فيه ،أو تشقيق الكلام ،أوذكر الألفاظ الخاصة بالمصطلحات الفلسفية فى كلامهم ،أو الخروج من شرط إلى شرط آخر مبنى على سابقه .

✡

فمن تعليله لعدم ارتياحه لقبول زقاق دبس أهدى إليه قوله : أول ذلك كراء الحمال . ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل . فإذا صار إلى المنزل ، صار سبباً لطلب العصيدة والأرزة والبستندود . فإن بعته فراراً من هذا ، صيرتمونى شهرة ، وتركتمونى عنده آية . وإن أنا حبسته ، ذهب فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن (لاحظ ما توحى به لفظة جذب من خفة وتهكم) ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس أضر علينا من العيال !

وهكذا يستمر الجاحظ فى إيراد العلل المختلفة التى يعتل بها ذلك البخيل فى كراهيته لقبول الدبس هدية ، فيبنى فعلا على فعل ، ويخرج من شرط إلى شرط ، ويذكر متاعبه وتوزعه بين أنواع السلوك المختلفة التى لا يقل أحدها عن الآخر تحييراً له .

ثم يذكر فقرة أخرى مكونة من عشرة أسطر حول قلقه من جعل هذا الدبس نبيذاً :

وإن أنا جعلته نبيذاً ، احتجت إلى كراء القدور ، وإلى شراء الحب ، وإلى شراء الماء ، وإلى كراء من يوقد تحته ، وإلى التفرغ له !

فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها ، وغرمنا ثمن الأشنان والصابون ، وازدادت فى الطعم على قدر الزيادة فى العمل (وهكذا يهمه استخدام الخادم فى صنع النبيذ وما ينتج عن ذلك من نتائج لا يعرفها إلا البخلاء ، ولا يفطن إليها ويولدها إلا أمثال الجاحظ فى تهكمه وسعة خياله الساخر !

ثم يذكر فى الفقرة الثالثة التى تبلغ سبعة أسطر همه وحزنه وطول تفكيره

إذا جلس فى البيت ليشربه، وما يحتاجه النبيذ، لا بد له من دريهم لحم (١) ومن طسوج نقل وقراط ريحان، ومن أبزار للقدر . . . و . . إلخ.

ثم يبدأ يذكر النديم فى خوف وهلع مضحك : «وهو بعد هذا شؤم وحرفة وخروج من العادة الحسنة» والجملة الأخيرة من جمل الجاحظ التهكمية -! فإن كان النديم غير موافق، فأهل الحبس أحسن حالا منى. وإن كان - وأعوذ بالله - موافقا - فقد فتح الله على الى بابا من التلف! لأنه حينئذ يسير فى مالى كسيرى فى مال من هو فوقى وإذا علم الصديق أن عندي زائرا ونبيذا، دق الباب دق المدل: فإن حجبناه فبلاء، وإن أدخلناه فشقاء!

وهكذا يختم تلك الفقرة بهذه الجملة التهكمية الرائعة التى لا تخلو من سجع لطيف!

ثم يبدأ الفقرة الرابعة من احتجاجه متضمنة ما سبق من خصائص تهكم الجاحظ باللفظة المفردة آنا وبالجملة آنا آخر، كقوله : «وإن بدا لى فى استحسان حديث الناس، كما يستحسنه منى من أكون عنده، فقد شاركت المسرفين، وفارقت إخوانى من المصلحين، وصرت من إخوان الشياطين. ونلاحظ هذه الجملة الأخيرة المقتبسة من الآية، يستعملها فى خفة وبراعة بمقابلة للجملة السابقة لها، ثم يبدأ فى استنتاج المغالطة تلك التى تبقى دائما على ما فى أدمغة البخلاء الموهومين من وهم ومن تصور مبالغ فيه لضرر الإسراف:

«فإذا صرت كذلك، فقد ذهب كسبى من مال غيرى، وصار غيرى يكسب منى!»

ثم أخيرا يختم احتجاجه بهذه العبارة المضحكة التى تجمع نفسية البخيل الخائفة الوجلة فى تلك الكلمات :

---

(١) لاحظ استعمال الجاحظ بالمصغر درهم، وما يدل ذلك على تهكم خفى.

« هذا الدوشاب دسيس من الحرقة ، وكيد من الشيطان وخدعة من الحسود وهو الحلاوة التي تعقب المرارة ، ما أخوفني أن يكون أبو سليمان قد مل منادمتي فهو يحتال لي الحيل ! » ، (١)

ومثل ما سبق ما قاله الجاحظ على لسان أبي سعيد المدائني في تعليله عدم غسله الثوب وتركه قذرا :

ويبدأ بذكر أضرار الغسل « وأول ذلك الغرم الذي يكون في الماء والصابون، والجارية إذا ازدادت عناء ، ازدادت أكلا .. ثم ينتهي بعد اثني عشر سطرا إلى هذه العبارة المضحكة ، تلك التي تضحكنا من عقل البخلاء ، ومن لذع الجاحظ وخبثه : فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام . فإن دخلته فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولي امرأة جميلة شابة إذا رأتني قد اطليت وغسلت رأسي ، وبيضت ثوبي ، عارضتني بالتطييب وبلبس أحسن ثيابهـا ، وتعرضت لي، وأنا فحل ، والفحل إذا هاج ، لم يرد رأسه شيء ، فإذا أردت مرافقتها ، ورأت حرصي ، نثرت علي الحوائج نثرا . ثم احتجنا إلى تسخين الماء ، وأشد من هذا كله أن تعلق ، فنحتاج إلى ظئر ، فنقع في ما لا غاية له ! » ، (٢)

ثم يتناهى الجاحظ في المبالغة فيقول أخيرا : « مع أمور كثيرة ، نسي بعضها ، و بعضها أنا »،

وليت أدري ، ما الأمور التالية التي يمكن أن يتفتق العقل البشري عنها بعد الذي ذكره في عشرين سطراً ! إنها لعمري إحدى خبائث الجاحظ في التهكم !

---

(١) البخلاء ص ٦٣ ، ٦٤

(٢) البخلاء ص ١٣٩ ، ١٤١ وانظر أيضا ص ٦٨

وهناك أمثلة تشبه ما سبق فى احتجاج البخلاء بهذه الطريقة منها تعليل أبى سعيد المدائنى سبب ذهابه للمطالبة بدينه والإلحاح فى ذلك على الرغم مما يتعرضه من صعاب فى ذلك : (١)

* * *

ومما يستخدمه الجاحظ فى حجاج البخلاء - أو حجاجه على ألسنتهم : كثرة الاستشهاد وهى إما الاستشهاد بأقوال من سبق وإما الاستشهاد بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يراعى فى ذلك اختيار الصحيح منها ، بل يستخدم كل ما دار على ألسنة العوام والخواص من أقوال النبي أو أفعاله إن صدقا وإن كذبا . كاستشهاده على البخل وعدم التأذى بلبس المرقع من الثياب بأن النبي « كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع إصبعه ويقول لو أتيت بذراع لأكلت ، ولو دعيت إلى كراع لأجبت » (٢) ومن ناحية الترقيع ، فهو ثابت لكن النبى (ص) كان يفعل ذلك زهدا لا بخلا !

واستشهاده بقول النبي (ص) وهو موضوع (٣) « إذا طبختم لحما فزيدوا فى الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحما ، أصاب مرقا ! » .

وذكر هذا المثل دادعى أنه حديث : « من الذود إلى الذود إبل » (٤) أو استشهاده بهذا الحديث الموضوع : جمع الشر كله فى بيت ، وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر (٥) .

---

(١) البخلاء ١٢٨ .

(٢) ، (٣) ص ١١ من البخلاء .

(٤) أنظر البخلاء ص ٣٠ وتعلق الدكتور الحاجرى عليه .

(٥)قال العجلونى فى كشف الخفاء ١ / ٢٨٣ ما يلى باختصار « والعسكرى عن أم أيمن موفوعا : إياك والخمر ، فإنها مفتاح الشر ، وله أيضا (بصيغ أخرى) مثل ما سبق ... وشواهد هذا المعنى كثير ... ص ٣٦ من البخلاء

وما جاء به من الأحاديث الموضوعة التى لم يعن محقق البخلاء بالبحث فيها « الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق »[١] .

وهكذا نرى أن الجاحظ يذكر على ألسنة بخلائه كثيراً من الأحاديث التى يستشهدون بها وهى تربو على المائة - كما لاحظت - وهو يورد هذه الأحاديث فى معرض التهكم بأصحابها ، وعندما يكون قد تقمصته روح السخرية ، وهو لذلك لا يعنى بشىء من تحقيق أو اختيار بل يهمه إيرادها ، كأنه بإيراد مثل هذه الأحاديث الموضوعة أو التى لا يحتاج العقل إلى إثبات عدم صحتها ، كأنه بإيراد مثل هذه الأحاديث يزيد تهكما بمن يوردون هذه الأحاديث فى معرض حججهم واستشهادهم على صواب رأيهم فى البخل فهو كأنه يضيف إلى سخريته من بخلهم تهكمه بجهلهم بإيراده هذه الأحاديث « مثل سيد الطعام الثريد ، ومثل عائشة فى نفسه ، مثل عائشة فى الطعام »[٢] .

وكما يذكر لعمر قولته لأهله : « املكوا العجين ، فإنه أريع الطحينين »[٣] وكما يفدى زبيدة بن حميد النبى بقوله : بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول « جمع الشر كله فى بيت ، وأغلق عليه . فكان مفتاحه السكر » فهو يفدى النبى - صلى الله عليه وسلم - لأنه قال حديثا - موضوعا - وافق هواه ! وهذا نهاية التهكم بالبخلاء والإزراء بهم .

وهو أحيانا يستعين بما ينسب إلى القدماء فيما يوافق مذهب البخلاء ويعضد احتجاجهم . وغالبا ما يكون هؤلاء الأقدمون من الزاهدين فى الدنيا : كعمر بن الخطاب ، والمسيح عليه السلام وغيرهما[٤] وفى بعض الأحيان

---

(١) ضعفه العجلونى فى كشف الخفا ١/٣٢٧

(٢) البخلاء ص ٧٤

(٣) البخلاء ص ١٠

(٤) انظر ص ٨ ، ١٠٩ من البخلاء .

يذكر الاحتجاج بأشخاص اشتهروا بالبخل منذ القدم كبعض الجاهليين وأبي الأسود الدؤلي والأصمعي وخالد بن عبد الله القسري[١].

٣ — المصطلحات الفلسفية.

ومما يلاحظ على أسلوب الجاحظ الحجاجي على ألسنة البخلاء استخدامه بعض المصطلحات الفلسفية كقوله: وربما عجل عليه، فقدمه حارا ممتنعا، وربما كان من جوهر بطيء الفتور[٢].

وجاء أيضا: «فتحول كل شيء كان في اقمته بتلك الجذبة إلى اقمتي، لاتصال الجنس بالجنس، والجوهر بالجوهر[٣]».

وقال على لسان المكي «فإذا هو يريد أن تدفع جوهرا بجوهر، وعرضا بعرض، حتى لا تربح أمه إلا صرف ما بين العرضين... وما كانت إلا أن تبادله الأعراض وتسلم إليه الجوهر»[٤].

وهكذا يأبى الجاحظ إلا أن يفصح عن أسلوبه بصياغة كتابه هذه الصياغة التي تخضع لما اشتهر عنه من اشتغاله بعلم الكلام والفلسفة من جهة ولما عرف عنه من روح هازلة ساخرة من جهة أخرى.

ومما يدخل في هذا الحجاج الذي يتخذ صورة الحجاج المنطقي الفلسفي الجدلي قوله «وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم، لأن المال به يغاث العالم، وبه تقوم النفوس، قبل أن تعرف فضيلة العلم. وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع، وأني قلت: وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلة نعمى...»[٥].

---

(١) وقد شك الدكتور الحاجري في صحة رمي القسري بالبخل.

(٢، ٣) البخلاء ص٦٩

(٤) البخلاء ص١١٣ (٥) البخلاء ١٤، ١٥

ومن قوله أيضا ويدخل فى هذا الباب « وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل »[١] .

وكذلك هذه العبارة « . . . ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء وأن جليس السوء خير من أكيل السوء ، لأن كل أكيل جليس ، وليس كل جليس أكيلا ! »[٢] ومن هذا القبيل الاحتجاج للزجاج وذكر فضله على غيره[٣] .

ومن أروع ماجاء فى الاحتجاج هو ماساقه على لسان سهل بن هارون فى رسالته التى يشك فيها الحاجرى وينسبها للجاحظ ، وأنا أنضم إليه فى هذا الشك ، وهذه الرسالة تحوى من طرق الحجاج والمغالطات السوفسطائية مايصل بالجاحظ إلى رتبة كبار المتهكمين الوضاعين لا فى الأدب العربى فحسب بل فى الآداب العالمية ! فما يذكره من هذا الباب على لسان سهل ويدخل فى موضوعنا قوله « وعبتمونى حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأن الحفظ إلى المال المكتسب والغنى المجتلب ، وإلى مايعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخـــله ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ، وأن من لم يعرف للغنى قدره ، فقد أذن بالفقر ، وطاب نفسا بالذل[٤] ! .

---

(١) ص ٢٤ من البخلاء

(٢) ص ٦٧ من البخلاء

(٣) ص ٢١ من البخلاء

(٤) ص ١٣ من البخلاء

ومما يدخل فى باب المغالطات الجدلية المضحكة قوله على لسان الثورى لابنه :

« أى بنى إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم ، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير ، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين ، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والأصل ، ويطمس على العين والأثر ويحتمل القليل والكثير .

أى بنى : إنما صار تأويل الدرهم « دارالهم » وتأويل الدينار « يدنى من النار[1] » .

ونستطيع أن نختم الكلام على استخدام الجاحظ الحجاج والمبالغة فيه أو إطالته كوسيلة من وسائل السخرية بالبخلاء أو استخدام الألفاظ أو الجمل الفلسفية الجدلية بالاكتفاء بما ذكر من أمثلة والإحالة إلى صفحات أخرى من الكتاب كأمثلة مطولة لما ذكرنا ولانستطيع سردها ، كهذا الاحتجاج الطويل الذى بلغ تسع صفحات[2] أو كثرة الاحتجاج بأقوال السابقين[3] أو الاحتجاج على منافع الملاءة[4] أو الاحتجاج للبخل والبخلاء ومانعتا به من أسماء[5] أو استطراده اللطيف[6] فى استشهاده المضحك : وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة[7] ! ! »

(١) ص ١٠٦ وهو يقترب من هنا المثل الانجليزى المعروف مع ما بينهما من فرق فى التعبير وعدم المبالغة . . . Take Care of the Pence ... etc

(٢) ص ١٨٢ من البخلاء (٣) ص ١٤٦ من البخلاء

(٤) ص ١٠٥ من البخلاء (٥) ص ٦٢ ، ٦٣

(٦) ص ١٢٧ (٧) البخلاء ص ١٢

٤ ـ والطريقة الرابعة هى السخرية بجملة يشيع فيها التهكم بصرف النظر عن العبارة بأجمعها : وأولها استخدامه الجملة الاعتراضية كثيرا : كقوله عن النبيذ الذى يستخرجه من الدبس وهو ضائق بقبوله هدية : « . . . وإن سلم ـ وأعوذ بالله ـ وجاد وصفا ، لم نجد بدا من شربه . »[1]

وهناك عبارات أخرى غير الجمل الاعتراضية مثل قوله على لسان بخيل : اللهم إنى استحرقك ، فأحرق كل شىء لنا ![2]

وقوله : « وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه ! »[3] وقوله : « . . . ومن أطعم النار ، جعله الله يوم القيامة طعاما للنار »[4]

وقوله على لسان قوم استمعوا إلى حديث أحد البخلاء فأعجبوا بحسن تدبيره : « هذا بتوفيق الله ومنه ! »[5]

وقوله على لسان أحدهم : « أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة »[6] . . . . ويرد عليه آخر : « صدقت ، مثل هذا يكتسب بالرأى ، ولا يكون إلا سماويا ! »[7]

وقوله : « . . . . والقداحة الغليظة بالثمن الموجع ! »[8] وقوله : « فزعم لنا صديقنا الثورى ، وهو ما علمت أحد المرشدين ! »[9]

---

(١) ص ٦٢ من البخلاء .
(٢) ص ٢٨ من البخلاء .
(٣) ص ٣ (نفس المرجع) .
(٤) ص ٢٠ ، ٢١ المرجع السابق .
(٥) ص ٢٩
(٦) ص ٣١
(٧) ص ٣٢
(٨) ص ٣٤
(٩) ص ١٣٢

وعلى لسان معاذة قوله « ... صار كية فى قلبى ، وقذى فى عينى ، وهما لايزال يعودنى . »[١]

ومن الجمل التى تشتمل على سجع قوله : « يذهب بحر مالى ، ما أراد إلا استئصالى ! » وهناك غيرها من الجمل المسجوعة الكثير .[٢]

وقوله : « فلما حضر وقت الغداء ، صوت بغلامه ـ وكان ضخما جهير الصوت صاحب تقعير وتفخيم وتشديق وهمز وجزم ... »

وقوله على لسان بخيل : « إن من إفلاس المرء طمع الناس فيه ! » وقوله : « فقبض صاحب الحمار ، والماء العذب (وهما بخيلان) قبضة من حصى ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لاتعلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع أخبار الصالحين ! »[٣]

وقال على لسان بخيل رفض أن يستضيف الجاحظ وصحابه فى يوم قائظ : « وقال ضاحكا ... فضعه فى سويداء قلبك ! »[٤]

وقال على لسان بخيل ادعى أنه سكرن : « سكران والله أنا سكران ! »[٥]

وقوله على لسان أحد البخلاء تضايق ممن كان يأكل معه : « أجهز على الجرحى ، ولا تعرض للأصحاء ! »[٦] يتحدث عن الطيور !

---

(١) ص ٩٦ من البخلاء

(٢) ص ٦١ من البخلاء

(٣) ص ٢٣ من البخلاء

(٤) ص ٣٨ من البخلاء

(٥) ص ٣٨ ، ٣٩ نفس المرجع

(٦) ص ٤٤ ، ٤٥ نفس المرجع

وقوله : « اجرش يا أبا كعب اجرش ! » [١]

وقوله على لسان أحد البخلاء : « أنى لما غلبتنى يوماشهوتى، وأخرجت يوما درهما لقضاء وطرى ، ووقعت عينى على سكته ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ، قلت فى نفسى : إنى إذا لمن الخاسرين الضالين لئن أنا أخرجت من يدى ومن يبتى شيئا عليه : « لا إله إلا الله » وأخذت بدله شيئا ليس عليه شىء . والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريده ، وعليه : « حسبى الله » أو : « توكلت على الله » ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله ـ جل ذكره ـ حتى يرد الخاتم فى موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج فى كل يوم درهما عليه الإسلام كما هو ؟ إن هذا لعظيم ! » [٢]

وقوله : « أنا والله أحتمل الضيف والضيفن ، ولا أحتمل اللعموظ ولا الجردبيل ... » [٣] .

٥ ـ التشنيع : وكان الجاحظ كثيرا ما يضع النوادر أو القصص القصيرة حول بخلائه ، وكانت هذه التشنيعات كثيرا ما تكون مبالغا فيها ، ويصدر بها دائما الكلام على البخيل ، ومن أمثلة ذلك قوله عن أحمد بن خلف :

« فقلت له ـ وقد ورث هذا المال كله ـ : ما بطأ بك الليلة ؟

قال : لا والله إلا أنى تعشيت البارحة فى البيت ! » [٤]

---

(١) ص ١٢٧ من البخلاء.

(٢) ص ٥١ من البخلاء.

(٣) ص ٦٧ ، وأنظر مخاطبة أحد البخلاء ص ١٢١

(٤) البخلاء ص ٤١

ويشنع على صاحب له - لا يسميه - فيقول :

أكلنا عنده يوما ، وأبوه حاضر ، وبنى له يجىء ويذهب . فاختلف مرارا ، كل ذلك يرانا نأكل .

فقال الصبى : كم تأكلون ، لا أطعم الله بطونكم ؟!

فقال أبوه : - وهو جد الصبى - ابنى ورب الكعبة ! [1]

ويشنع على الثورى قائلا :

حم الثورى ، وحم عياله وخادمه ، فلم يقدروا - مع شدة الحمى على أكل الخبز ، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو كان منزلى سوق الأهواز أو نطاة خيبر أو وادى الجحفة ، لرجوت أن أستفضل كل سنة مائة دينار افكان لا يبالى أن يحم هو وأهله أبداً ، بعد أن يستفضل كفايتهم من الدقيق ! [2]

ويبالغ فى التشنيع على البخلاء حتى يجعل أبا سعيد المدائنى ينهى خادمه أن تخرج الكساحة من الدار ! وأمرها أن تجمعها من دور السكان ، وتلقيها على كساحتهم ، فإذا كان فى الحين بعد الحين ، جلس وجاءت الخادم ومعها زبيل ، فعزلت بين يديه من الكساحة زبيلا ، ثم فتشت واحدا واحدا .. إلخ .. [3]

ومن تشنيعه أنه كثيرا ما يجعل البخيل يدافع عن البخل والبخلاء [4]

---

(١) البخلاء ص ٤٤

(٢) البخلاء ص ١٠٤

(٣) البخلاء ص ١٤٢

(٤) البخلاء ص ٦٥ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١١٦

وكثيرا ما يتزيد فى بخل البخلاء [١]

٦ - التعريض : وكان فى بعض الأحيان يسخر بالبخلاء تعريضا كما قال عن نفسه :

« وكنا مرة فى موضع حشمة ، وفى جماعة كثيرة . والقوم سكوت ، والمجلس كبير . وهو بعيد المكان منى . فأقبل على المكى ، وقال - والقوم يسمعون - : يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا !

قلت : أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ .

قلت . صاحب لنا لا أسميه !

قال الحزامى من بعيد : إنما يعنينى [٢] .

٭ ٭ ٭

هذه هى سخرية الجاحظ من البخلاء ، وقد نجح نجاحا كبيرا فى إخفاء قصده الساخر ، وهذا مما يرفع من قيمة السخرية ، ولا يحذقها أو يمهر فيها إلا من أوتى خيالا خصبا ، وصبرا وطول ممارسة لهذا الفن ، غير أنى آخذ عليه - فى بعض الأحيان - كثرة المترادفات التى يوردها كثيرا مما تسىء إلى أسلوب الساخر : فالسخرية تتطلب الاختصار والإيجاز الشديد ما أمكن لأنها كالملحة أو السهم الصغير الذى يزيد إيلامه كلما دق حجمه ، ومن أمثلة ما نقول ، قوله فى إحدى صفحات البخلاء : « الفتى لا يكون نشالا ، ولا نشافا ، ولا مرسالا ، ولا لكاما ولا مصاصا . ولا نفاضا ، ولا دلاكا ، ولا مقورا ، ولا مغربلا . ولا محلقما ، ولا مسوغا ، ولا ملغما . ولا مخضرا . . . إلخ [٣]

---

(١) أنظر الصفحات ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ . ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨١ - ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٣ - ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨

(٢) ص ٦٤ ، ٦٥ من البخلاء

(٣) ص ٦٧ من البخلاء

٢ - رسالة التربيع والتدوير

السبب فى كتابة هذه الرسالة :

أما السبب فى كتابتها : فلم يصرح الجاحظ بالدافع الحقيقى إليه ، كذلك لم نعرف شخصية أحمد بن عبد الوهاب الذى قيلت فيه هذه الرسالة ، معرفة تامة ، ولم ينقل لنا التاريخ ترجمة مفصلة عن حياته أو العلاقة بينه وبين كتاب عصره بعامة والجاحظ بخاصة لكى نتمكن من الإحاطة بالأسباب أو الدوافع إلى كتابة هذه الرسالة .

وكل لما يصفه به « كتاب الحيوان » هو أنه كان كاتبا من الكتاب .

ويحاول محقق الرسالة ، وهو المستشرق الفرنسى شارل بلات ، الوصول إلى أحد أسباب كتابة هذه الرسالة فيقول : إن الواثق كان قد أعجب « بقلم الصالحية » جارية « صالح بن عبد الوهاب » أخى « أحمد بن عبد الوهاب » حينما سمعها تغنى ، فأراد شراءها ، فطلب صاحبها خمسة آلاف دينار ، وأن يتولى مصر ، كل ذلك لقاء بيعها للخليفة والتنازل عنها له ، وكان على الوزير عبد الملك بن الزيات وزير المتوكل تنفيذ هذا الأمر ، ولكن الوزير غضب من مطالبة ابن عبد الوهاب بحقه .

ثم تحول صالح بن الوهاب إلى مكة ، واشترى هناك ضيعة لقضى فيها بقية عمره بعد أن اعتزل خدمة الخليفة .

ويظن المستشرق أن أحمد بن عبد الوهاب قد اتبع أخاه إلى مكة واستقر هناك ، وقد جاءه هذا الظن من جملة ذكرت فى الرسالة وجه فيها الجاحظ الكلام إلى أهل مكة : لكى يفطنوا إلى حقيقة الهارب إليهم والنازل بين

ظهرانيهم وهو أحمد بن عبد الوهاب ،، . وقد يكون هذا الظن صحيحا وقد يكون أحد أسباب كتابه الرسالة ، ولكنة ـ على ما نرى ـ سبب غامض لم يصرح به أو يؤيده التاريخ أو المؤرخون .

وحينما درست الرسالة دراسة دقيقة مفصلة ، أحسست بمدى الحقد الدفين الذى يحسه الجاحظ إزاءه ، ذلك الحقد الذى جعله يكتب تلك الرسالة الطويلة بذلك النفس الذى لا ينبهر ،فجعلنى هذا أظن ظنا أقرب إلى اليقين أنه كانت ثمة عداوة تأصلت بمرور الأيام بين الجاحظ وأحمد بن عبد الوهاب ومن الجائز أن هذا العدو كان قوى الشكيمة إلى حد أنه آذى الجاحظ، وكان يحسده حسداً صرح به الجاحظ فى عدة مواضع من الرسالة كقوله عنه «ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ،» [1] وكذلك فقد يكون « أحمد بن عبد الوهاب ،، من أدعياء العلم والأدب [2] وحسن المنظر والمخبر ، حتى إن الجاحظ استغل ذلك الادعاء فى محاولة السخرية منه سخرية امتدت من أول فقرة فى الرسالة إلى آخر فقرة فيها ، وقد يكون هذا السبب أو الدافع أقوى من محاولة سخرية الجاحظ به لمجرد أخوته لصالح بن عبد الوهاب الذى أراد الوزير الخطير محمد بن الملك الزيات الانتقام منه بواسطة قلم الجاحظ الحاد !

* * *

منهج الرسالة :

يقدم الجاحظ لرسالته أولا بمقدمة عن أحمد بن عبد الوهاب وعن ادعائه

---

(١) الرسالة ص ٦ فقرة ٣ (تحقيق شارل بلات وطبعة بيروت ١٩٥٦) وأنظر أيضا ص ١٠ / ١٠ ، ١١ / ١١ ، ؛ ١٢ / ١٣

(٢) رسالة التربيع والتدوير الفقرتان ٢ ، ٤ .

ما ليس فيه : فيصف جسمه وصفاً حسياً : « كان مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول . وكان مربعا . . . وكان جعد الأطراف ...وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ وكان كبير السن متقادم الميلاد . . . » ، ومن هذا الوصف الحسى اشتق اسم الرسالة وهى « التربيع » ، لأنه كان ربعة أو مربعاً على حد تعبيره ، و « التدوير » ، لأنه حاول أن يتخيله كأنه مدور لسعة جفرته واستفاضة خاصرته » .

وقد جعل هذه المقدمة ملخصا للعناصر التى سيسخر منه بسببها :

فسخر من جسمه ، وكان هذا الجانب من سخريته موجزا بالنسبة للعنصرين التاليين : وهما سخريته من ادعائه التبحر فى العلم ، وسخريته من كبر سنه و لادعائه طول التجربة الناشئة عن كبر السن .

وبعد هذه المقدمة التى استغرقت خمس صفحات يبدأ فى الرسالة . والغريب أنه يحاول أن يبدأ هذا الجزء الذى يعد القسم الأكبر من الرسالة ، يحاول أن يبدأه بالبسملة ، وبتمهيد له ، بما يشعر كأنه يبدأ بدءا جديدا منفصلا عن سابقه .

أما من ناحية طريقته فى إيراد ما أورد فى الرسالة : فلم يحاول أن يستمر فى سخريته من عنصر ما من هذه العناصر حتى إذا ما انتهى منه انتقل إلى العنصر التالى ، بل كثيرا ما يداخل بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر ولو أنه قد خصص الفقرات الأولى لسخريته من جسمه ، وقلل منها فى الفقرات التالية .

وكان الجاحظ لا ينسى أسلوبه الذى طبعت به كتابته فى أغلب كتبه ، فى بعض فقرات هذه الرسالة : وأعنى به مسحة المزاوجة أو التفلسف و تشقيق

الكلام وكثرة إيراد المترادفات الكثيرة [١] . كما ذكرت في التعليق السابق على كتاب البخلاء . ولا ننسى كثرة استشهاده بالحكم والأمثال والأحاديث النبوية والأبيات ، ولو أنها أقل نسبيا مما انتهجه في البخلاء ، ويحاول أن يكثر من الأمثال ومن الروايات المختلفة أو الصيغ المختلفة لهذه الأمثال [٢] .

وكثيرا ما يتخلل سخريته استطراده إلى الكلام عن موضوعات أخرى لا تمت إلى موضوعه بسبب قريب ، بل هي استطراد بسبب لفظة أو عيب ذكره : كاستطراده في الكلام عن المراء [٣] أو المزاح [٤]

* * *

عيوب الرسالة :

أما أول هذه العيوب فهو العبارات الهجائية الصريحة التي بثها هنا وهناك في أجزاء الرسالة في حين أنه كان من الأجدر أن لا تشتمل رسالة ساخرة على ألفاظ هجائية أو تعني من قريب السب الذي تخالفه السخرية كل المخالفة إذ هي تقوم على التورية والتعمية والإيلام غير المباشر كالسهم المميت الذي لا يظهر أثره إلا بعد أن يكون قد تمكن من الرمية كل تمكن من غير أن تفطن له في أول الأمر .

فمن أمثلة ذلك قوله :

---

(١) رسالة التربيع والتدوير ٥ / ٢

(٢) رسالة التربيع والتدوير ٧ / ٥

(٣) رسالة التربيع والتدوير ٨ / ٨ ، ٩ / ٨

(٤) رسالة التربيع والتدوير ٤٦ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٤٧ / ٨٨ ، ، ٤٩ / ٩٠ ، ٥٤ / ٩٧ ، ٦٥ / ١١٥ ، ١١٦ ، ٦٦ / ١١٧ ، ١٢٨

« وما أدرى - حفظك الله - فى أى الأمرين أنت أعظم إثما ، وفى أيهما أنت أفحش ظلما : أبتعرضك للعوام ، أم بإفسادك الخواص ، »(١)

وقوله أيضا :

« وقد سألتك - وإن كنت أعلم إنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا . . . »(٢)

وقوله أيضا :

« وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر ، وطول مجاوز للقصد »(٣).

ومن هذه العيوب أيضا : كثرة ذكره أسماء المشهورين من الرجال حتى ربما عد ستة عشر اسما كقوله : « وقد رأيتك زمانا تحتج بالنعمان بن المنذر وبضمرة بن ضمرة ، وبمجاعة بن مرارة ، وبمجاعة بن سعر ، وبأوفى بن زرارة . . . الخ »(٤)

أو الصفات الكثيرة كقوله : « ... غير منخوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب ... »(٥)

ومن هذه العيوب أيضا : إطالة الجملة أحيانا كقوله : « ... ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقاديرها إذا أشكلت ، ولم يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ولا مع المتكلف لها مثل كمالك ، دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نفاذه . »(٦)

---

(١) رسالة التربيع والتدوير ١٦ / ٢٠ (٢) المرجع السابق ١٨٩/٩٧

(٣) » » » ١٥ / ١٩ (٤) » » ١٦ / ٢١

(٥) المرجع السابق ١٩ / ٢٦

(٦) » » » ٨٦/٤٧ ، وانظر أيضاً مثالا آخر ١/٥٦ ، ١٠١ ، ١٠٢/٥٦

ومن هذه العيوب أيضا : المبالغة فى السخرية ، مبالغة غير مقبولة أو مستملحة كقوله : »

« وليس عندك - أبقاك الله - الذى تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم أو يهل صاحبه التثبت أو يتسع التخير أو ينهنهه زجر أو يهذبه خوف . . . الخ ، (١)

ويبالغ فى قياس فلسفى تمجه السخرية التى لا تميل إلا إلى الإيجاز كقوله : « وحتى لو كنت إمام الرافضة ، لقتلت فى طرفة ، ولو قتلت فى طرفة لهلكت الأمة لأنك رجل لا عقب لك ، والإمامة اليوم لا تصح فى الأخوة ، ولو صلحت فى الأخوة كانت تصلح فى ابن العم ، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا فى الولد ، وفى هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد ، وهذ هو علة أصحاب المناسخة ، وأنت رافضى ، ولم يكن هذا عندك ! . . . . ، (٢)

ومن عيوب الرسالة أيضا الاستطراد وهو المنهج الذى اتبعه فى كتبه العلمية كالحيوان والبيان والتبيين إذ هو يصلح فى هذا المجال ولكنه لا يصلح فى رسالة قائمة على الهزء وتتطلب السرعة والإيجاز ، وقد أحس الجاحظ بذلك فصرح غير مرة بإحساسه قائلا :

« فلا تعجب - أيها السامع - ولا تظن أنى مفرط . . ، (٣)

وقوله : « وقد تعجب ناس من إطالتى ومن كثرة مسائلى ، وتعجبى من تعجبهم أشد والذى كان من إنكارهم أعظم . . . ، (٤)

---

(١) المرجع السابق ٦٠/١٠٧

(٢) التربيع ٧٣ / ١٢٠

(٣) المصدر السابق ١٠٥ / ٥٨ (٤) المصدر السابق ٨٧/١٦٥

وعلى الجملة، فإننا نأخذ على الجاحظ فى هذه الرسالة: جمله المطولة أحيانا وأنسجتها العقلية البعيدة عن «طرق التهكم» فى أحيان أخرى، إذ يجدر بها أن تكون خفيفة الوزن، سريعة الماحة فلا داعى لكثرة المترادفات، مختلفة متنوعة حتى لا يمل القارىء، قليلة فى الناحية العلمية لا كثيرة. وقد كان يستطيع إيراد بعض الطرف أو الأقاصيص المخترعة التى يتهكم بها فى رسالته، حتى يبعد السأم والملل عن القارىء بالتزامه هذه الناحية الواحدة التى حاول تنويعها بقدر طاقته الفنية الهائلة، ولكنه على الرغم هذا لم يسلم من إملال فى بعض أجزاء رسالته وسخف فى بعضها الآخر.[1]

طرق سخريته:

١ - التباله: أو محاولة الكلام على لسان أحمد بن عبد الوهاب بأن ينسب إليه كلاما يدافع به عن شكله أو قصر جسمه كقوله: «وقلت: إن كان الفضل فى العدد، فمنا يأجوج ومأجوج، ومنا الدعاميص والبعوض! واحتججت بأن الحسن والفضل لصغارما فى الإنسان كالناظرين والأنثيين.. الخ»[2] ويحتج على لسانه فيقول: «وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه... أسرع الانهدام إلى بدنه، وأن القصير لا يتقوس ظهره، ولا يميل عنقه، ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه. ويسعه كل باب، ويقطعه كل ثوب ولا تخرج رجلاه من النعش، ولا يفضل عن الفراش...»[3]

---

(١) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

وانظر أمثلة الكلام الفلسفى فى ٧٢ / ١٢٩، ١٠٣ / ٢٠٣

والاستطراد فى ٤٦ / ٨٤، ٨٥، ٤٧ / ٨٨، ٤٩ / ٩٠، ٥٣ / ٩٧، ٦٥ / ١١٥، ٦٦ / ١١٧

(٢) التربيع والتدوير ١٧ / ٢٣

(٣) المصدر السابق ١٧ / ٢٤

ويستمر في تنصيبه مداقما عن نفسه ، كأنه يتلعب به هازئا قائلا : «وقلت : لو الناس إن قالوا في الحسن كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط بان ، فقد قالوا في العريض كأنه المشترى وكأن وجهه دينار هرقلي ، وكأنها دارة القمر ، فقد تراهم وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما وصفوا به القصير والطويل .» [1]

٢ — المبالغة :

كقوله «وبعد ، فمن يطمع في عيبك ، بل من يطمع في قدرك ، وكيف ، وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهي تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا عجوزية إلا وهي تنقب الخروق لمرك ، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد شقي بك ! فكم من كبد حرى منضجة ومصدوعة مفرثة . . . وكم من عبري موهلة وفتاة معذبة قد أقرح قلبها الحزن وأجمد عينها الكمد ... إلخ .» [2]

٣ — التلعب بالأسلوب :

وهي أن يذكر له الصفة وضدها اقتداراً من الجاحظ لسيطرته على زمام الكلام وامتلاكه لأعنته كقوله فيه : «قد والله ـ عافانا الله بك وابتلى ، وأنعم بك وانتقم ، فترحا لمن زهد فيك ، وسقيا لمن رغب إليك ، وويل لمن جهل فضلك ، بل الويل لمن أنكر فضلك ! إنك ـ جعلت فداك ـ كما لم تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت في الدهر الطويل ، فكذا تنقص في الدهر القصير ، إذ كل طويل فهو قصير ، وكل متناه فهو

---

(١) المصدر السابق ٢١ / ٢٩

(٢) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

قليل، فإياك أن تظن أنك قديم فتكفر، وإياك أن تتشكر أنك محدث فتشرك !،، (١)

وقال فى موضع آخر . « ... فلما رأيتك ، علمت أنك عذاب صبه الله على كل رفيع ، ورحمة أنشأها لكل وضيع !،، (٢)

ويلاعبه مادحا ساخرا معظما قدره حاطا من قيمته بقوله : « ولو استحققت عقابك بإقدامى عليك مع خوفى منك ، لاستوجبت عفوك عن إقدامى عليك لحسن ظنى بك ، على أنى - متى أوجبت لك العفو ، فقد أوجبت لك الفضل ، ومتى أضفت إليك العقاب ، فقد وصفتك بالإنصاف ، ولا أعلم حال الفضل إلا أشرف من حال العدل ، ولا الحال التى توجب الشكر إلا أرفع من الحال التى توجب لك الصبر ...،، وهكذا يتظاهر بأنه قد أجرم فى حقه ثم يتظاهر بأنه يعظم قدره عن الانتقام فيطلب منه هازئا المغفرة !! وهذا من طرق التهويل إذ يحاول الساخر أن يجعل من الشىء المهين شيئا عظيما فيبنى عليه تهكمه ...

٤ - المدح الساخر :

ويحاول أن يمدحه ويبث فى مدحه كلمات بعينها تنطق بإفصاح عن سخريته اللاذعة ، كقوله واصفا بيانه وأسلوبه : « وتعطى المعنى حقه من اللفظ ، كما تعطى اللفظ حقه من المعنى ، وتحب المعنى إذا كان حيا يلوح ، وظاهرا يصيح ، وتبغضه إذا كان مستهلكا بالتعقيد ،، » (٣)

---

(١) التربيع والتدوير ٤٠ / ٧١

(٢) المرجع السابق ٤٥ / ٨٢

(٣) التربيع والتدوير ٢٠ / ٢٧

ويقول واصفا ما عرضه به الله عن القصر من سمات الحسن المضحكة :
« فو الله إنك لجيد الهامة ، وفى ذلك خلف من حسن القامة ! وإنك لحسن الخط ، وفى ذلك عوض من حسن اللفظ ! وإنك لقليل الشيب قليل البول ، وإنك لتجد مقالا ، وإنك لتعد خصالا ». (١)

د - التهكم الظاهر الضاحك :

وذلك بذكره ألفاظه كاذبة مضحكة تنتزع الابتسامة من القارىء انتزاعا كقوله حين يصوره الغاية فى كل شىء وطغيانه على كل شىء حتى الجماد : « جعلت فداك ، ما اتقى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الخز ؟ كانا يتيهان بطول العمر ، ويبتهجان ببقاء الحسن ! فلما أربى حسنك على حسنهما وغمر طول عمرك أعمارهما ، ذلا بعد العز ، وهانا بعد الكرامة ! ».

ويبلغ نهاية التهكم بقوله : « ومالى فيك قول إلا قول الأعرابى حين ضل الطريق فى الظلمة : فلما عرف قصده عند طلوع القمر ، رفع رأسه شاكرا وهو يقول : « ما أقول ؟ » أقول : رفعك الله ، وقد رفعك ؟ أم أقول : جملك الله » وقد جملك ، أم أقول : « عمرك الله » وقد عمرك ؟ ولكن أقول : « وهل أنطق إن نطقت إلا رجيعا . وأقول وما قلت إلا لغوا ؟ (٢)

ويتهكم به ناسبا إليه - كذبا - بغض الشهرة فيقول : « ويعجبنى - جعلت فداك - منك بغض الشهرة ... استغناء بنفسك ، وصونا لقدرك ... وما أقل - بحمد الله - ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم ! (٣)

ويقارن - متهكما - بينه وبين إبليس فى موضع آخر فيقول : « ولست

---

(١) المرجع السابق ٢٤ / ٣٥
(٢) التربيع والتدوير ٥٥ / ٣٣
(٣) المرجع السابق ٢٤ / ٥٨

جعلت فداك - كابليس ، وقد تقدم الخبر فى بقائه إلى انقضاء أمر العالم وفنائه ؛ ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحق منه بعذر ...»[١]

ويتهكم به حينما يصف أعضاء تافهة من جسمه فيقول : «... أما كفك : فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندرى : آلكأس فى يدك أحسن أم القلم ، أم الرمح الذى تحمله ، أم المخصرة أم العنان الذى تمسكه أم السوط الذى تعلقه ... وأما قدمك : فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ... وأما فوك ... إلخ »[٢]

وهكذا يلعب به بوصفه وصفاً مادياً لا يليق إلا بالحسان ، ويتولع به بوصف أجزاء من جسمه لا تذكر بجانب إنسان وقور إلا انتزعته من الوقار انتزاعاً !

ويرجع فى نهاية الرسالة إلى سوق حديث على لسانه متسائلا عن السبب فى التنويه بذكره قائلا : « وستقول : مادعاك إلى التنويه بذكرى ، وتعريف الناس مكانى ، وقد تعرف حشمتى وانقباضى ونفورى واستيحاشى (أى أنه يبغض الشهرة كما ذكر قبلا) ... ولولا أنك - جعلت فداك - مسؤول فى كل زمان والغاية فى كل دهر ، لما أفردتك بهذا الكتاب ولما أطمعت نفسى فى الجواب ؛ ولكنك كنت أذنت فى مثلها لهرمس ثم لأفلاطون ثم لأرسطاطاليس ، ثم أجبت معبد الجهنى . . . . فتربية كفك والناشىء تحت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص به وأعنى »[٣]

---

(١) التربيع والتدوير ٧٢ / ٤١ .

(٢) المرجع السابق ١١٠ / ٦٢ .

(٣) التربيع والتدوير ١٦٦ / ٨٨ .

ويسائله متهكماً عن أشياء تافهة أو خرافات قائلا : « كم بين ود وسواع ويغوث ويعوق ؟ وبعد كم نكح إساف نائلة ؟[١] وما تقول في الهام ؟ وخبرني عن شيصبان ... وأين كان مسحل شيطان الأعشى من عمرو شيطان المخبل ؟[٢] وخبرني عن الشق وعن واقواق ... وشعب رضوى ؟[٣] ».

٦ - العناصر الفنية في سخريته ، أو أسلوبه الساخر :

الألفاظ المضحكة : « وقد زعموا - جعلت فداك - أن أكل ما طال عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان ، وفي طول العمر ، وصحة الأبدان كالورشان ... فإن كان هذا حقاً ... وكان هذا العلاج نافعاً ، وكنت له مستعملا ... أخذنا منه بنصيب ، وكيف لي بذلك ، وأنا صغير الأذن وأذنك أذن أبي مهيل ؟ وأنا صغير الرأس ، ورأسك رأس جالوت ؟[٤] » .

الجمل الإعتراضية الدعائية : وقد مر في الفقرات السالفة أمثلة واضحة على مقدار كل جملة دعائيـــة ساخرة في ثنايا الكلام مثل - « حفظك الله »[٥] « وجعلت فداك » ، وقد ذكرها أكثر من عشرين مرة[٦] وأبقاك الله[٧] ويرحمك الله ، وأطال الله بقاءك .

الطريقة الإنشائية كالاستفهام والأمر والنـــداء مثل : « فلما جعلك

---

(١) المرجع السابق ٣٨ / ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ٣٩ / ٩٩ .

(٣) المرجع السابق ٤١ / ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ٣٢ / ٥٢ .

(٥) المرجع السابق ١٠ / ٩ ، ١٦ / ٢٠ ، ٣٤ / ٥٧ .

(٦) المرجع السابق ٢٦/٤٠ ، ٢٩/٤٦ ، ٣٦/٤٩ ، ٣٤/٥٣ ، ٣٣/٥٥ .

(٧) المرجع السابق ١٣/١٤ ، ١٨/٢٥ ، ٢٥/٢٠ ، ٣٦/٣٣ ، ٦٠/١٠٧ .

إلى غذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير ! » (٢٦ / ٣٠)

« فقل معروفاً ، فإنا من أعوانك ، واقتصد فإنا من أنصارك ، وهات ، فإنك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ، ولو جرت لقلنا قد اهتديت » (٢٤ / ٣٦)

فيا قعيد الفلك كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهيولى كيف أصبحت ؟ ويا نسر لقمان كيف أصبحت ؟ (٣٢ / ٣٨) .

التبكيت :

وذلك بتوجيه أسئلة يستحيل الإجابة عليها كقوله : كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومذ كم مات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما حبس غراب نوح ؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟

وقد استغرق هذا الجزء من الرسالة صفحات عديدة ، وأخذ الجاحظ يعرض معلوماته الكثيرة فى شتى العلوم والمعارف التى كان يزخر بها عصره فأخذ ينتقل من علم الحيوان إلى النبات، إلى الجغرافيا إلى التاريخ إلى الهندسة إلى الجبر إلى الموسيقى ،ثم يسأله فى أثناء ذلك عن أشهر رجال كل علم ،والقضايا العامة الى يشتمل عليها . . . . . وهكذا عرض الجاحظ لذلك العقل المستنير الذى كان يحمله ، وأخذ يداعب به ضائره الصغير « أحمد بن عبد الوهاب » والغريب أنه يبكته بطريق توجيه السؤال مصوغاً صياغة توحى بواقعيته كقوله : لم لم تبزق فى وجه فرعون ؟

فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بنى جعدة . . . وأنت أبقاك الله ـ تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمائرهم وأصولهم وأجذامهم . . . . نخبرنى : أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا ؟

ويسأله عن النعال السندية : وزعم إسماعيل بن على أنك أنت الذى كنت أمرت باتخاذها ، وأشرت بصنعها وأنك تكتم السر الذى فيها . . .[1] .

---

(١) التربيع والتدوير ٨٥ / ١٥٨ ، ١٥٩ .

ومن السمات التي تلوح على سخريته : السجع الذي يختتم به بعض عباراته الساخرة كقوله : وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح وظاهرا يصيح . (٢٠/ ١٧)

وفي موضع آخر : فقل نسمع . وأشر تتبع (٢٤/ ٥٧)

— ٥ —

أبو العينـاء

هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله ، وأصل قومه من بنى حنيفة من أهل اليمامة ، ولحقهم سباء فى أيام المنصور ، فلما صار « ياسر » فى قيده ، أعتقه ، فولاؤهم لبنى هاشم . وتروى روايتان إحداهما عن إساءة جده سليمان مخاطبة على بن أبى طالب ، والأخرى عن غضب عبد الله بن حسن على جده خلاد فى أيام المنصور ، وكل منهما دعا على جديه وعلى ولده بالعمى .

ولم يذكر شيء عن أبويه ، أو البيئة التى عاشا فيها اللهم إلا أن والده القاسم بن خلاد عاش فى كورة بخوزستان حيث ولد ابنه محمد سنة ١٩١هـ بعد نكبة البرامكة بسنوات ، وقبل وفاة الرشيد بسنتين . وعاش طفولته الأولى حين بويع للأمين بالخلافة بعد وفاة أبيه فى طوس ، وأضحى فى السابعة من عمره لدى مقتل الأمين . ونشأ أحول العين مخضوبا بالحمرة خضابا ليس بالمشبع ، فأمضى فى الأهواز سنوات من طفولته ، ثم انتقل منها إلى البصرة فأمضى فيها بقية حداثته وكل شبابه وجانبا من كهولته ، فى عصر المأمون الذى استمر عشرين عاما ، فاصبح أبو العيناء فى ربيعه السابع والعشرين ، ثم عاصر المعتصم الذى ظل ثمانية أعوام ، فأضحى أبو العيناء فى السادس والثلاثين ، ثم عاصر الواثق بالله الذى ظل خمسة أعوام لجاوز أبو العيناء حدود الأربعين .

وحينذاك اعتلت عيناه فكف بصره بعد حول لازمه صباه وشبابه وكهولته . وكان ذلك بعد مغادرته البصرة إلى بغداد ليقضى فيها الشطر الثانى من حياته المديدة .

وقد تلقى العلم وهو فى البصرة على أيدى جلة من شيوخها : فسمع من

أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١ هـ) وأبي سعيد الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) وأبي زيد الأنصاري ومحمد بن عبيد الله العتبي وغيرهم ، وكان يروى عن الأصمعي كثيرا

وروى عنه أحمد بن محمد بن عيسى المكي وأبو عبد الله الحكيمي ، ومحمد بن يحيى الصولي، ومحمد بن العباس بن نجيح ، وغيرهم ، وقرأ عليه الأخفش والقاضي أبو بكر بن كامل وجعفر بن قدامة الكاتب . ولم يسند من الحديث إلا القليل ، والغالب على رواياته الأخبار والحكايات .

ولم يعرف له من الأولاد إلا جعفر وعبد الله أو عبيد الله الذي به يكنى أما زوجاته فلم تذكر منها إلا واحدة وردذكرها حينما حاول الزواج بأخرى من قرابته فأفسد ذلك عليه أحد مواليه . ومما يروى عن أخبار أسرته حديث دار بينه وبين أبيه بعنوان « أنا أول عاق بالبصرة » وهناك حديث دار بينه وبين ابنه حينما سأله - وهو مريض - ماذا تشتهى ؟ فقال : "يتم ! أما ماعدا هذا، فلم يذكر شيء عن حياته الاجتماعية ، إما لنقص الأخبار التي رويت عنه والتي لم تهتم إلا بالناحية الطريفة من حياته، وإما لعدم وجود أخبار تتعلق بالأسرة لهدوء حياته الزوجية هدوءاً تاما وهذا نادر بالنسبة لغيره من الأشخاص ، فما بالنا بشخص كأبي العيناء ؟ كذلك لم يرد شيء عن هيئته أو شكله أو جسمه ، إلا أنه كان قبيح المنظر ، وهذا النقص الكبير في مثل تلك الأخبار يقلل - بل يضعف - من قيمة المحاولة التي نقوم بها لرسم أو تصور شخصيته تصورا أقرب إلى الدقة .

وقد التقى في حياته بكثير من رجالات عصره : فعاصر ثمانية خلفاء بعد الأربعين هم المتوكل الذي استمر في خلافته أربعة عشر عاما فأمسى أبو العيناء في السادس والخمسين ثم عاصر ابنه المنتصر الذي حكم ستة أشهر ثم المستعين الذي خلع بعد خلافة دامت أربعة أعوام فكان أبو العيناء في الواحد

والستين ، ثم المعتز الذى خلع نفسه بعد ثلاثة أعوام فأصبح أبو العيناء فى الرابع والستين ، ثم المهتدى الذى خلع بعد أقل من عام فأضحى أبو العيناء فى الخامس والستين ، ثم المعتمـــد الذى ظل ثلاثة وعشرين عاما فأشرف أبو العيناء على الثامن والثمانين ، ثم المفوض الذى خلع نفسه فى السنة ذاتها ، وأخيرا شهد ثلاث سنوات أو أربعا من خلافة المعتضد قبل وفاته سنة اثنتين وثمانين ومائتين أو سنة ثلاث وثمانين ومائتين فى رواية جعفر بن أبى العيناء(١) والتقى بكثير من الكتاب وعلى رأسهم الجاحظ الذى صادقه ، وبالوزراء والقضاة كأحمد بن أبى دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وأبى الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير ، والشاعر أبى على البصير ، وصاعد بن مخلد النصرانى ، ومحمد بن مكرم ، وإبراهيم بن المدبر ، وإبراهيم بن عتاب ، وإبراهيم المصعبى ، وأحمد بن سعيد الباهلى ، وغيرهم كثيرون(٢) .

ولا شك أن امتداد عمره حتى بلغ قرنا إلا قليلا قد أتاح له فرصة الاطلاع على طائفة ممتدة من مواكب الدهر ، رأى فى خلالها ملوكا تعز وتذل ، وحكومات تحيا وتموت ، ، وأبطالا يسوقون الناس إلى الموت ثم يشربون من نفس الكأس ، ورجالا أكبروا النظام فأسسوا وبنوا ، وجماعات استجبوا الفوضى فهدموا وحطموا وكان لهذه الحوادث الجسام والمشاهد المتناقضة آثار جليلة عملت فى نفسه عملها ، فكانت تجارب صقلته وحنكته فعرف ضعف الإنسان وإن تولى المناصب وارتقى أعلى المراتب ، وانحصرت

---

(١) انظر ثلاث مقالات بعنوان « أبو العيناء : من ظرفاء العصر العباسى » للأستاذ صبحى ابراهيم الصالح نشرت فى مجلة الرسالة الأعداد من ٧٧١ الى ٧٧٣ سنة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر مقدمة كتابنا عن أبى العيناء وفهرس الأسماء فيه .

ثقته بالناس وتمكنت ثقته بنفسه ، ورأى بهجة الدنيا لا تستحق العناء لما قاسها بمصائبها التي تكدر صفوها ، فإذا هو يبكى على حرمانه ، ثم يزهد زهادة الفقير الضعيف ، ثم يتشكى إلى نفسه ويهتف :

تولت بهجة الدنيا ... فكل جديدها خلق
وخان الناس كلهم ... فما أدرى بمن أثق
رأيت معالم الخيرا ... ت سدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب ... ولا دين ولا خلق !

فنحس فى تلك الأبيات القلق والاضطراب بل التشاؤم يرين على قلبه وبخاصة حينما صدم بتلك الحقيقة التى تنتقل من جيل إلى جيل وهى سوء حال العلماء والأدباء إذا ما قيس بترف الأغنياء وما يعيشون فيه من بحبوحة العيش ، فيفيض شعره حسرة وهو يقول :

من كان يملك درهمين تعلمت ... شفتاه أنواع الكلام فقالا
وتقدم الفصحاء فاستمعوا له ... ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التى فى كيسه ... لرأيته شر البرية حالا
إن الغنى إذا تكلم كاذبا ... قالوا : صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا : لم تصب ... وكذبت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالا (١)

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٨ / ٣٠٢

ميزاته :

وكان أبو العيناء من أحفظ الناس ، وأفصحهم لسانا وأسرعهم جوابا ، وأحضرهم نادرة ، شاعرا [١]

وقد ضرب به أبو حيان التوحيدى المثل فى سرعة البديهة ساخرا بالصاحب بن عباد حين قال : قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو فى اللغة وعلى أبى العيناء فى البديهة [٢] .

وقال المسعودى : وكان له من اللسان وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن عليه أحد من نظرائه [٣] . وقال عنه ابن خلكان : وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لسانا ، وكان من ظرفاء العالم [٤] وبينه وبين أبى على البصير مكاتبات ومهاجاة ، وكذلك بينه وبين أبى هفان ، وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبى على البصير وغيره .

قال النويرى : وهو ممن اشتهر بالمجون ، وله نوادر وحكايات مستظرفة ومراسلات عجيبة [٥] . وقال بن كثير : له معرفة تامة بالأدب والحكايات والملح ، أما الحديث فليس له منه إلا القليل . وقال الحصرى : وكان أبو العيناء أحد الناس خاطرا ، وأسرعهم جوابا ، وأبلغهم خطاباً [٦] .

والحقيقة أن أبا العيناء ـ كغيره من ظرفاء عصره كالحمدونى ـ لم يهتم

---

(١) الفهرست ١٨١ ، تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ ـ وفيات الأعيان ١ /٧١٩

(٢) معجم الأدباء ٦ / ١٨١

(٣) مروج الذهب ٤/١٧٠

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٧١٩ ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٨٦

(٥) نهاية الأرب ٤ / ٨٤ ، البداية والنهاية (طبعه السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ ١١ / ٧٣ ، نكت الهميان ٢٦٦

(٦) زهر الآداب ٢٨١

أحد بتسجيل حياته بدقة ، اللهم إلا ما يستشف من أخباره التي جمعت في عصره وبعد عصره ، ونثرت هنا وهناك في كتب الأدب ، ولكنها لا تغني شيئا عن الإحاطة بشخصيته .

أخلاقه :

كان يشعر شعوراً تاما بالنقص والحسرة والألم لفقد بصره وبخاصة بعد أن استمتع به في شبابه وكهولته ، وكذلك باحتقار الناس إياه أو الولوع بمشا كسته على الرغم من ذكائه المفرط : فما يدل على ذلك ، ما سأله أحمد ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ قال : أبدأ بالسلام وكنت أحب أن أكون المبتدىء ، وأحدث ما لا يقبل على حديثي ، ولو رأيته لم أقبل عليه (١) .

فمن هذا نستشف تلك الحساسية ، وتلك القسوة التي كان يئن تحتها من جراء فقدان بصره، ومما يروى في ذلك أن قينة قالت له : أنت أيضا يا أعمى؟ فقال لها : ما أستعين على وجهك بشيء أصلح من العمى !

ونستطيع أن نورد أمثلة أخرى مما دار بينه وبين المتوكل حينما قال له : لولا ذهاب بصره لنا دمناه ، فألقمه أبو العيناء جوابا لاذعا يشبه جواب بشار الذي رد به على خال الخليفة المهدي (٢) .

ولما ولد له ولد ، ذهب له ابن مكرم ، فوضع له حجراً بين يديه ، ثم انصرف . فلما أحس به ، سأل عمن أحضره ، فقيل له : أبو البصير ! ولاشك أن مثل هذه الحادثة وغيرها مما يؤثر فيه تأثيرا بينا : وقد شعر بذلك المتوكل حينما سأله ألا يكثر الرقيعة في الناس ، فرد عليه أبو العيناء : إن لي في بصري

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٤ ، ومعجم الأدباء ١٨ / ٣٩٠

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية الأولى) ٣ / ١٥٩

شغلا عن ذلك ! فقال المتوكل : ذاك أشد لحقدك على أهل العافية ! ولما قال له المتوكل : ما أشد ما مر عليك من فقد بصرك ؟ رد مستهزئا : ما حرمت منه النظر إليك أيها الأمير[1].

إذن فقد ولد العمى فى نفسه — بالإضافة إلى ما استتبعه من مهاجمة الناس إياه ومحاولاتهم العبث به — ولد فى نفسه حقدا دفينا ، وبخاصة أنه كان إلى سن الأربعين مبصرا — فطبعته تلك الحالة بطابع خاص هو الاستعداد لذم الناس وهجائهم ، بل محاولته بدءهم بذلك ، وخاصة أن الناس كانوا مولعين بمشاكسته ومضايقته والهزء به ، ويدل على ذلك ما قاله المتوكل له : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . ويذكر النويرى حديث فتى أراد العبث بأبى العيناء فنهى عن ذلك ، ولكنه سأله : متى أسلمت[2] ؟ وذكر فى موضع آخر أن فتى من أبناء الكتاب — كانت فيه جرأة — قال له عابثاً : كل الناس لك — يا أبا العيناء — زوجة ، وأنت زوجة أبى على البصير ! فرد عليه أبو العيناء ردا مفحما[3] . وقال له بعض الرؤساء : لو مت لرقص الناس[4] طرباً ! وقد عبث به ابن منارة الكاتب فى حضور أبى عبد الله ابن المرزبان[5].

وقال له المتوكل — فى حديث طويل — إنك رافضى . وفى مجلس آخر : إنك قواد (مع أنه أعمى) وذلك ليضحك الناس منه. وقال له رجل هاشمى:

---

(١) زهر الآداب ٧٩٣

(٢) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٣) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٤) المرجع السابق

(٥) جمع الجواهر فى الملح والنوادر ١٨٣

إنك بغاء[1] .

أما خلقه ، فلم يصفه لنا معاصروه وصفاً دقيقاً شاملا ، ولا نعرف منه إلا ما نستشفه من خلال أخباره ، فأظهر ما يلاحظ عليه ـ كأغلب العميان ـ جراءته حتى على المتوكل : يدل على ذلك ما قاله المتوكل ـ حينما قال له : قد والله اشتقتك ـ فقال : إنما يشتاق العبد ، لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيد فمتى أراد عبده دعاه . وكذلك سخر به لما قال : لولا ذهاب بصره لنادمناه . فقال : إن أعفاني من قراءة النقوش ورؤية الأهلة صلحت لذلك . وكذلك قال له بعض الوزراء : إنك أكثرت من ذكر البرامكة ، وبالغت في وصفهم بالجود ، وإنما هذا تصنيف الوراقين ! فقال له أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك[2] ! وقد تجرأ على ابن الزيات فاضطر إلى حبسه[3] .

ولا شك أن هذه الشجاعة والجرأة من جهة ، وعقدة النقص التي تشعره بالحقد الدفين على الناس من جهة أخرى ، قد ولدت عنده من المرارة ما جعله من الطبيعي أن يحاول إزالتها أو التخفيف منها باستهتاره بالحياة والأحياء ، وقد ولدت فيه جرأته واستهتاره وخفة روحه صفة المجون التي اتسمت بها أفعاله وكثير من نواحي سلوكه إزاء الناس . فأن يقول لجارية من الجواري (أو لمغنية) : أنا أشتهي أن أنيـ . . . مع أنه كان قد جاوز الأربعين ، وصرفته الحل بسر من رأى وعدم استحيائه أو خجله من الرد الذي رده : كل ذلك قد جعله يلوح للناس مستهتراً غير آبه بالأحياء ، ويدل على عدم توقيره لنفسه . ذلك الرد الذي رد به على من سأله : لم اتخذت خادمين أسودين ؟

---

(١) زهر الآداب ٢٨٤

(٢) وفيات الأعيان ١/٧٩١

(٣) جمع الجواهر ٢٤٨

فقال : أما أسودان فلئلا أتهم بهما ، وأما خادمان فلئلا يتهما بي[1] !

وكذلك موقفه من الكلام على أبيه حينما سأله المتوكل يوماً : أكان أبوك في البلاغة مثلك ؟ فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبي ، لرأى عبداً له لا يرضاني عبداً[2] له ! واعترافه بأنه أول من أظهر العقوق بالبصرة حينما حاج أباه لما قال له : يا بني ، إن الله قرن طاعته بطاعتي فقال : «أن اشكر لي ولوالديك» ، فرد عليه قائلا : «يا أبت إن الله ائتمنني عليك ، ولم يأتمنك علي فقال تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم[3] .

خفة روحه :

وقد كان خفيف الروح حلو الحديث ، ويدل على ذلك حرص كثير من أهل عصره على حضور مجلسه وفي مقدمتهم الخليفة المتوكل الذي ألح عليه في ذلك على الرغم من رده عليه . ولما غاب عنه قال له : قد والله اشتقتك. وصحبه رجل مفلس وهو في جماعة ، فقسموا للرجل قسمة ، فاشترى دابة وكسوة ، فكان إذا حلف يقول : وإلا فدابتي حبيس ، وثيابي صدقة ، ثم قسموا له قسمة أخرى فاشترى داراً وخادماً فكان إذا حلف يقول : وإلا فدابتي حبيس ، وثيابي صدقة وغلامي حر ، وداري مقبرة . فقال أبو العيناء : طالت أيمانه ابن الزانية !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يا هذا ، أطعمناك رحمة فصيرتنا رحمة ! ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم إليه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته في خل كان حامضاً ، فأكلها وتأذى بالحموضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك ، فقال:

---

(١) معجم الأدباء ٢٩٧/١٨

(٢) زهر الآداب ٢٨٥

(٣) زهر الآداب ٧٩٣ ، معجم الأدباء ٢٩٩/١٨ .

لا تلمنى يا أمير المؤمنين فقد محت حلاوة الإيمان من قلبى ! وروى أبو العيناء أنه أدخل على المتوكل رجل قد تنبأ . فقال له : ما علامة نبوتك ؟

قال : أن يدفع إلى أحدكم امرأته ، فإنى أحبلها فى الحال . فقال : يا أبا العيناء : هل لك أن تعطيه بعض الأهل ؟ فرد عليه أبو العيناء : إنما يعطيه من كفر به !

وبات أبو العيناء عند ابن مكرم ، فجعل ابن مكرم يفسو عليه ، فقام أبو العيناء ، وصعد السرير ، فارتفع إليه فساؤه ، فصعد السطح ، فبلغته رائحته فقال : يا بن الفاعلة : ما فساؤك إلا دعوة مظلوم[1] .

وكان من صفاته سرعة الإجابة التى تتطلب الجرأة ، والذكاء النادر ، وهو أشبه بجرير حينما كان يلام على حبه للهراش فيقول : يسدؤونى ثم لا أعفو ! ومن الغريب أن ابنه أيضاً كان سليط اللسان، فقد قال لابنه وهو مريض : ما تشتهى ؟ قال : اليتم [2] .

وقد أخش لما دخل على إبراهيم بن المدبر وعنده . الفضل بن اليزيدى وهو يلقى على ابنه مسائل من النحو — فقال : فى أى باب هذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الوالدة حفظها الله !

---

(١) يشير الى الحديث المشهور عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم : يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب . وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

(أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما .)

(٢) جمع الجواهر ٢٣٠ .

فغضب الفضل وانصرف ، وكان البحترى حاضراً فصاغ هذه العبارة شعراً قائلا :

جل ما عنده التردد فى الفا   عل من والديه والمفعول [١]

وقد كان وضاعاً : فوضع حديث فدك،وصنع خبر ابن رباح ، ونسبه المسعودى إلى أبى تمام خطأ [٢] .

وأخيراً نذكر كلمة الصفدى عن قوة حفظه إذ قال : قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى : منهم أبو العيناء وأبو العلاء .. والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه، ولا يعود متشعبا بما يراه ،ونحن نرى الإنسان - إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه ، فيقع على ما شرد من حافظته . وفى المثل : أحفظ من العميان [٣] .

والظاهر أنه عاش أغلب حياته فقيراً ، لأنه سأل كثيراً ممن اتصل بهم وشكا إليهم [٤] عوزه ، فقد دخل على الحسن بن سهل ، فشكا ضيقته ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فقال : أصلح الله الوزير ، لا أستقل قليلك ولا أستكثر كثيرك ! [٥] .

---

(١) زهر الآداب ٢٨٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/١٩ وانظر الخبر فى نهاية النص من أخبار أبى العيناء التى حققناها ، وانظر ما عرف عن الجاحظ من الوضع فى رسالة البخلاء لطه الحاجرى طبع دار المعارف الأولى ص ٤٠ .

(٣) نكت الهميان للصفدى ص ٨٣ .

(٤) أخبار الظراف لابن الجوزى ص ٥٨ .

(٥) انظر طبقات ابن المعتز ص ٤١٥ .

فن أبي العيناء :

كان أبو العيناء راوية للأخبار والقصص ، ونوادر الأدب يتميز بخفة الروح ، وعذوبة الحديث ، ولاذع الكلام ، مما كان يزيل صدأ القلوب ، بحلاوة طرائفه ونوادره وتهكمه ، فأقبل الناس عليه : يحدثونه ويسمعون منه ، وقد زاد ذلك مهارته في صياغة ما يروى بالأسلوب الذي يجب أن تصاغ به النادرة أو الفكاهة ويهش لسماعها النفس ، إذ ليس كل راو قادرا على حفظ النادرة أو صياغتها بالطريقة التي تهفو لها قلوب الناس ، وتجعلهم يقبلون على سماعها ، وقد لاحظت ذلك — وسوف أبينه في إبانه — حينما جمعت أخباره وحققتها ووجدت أن بعض الرواة — في الكتب المتأخرة — يصوغون النادرة ويروونها بطريقة أو بأسلوب يفسدها كل الإفساد ويبعدها عن الروح الفكاهي مما ينفر من استساغتها .

إذن ، فرواية النادرة في الحقيقة فن لا يستطيع إتقانه إلا من وهبه الله الميزات التي تعينه على ذلك ، وقد كان أبو العيناء من المبرزين في ذلك إلى حد أن قال عنه ابن خلكان : كان من ظرفاء العالم ! وقد بالغ في نعته بذلك لفرط إعجاب الناس به ، كما يعجب الناس في العصر الحديث فيطلقون على أم كلثوم « كوكب الشرق ! » .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدى ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هي ؟ قال : كتب الجاحظ وأشعار المحدثين ، ونوادر أبي العيناء ! [1] .

وأكثر كتب الأدب رواية لأخباره ونوادره : معجم الأدباء [2] لياقوت ،

---

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٧٦

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١/٨٢، ٦ / ١٨١ ، ٢٧٩ ، ٧ / ١٧٧ ، ٨/٢٥ ، ١٢/٢٥٥ ، ١٦/٧٩ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٢٧ ، ١٧٨ ، ١٧ / ٣٢ ، ١٧٨ ،

ثم زهر الآداب [١] للحصرى . أما الأمالى للقالى والأغانى [٢] فلم يذكر فيهما إلا لماما . وفى معجم الأدباء ذكر أنه حدث عن وهب بن جرير ، وقعنب الباهلى ، وكيسان ، وخلف الأحمر ، والفتح بن خاقان ، والجاحظ ، والأصمعى وأحمد بن أبى دواد ، وإبراهيم بن رباح ، ومحمد بن يحيى .

ومما رواه أبو العيناء من النوادر قال : دخل أبو الصقر - قبل وزارته - على صاعد وهو الوزير حينئذ ، وفى المجلس أبو العباس بن ثوابة ،

فسأل الوزير عن رجل ، فقال : أنفى (يريد : نفى)

فقال ابن ثوابة : فى الخرء ! .

فتضاحك به أهل المجلس ، فقام أبو الصقر مغضباً .

وروى أيضاً هذه النادرة : استودع رجل عند إمام محلته قارورة زئبق ، فجحده [٣] إياها ، وقام يصلى بهم فى شهر رمضان ، وقرأ : « قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون [٤] » . . . وكررها . فقال الرجل : قارورة زئبق ! وحكى أبو العيناء ، قال : اجتمعنا فى مجلس ابن الأعرابى - ومعنا الجاحظ والجماز - نتناشد الأشعار ، ونتذاكر الأخبار ، ووقع الجاحظ والجماز فى كياد وملاحاة . . . [٥] إلخ . وروى أيضاً قصة طريفة بين الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات [٦] .

---

(١) زهر الآداب للحصرى ١٧٢ - ١٧٣ ، ٦٩٨ ، ٧٨٨ ، ٨٨٢ ، ٢٧٧

(٢) الأغانى ٨ / ١٥ والأمالى ١ / ٧٠ .

(٣) أى أنكرها .

(٤) الآية ٧١ من سورة يوسف

(٥) ثمار القلوب للثعالبى ص ٤٦٤

(٦) أدب الجاحظ للسندوبى ص ١٧١ .

الشعر :

لم يروله الرواة إلا مقطعات قليلة فى الشعر الغزلى ، ذكر له ياقوت فى معجم الأدباء منها تسع مقطوعات قصيرة ، وذكر بعضها فى كتب متفرقة مما اهتمت بأخباره .

أما كتابته فقد كان له رسائل إخوانية يبعث بها إلى إخوانه ، وغرضه غالبا هو استمناحهم بعض العطاء أو الهدايا ، وقد ذكرت فيما جمعت من أخباره رسالتين طويلتين إحداهما يذم فيها أحمد بن الخصيب على لسان الكتاب والرؤساء والقواد وغيرهم ، وهى طويلة ، والأخرى عزاها إلى بعض الأعراب يتحدث فيها عن أكثر أهل عصره ومنهم إبراهيم بن رباح الذى يقصده أبو العيناء بهذه الرسالة ، وقد جمع له الأستاذ أحمد زكى صفوت كثيراً مما أنشاه [1] . وقد قال فيه محمد بن مكرم : من زعم أن عبد الحميد أكتب

من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع ، فقد وهم .

سخرية أبى العيناء :

ورث أبو العيناء سلاطة اللسان والجرأة عن أجداده [2] وتمكنت منه عقدة الشعور بالنقص بسبب عاهته التى ابتلى بها بعد بلوغه الأربعين ، تزيد على ذلك ما جبل عليه من الاحساس الفكاهى Sense of Humour ، فكانت تلك العوامل هى الأسس القويمة التى جعلت منه الأديب الساخر المعاصر لصنوه فى ذلك ، وأعنى به الجاحظ .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج٤ص ١٥٢ — ١٥٥ — ٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(٢) وقد مر خبر ذلك فى الصفحات السابقة من الكتاب .

وتنقسم سخريته قسمين : أولهما وهو الأكثر والأشهر ويظهر فى ردوده الساخرة إما مبتدئا وإما مدفوعا إلى ذلك بسبب إغاظة الناس إياه، لعدم ذكائهم وحمقهم ، أو لسبهم إياه ومحاولتهم النيل منه ، أو لعدم إعطائه ما يطلب — كالحطيئة الشاعر المخضرم المشهور — ولذلك رد على المتوكل حينما سأله : إلى كم تمدح الناس وتذمهم ؟ ، فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وقد قال له مرة أخرى : بلغنى عنك بذاء ، أو بلغنى أن فيك شرا .

والقسم الثانى من سخريته هو رسائل كتبها فى هجاء بعض الأشخاص ، كما حمد بن الخصيب وعيسى بن فرخا نشاه وغيرهما .

(١) ردوده الساخرة :

وهو فى ذلك يشبه عامرا الشعبي وكان من كبار الحفاظ [1] والشاعر حافظا إبراهيم — شاعر النيل — الذى جرت النكتة الساخرة العامية على لسانه ، وكذلك الشيخ عبد العزيز البشرى [2] والساخر الأيرلندى برناردشو، وهو من هذا الجانب يعتبر الأديب الشعبي الساخر بالرد السريع من غير حاجة إلى تفكير طويل أو متئد ، لا يجلس الجلسة الطويلة ويقدح زناد فكره لكى يرد على من غاظه ، بل يسدد إليه ويقذفه بالكلمة اللاذعة ، التى تساوى قصائد هجائية بأكملها ، فيكون لها من قوة الرنين ، ما يملأ المجلس ضحكا مجلجلا ، وما يجعل الناس يخافون منه ويخشون هذه الخاصية اللسانية اللاذعة ، وقد سخر برناردشو من الشعب الانجليزى كثيراً بسبب احتلالهم بلاده فمما قاله

---

(١) عاش بين سنتى ١٩ - ١٠٣ أو ١٠٩ هـ وكان شديد الذكاء ، سريع الجواب سديده ، وكان خفيف البدن صغير الجسم فقال متهكما تعليلا لذلك : لقد زوحمت فى الرحم ؟

(٢) مؤلف كتاب « فى المرآة » المطبوع فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٧ م وغيره .

لسيدة إنجليزية لم تكن تعرفه — فى قطار — وقد سألته : « أظنك انجليزياً من . . . » فرد عليها سريعاً : لا . أنا (بنى آدم)[1] No , I am a human Being

أما أبو العيناء ، فكان صخو « شو » فى هذا القبيل ، وقد استخدم عدة عناصر فى سخريته كالتضمين وبخاصة الآيات القرآنية ، كما فى النادرة الآتية : « لما سلم نجاح بن سلمة إلى موسى بن عبد الملك الأصبهانى ليستأديه مالا ، عاقبه فتلف فى المطالبة . فلقى بعض الرؤساء أبا العيناء وقال له : ما عندك من خبر نجاح بن سلمة ؟

فقال : « فوكزه موسى فقضى عليه » وكان استخدامه هذه الآية وفيها اسم القاتل وما فعله بالضبط استخداما رائعاً لا يتمكن منه إلا من أوتى حظاً كبيراً من الذكاء .

وبلغت كلمة أبى العيناء السابقة موسى بن عبد الملك ، فلقيه فى الطريق وتهدده ، فقال : أبى تولع[2] ؟ والله لأقومنك . فقال أبو العيناء ساخراً : « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ » ، وقيل له : إن ابن نوح النصرانى عاتب عليك .

فقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

وقدم صديق له من بعض الأعمال السلطانية ، فدعاه إلى منزله وأطعمه ، وجعل الرجل يكثر الكذب . فالتفت أبو العيناء إلى من كان معه فقال : نحن كما قال الله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » .

ودخل عليه يوما موسى بن عبد الملك — وعنده نجاح بن سلمة ، وأحمد

---

(١) آثرنا هذا التعبير العامى لأنه التعبير المستساغ لترجمة النكتة .

(٢) تولع : تستخف .

ابن إسرائيل - يسارانه ، فقال : يا أبا الحسن ، « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » وقال نجاح : كذبت يا عدو الله . فقال : « لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

وقال له يوما المتوكل : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك .

فقال : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . »

* * *

وكان أحيانا يستخدم المفاجأة فى السخرية ، فن ذلك قوله لصاعد : أنت خير من رسول الله ! فقال : ويلك . كيف ؟

قال : إن الله تعالى قال له : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . وأنت فظ ، وإسنا ننفض ا[1]

ونلاحظ استخدامه الجناس والسجع فى جملته الأخير ، بين (فظ ، ننفض) مما يزيد من السخرية كما يفعل أكثر الساخرين بالنكتة الجناسية أو التورية ، ومن هذا القبيل تلك القصة التى عبث فيها بصاعد :

قال له صاعد يوماً : ما الذى أخرك عنا ؟

قال . بنيتى !

قال : وكيف ؟

قال : قالت لى يا أبت قد كنت تغدو من عندنا فتأتى بالخلعة السرية ، والجائزة السنية ، ثم أنت الآن تغدو مسرفاً وترجع معتما ، فإلى من ؟

قلت : إلى أبى العلاء ذى الوزارتين ؟

قالت : أيعطيك؟

قلت : لا .

(١) مع مراعاة نطقها ظاء كما تنطق فى بعض اللهجات (فى نجد والعراق)

قالت : أيشفعك ؟

قلت : لا .

قالت : أفيرفع مجلسك ؟

قلت : لا .

فقالت : يا أبت « لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ »

ودخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ـ وهو يلعب بالشطرنج ـ فقال : فى أى الحيزين أنت ؟

فقال : فى حيز الأمير ـ أيده الله .

وغلب عبيد الله ، فقال : يا أبا العيناء ، قد غلبنا ، وقد أصابك من الندب خمسون رطلا ثلجاً ، فكن فى حيلتها .

قال : فقام ومشى إلى ابن ثوابة ، وقال : إن الأمير يدعوك .

فلما دخل قال : أيد الله الأمير ، قد جئتك بجبل همدان وماسبذان ؛ فخذ منه ما شئت !

* * *

وقد تكون سخريته بجملة قصيرة مضحكة كما فعل صاعد لما استوزر عقب دخوله من النصرانية فى الإسلام ، فلما صار إلى بابه قيل له : يصلى . فعاده ، فقيل يصلى فقال : « معذور ، لكل جديدة لذة » !

وقال له ابن مكرم : كان ابن الكلبى صاحب البريد يحب أن يشم الخرا ؟

فقال : لو رآك « لترشفك » !

وقال يوما لرجل سلم عليه : من أنت ؟

قال : رجل من ولد آدم .

قال : ادن مني ، عانقني ، فما ظننت أنه بقي من هذا النسل أحد !

وزحمه رجل على حمار بالجسر ، فضرب بيده على آذان الحمار وقال : يا إنسان قل للحمار الذى فوقك يقول : الطريق !

ووعده ابن المدبر أن يحمله على بغل . فلقيه فى الطريق ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟

قال : بلا بغل !

فضحك من قوله ، وبعث به إليه .

* * *

ومن تصويره الساخر السريع ما قاله لابن الجماز المغنى يوما وهو راكب على حمار صغير فقال: لقد ساءنى حين اضطرك الدهر إلى ركوب أصغر أولادك !

وقال له يوما : هل تذكر سالف معاشرتنا ؟

قال : إذ تغنينا ونحن نستعفيك !

* * *

وأكثر نوادر أبى العيناء الساخرة كان يقولها ساخراً بمن أرادوا أن يسخروا به : قال له أبو عبد الله بن المرزبان : يا أبا عبد الله ، لم لبست جباعة؟

قال : وما الجباعة ؟

قال : التى بين جبة ودراعة ! .

قال أبو العيناء : إنك صفديم !

قال : وما صفديم ؟

قال : الذى هو ما بين صفعان ونديم !

وقال له الكافى كيف أكتب اللؤم ؟ بلام أو لامين ؟

فقال : صور نفسك !

وقال له السدرى: أشتهى أن أرى الشيطان .

فقال : انظر فى المرآة !

ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم إليه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته فى خل كان حامضا ، فأكلها فتأذى بالحموضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك .

فقال : لا تلمنى يا أمير المؤمنين : فقد محت حلاوة الإيمان من قلبى !

وكان يميل فى بعض الأحيان إلى استخدام الجناس فى سخرياته كقوله لما تقنطر بعبيد الله فرسه : قتل الجواد الجواد !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : ياهذا أطعمناك رحمة فصيرتنا رحمة!

وقدم ابن مكرم من سفر ، فقال له أبو العيناء : ما أهديت لى ؟

قال : قدمت فى خف .

قال : لو قدمت فى خف لخفت[1] روحك !

ومن ردوده اللاذعة ما قاله للمتوكل حينما قال : لولا ذهاب بصر أبى العيناء لنادمناه .

فقال : قولوا له : إن أعفانى من قراءة النقوش ورؤية الأهلة صلحت لذلك.

ولما غضب من الجاحظ بسبب خطاب توصية طلبه منه وكتب له الجاحظ: «كتابى إليك سائلى فيه من أخافه لمن لا أعرفه، فافعل فى أمره ما تراه، والسلام» عاتب الجاحظ على ذلك ، فقال له : لا تنكر ذلك فإنها أمارة بينى وبينه إذا عنيت برجل .

فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشدة[2] .

---

(١) وفى رواية : لخفت .

(٢) ولد لرشدة : ضد لزنية .

قال . أتشتمنى ؟

قال : إنها أمارة لى عند الثناء على إنسان !

وزار الجاحظ وهو متقلد ديوان الرسائل فى خلافة إبراهيم بن العباس، فلما جاء إلى الديوان ، جاءه أبو العيناء ، فلما أراد أن يخرج من عنده تقدم إلى من يحجبه أن لا يدعه يخرج ولا يدعه يرجع إليه إن أراد الرجوع . نخرج أبو العيناء يريد الانصراف، فمنع من الخروج ومن الرجوع إلى الجاحظ، فنادى أبو العيناء بأعلى صوته : يا أبا عثمان ،قد أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك!

ومما يشبه هذا ما قاله لمحمد بن عبد الملك حينما سجنه لكثرة كلامه : « قد علمت أن الحبس لم يكن من جرم تقدم إليك ،ولكن أحببت أن تريني مقدار قدرتك على ، لأن كل جديد يستلذ ، ولا بأس أن ترينا من عفوك حسب ما أريتنا من قدرتك » فأمر بإطلاقه .

فلقيه بعد أيام،فقيل : يا أبا العيناء : ما تزورنا حسب نيتنا فيك .فقال: أما نيتك فمتأكدة ، ولكن أرى أن الذى جدد الاستبطاء فراغ حبسك فأحببت أن تشغله بى !

وقال له عبيد الله بن سليمان : إن أخبار البرامكة فى السخاء وكثرة العطاء أكثرها من تصنيف الوراقين وأكاذيبهم .

فقال : ولم لا يكذبون على الوزير - أيده الله ؟ !

وكان أبو العيناء كثيراً مايستعمل الجملة الاعتراضية الدعائية فى سخريته كالمثال السابق ، وكما قال للفضل بن اليزيدى وهو يلقى على ابن لإبراهيم ابن المدبر مسائل من النحو : فى أى باب هذا؟قال:فى باب الفاعل والمفعول به .

قال : هذا بابى وباب الوالدة - حفظها الله ! !

وقال له رجل : ما أنتن إبطك !

فقال : ناقتك - أعزك الله - بما يشبهك !

ودخل أبو العيناء على بعض الرؤساء بكرة ، فاستسقى ماء ، فقال له الرجل : أفي هذا الوقت تعطش ؟

قال : أصلحك الله هذا أمان لك من الغداء !

ووعد محمد بن عبيد الله . بن خاقان أبا العيناء أن يرسل إليه دابة، فتأخر عنه دون أن يفي له بوعده ، ثم لقيه ، فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال : راجل ، أصلحك الله !

(٢) القسم الثانى من سخرياته ، رسائله :

وإذا تصفحنا ما بقى من رسائله المكتوبة ، وجدناه يهدف بها إلى طلب معونة من أحد الولاة أو كبار رجال الدول ، أو أنها هجاء مباشر أو سخرية.

ولا يعنينا فى هذا المقام إلا النوع الثانى .

ونلاحظ عليه ميله إلى الحدة أو التعريض حتى فى موقفه موقف السائل الذى يبغى العطاء ، كما قال لأبى الوليد بن أبى دؤاد :

« جعلت فداك ، مسنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا المودة والشكر ، فإن تعطنا أكن كما قال الشاعر :

أنا الشهاب الذى يحمى دياركم لا يخمد الدهر إلا ضوؤه يقد

وإن لم تفعل : فلسنا ممن يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » .

ويسدد سهام سخريته إلى أكثر أهل عصره ، ولكنه ينسبها إلى غيره لما له من باع طويل فى الاختلاق والوضع :

فمن ذلك أنه كتب رسالة يثنى فيها على إبراهيم بن رباح ، ولم يفرده

(١) الآية ٥٨ من سورة التوبة .

بالرسالة وحده ، بل عرض له فى أثناء ذمه أكثر رجالات عصره ، وقد نسب هذه الرسالة إلى أحد الأعراب ، وزعم أنه لقيه فى الصحراء ، وسأله عن أهل عصره ، مبتدئاً بالخليفة ثم بغيره من الولاة والقضاة والقواد والكتاب ويصوغ ذمه لهؤلاء فى جمل قصيرة موجزة مسجوعة ، فمما قاله عن ابن الزيات : ذاك رجل وسع الورى شره ، وبطن الأمور خبره ، فله كل يوم صريع لا تظهر فيه آثار مخلب ولا ناب ، إلا بتسديد الرأى .

وقال عن الفضل بن مروان : ذاك رجل حشر بعدما قبر ، فله نشرة الأحياء ، ومعه خفوت الموتى ! . وقال عن أبى الوليد : إخاله كبش الزنادقة ، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله ، خضم [1] فرتع [2] ، وإذا أمر بنقضه أمطر فأمرع [3] .

وهناك رسالة أخرى أطول من السابقة ، تتضمن ذم رجل واحد هو أحمد بن الخصيب ، وقد أنطق جل أهل عصره بذمه ، بطريقته السابقة وهى الجمل الموجزة ، المسجوعة غالبا : فقال على لسان أبى العباس محمد بن عبد الله بن طاهر : مازال يحرق ولا يرتع ، ومازلت منذ ارتفع ، أتوقع له الذى فيه وقع . وقال على لسان جعفر بن عبد الواحد : أحسن حسناته سيئة ، وأصغر سيئاته كبيرة [4] .

وذمه على لسان هرون بن عيسى فقال : كانت دولته دولة المجانين ، خرجت من الدنيا والدين . وقال على لسان موسى بن بغا : لولا أن القدر

---

(١) الخضم : الأكل ، أو بأقصى الأضراس ، أو ملء الفم بالأكل .
(٢) رتع : أكل بشره
(٣) أمرع الوادى : أكلأ .
(٤) أى كبيرة من الكبائر .

يغشى البصر ، لما نهى فينا ولا أمر ! وقال على لسان صالح بن وصيف ـ شامتاً هازئاً ـ تجبر وتكبر وتذمر ، ودبر ، فدمر ! فكأن أبا العيناء هنا يلخص قصته الطويلة وتاريخ حياته مع الناس فى أربعة أفعال ثم يختمها بسخرية القدر به ، « فدمر » وقد استمد سخريته فى أغلب هذه الجمل من قصرها ، ومما زودها به من سجع لاذع كما جاء فى الجملة السابقة ، وكما جاء على لسان سليمان بن يحيى : لم تتم له نعمة ، لأنه لم تكن له فى الخير همة! وقال ساخراً على لسان الفضل بن مروان : فما أجهل من يستجهله . أو لم يخبر بأمر يجهله؟

وقال على لسان ميمون بن إبراهيم : لو تأمل رجل أفعاله فاجتنبها لاستغنى عن الآداب أن يطلبها ! وقال على لسان ابن أبى الشوارب: كان يحمد المحسنين ويجتنب أفعالهم ، ويذم المسيئين ويعمل أعمالهم !

وحاول أبو العيناء أن يشنع عليه ، فقال على لسان إبراهيم بن المدبر : كنت يوما عنده ، فقدم الطعام — وفيه هليون (١) — فأكب عليه ، فقلت :أراك راغبا فى الهليون .

فقال : إنه يزيد الباه .

وقال على لسان آخر : كنت إذا وقع لفظه فى سمعى، أحسست النقصان فى عقلى !

وقال على لسان بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب ، وقد نطق بنوك (٢) عجيب .

وأخيراً أذكر ما قاله على لسان خالد بن صبيح :هو كما قال :فلان ملأ

---

(١) نبت حار رطب .

(٢) النوك : الحمق .

يساره سلحا ، وبسط يمينه سطحا ، وقال : أمطروا فى سطحى ، وإلا لطختكم بسلحى !

والظاهر أن هذه الرسالة أطول مما أورد فى نثر الدرر ، لأنها أوردت بعض زيادات فى جمع الجواهر فى الملح والنوادر : ثم قال فى نهايتها : « وهى أطول من هذا » .

* *

وسخر مرة من أبى الصقر الوزير حينما تأخر توقيعه عنه برسومه ، فكتب إليه . . . أما والليل إذا عسعس ، فالبنان لبنات الدنان ، وملامسات الحسان ! وأما والصبح إذا تنفس ، فالبنان للعنان ، ومؤامرات السلطان ، فمن أبو العيناء القرنان ؟ (١)

وسخر ذات مرة من صديق له تولى ناحية ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنى لا أعظك بموعظة ، لأنك غنى عنها ، ولأنك أعلم بها منى ! ولا أرغبك فى الآخرة لمعرفتى بزهدك فيها ! ولكنى أقول كما قال الآخر :

أحار بن بدر قد وليت ولاية ... فكن جرذا (٢) فيها تخون وتسرق
وكاثر تميما بالغنى إن للغنى ... لسانا ، به المـــرء الهيوبة ينطق

واعلم أن الخيانة فطنة . والأمانة خرق ، والجمع كيس ، والمنع صرامة ، وليست كل يوم ولاية ، فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً ، فمن الذود إلى الذود (٣) إبل ، والولاية رقدة فتنبه قبل أن تنبه !

---

(١) القرنان : الديوث المشارك فى قرينته .
(٢) الجرذ : ضرب من الفأر .
(٣) الذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

ولا يخفى مادسه أبو العيناء فى هذه الرسالة الساخرة من تهكم وما استخدمه من أساليب السخرية المختلفة : كالاستشهاد ، والخبر والنهى والأمر الخارجة عن معناها ـ كما يقول البلاغيون القدماء — إلى السخرية والهزء .

* * *

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ نورد سخريته عن طريق الوصف المضحك لهدية : إذ حمله عبد الله بن يحيى بن خاقان على دابة ، فأخذها منه ابنه محمد ، وقال : أبعث إليك بخير منها .

فتأخر عنه ذلك ، فلقيه ، فقال ، : ما خبرك ؟

فقال : بخير ، يامن أبوه يحمل ، وهو يرجل !

فقال : أنا أنفذ إليك بغلا فارها بغير تأخر .

فتأخر عنه . . . ثم لقيه ، فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال ـ ساخراً ـ راجل ـ أصلحك الله !

فضحك ، وأنفذ إليه بغلا ، وزعم أبو العيناء أنه غير فاره ، فكتب إلى أبيه ساخراً من هذه الدابة ، واصفاً إياها قائلا : أمر لى بدابة تقف للنثرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عجفاً ، والعاشق المجهود دنفا ، وقد أذكرت الرواة عروة العذرى ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله . . . إلخ

ومن الصوره المضحكة وصفه قائلا : حباقه [1] مقرون بسعاله ، فلو أمسك لترجيت أو أفرد لتعزيت ، ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور ،

(١) الحباق : الضراط .

والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ثم يبالغ فى إحاطة الصور بهذا الإطار المضحك : تضحك من فعله النسوان : ويناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نقوا له الشعير !

وينتقل إلى صورة مضحكة ثالثة : قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار . فلو أعين بنطق ، لروى بحق وصدق ، عن جابر الجعفى ، وعامر الشعبى .

وهكذا نرى أبا العيناء بجمله الموجزة السريعة ، وبسجعه الظريف الذى لا يكاد يتركه ، يحاول السخرية بمحمد بن عبيد الله وهو يتندر بذلك البغل الذى أهداه إليه .

٥ ـ الحمدونى

هو إسماعيل بن إبراهيم ، ويختلف الرواه فى اسم جده : أهو حمدون أو حمدونة أو حمدويه، وينفرد أبو الفرج الأصفهانى [١] (ت ٣٥٦ هـ) برواية حمدويه بضم الدال أو فتحها ، وتابعه فى ذلك ابن خلكان فقال الحمدوى . وكان حمدونه أو حمدويه جده صاحب الزنادقة أيام الرشيد [٢] والغريب أن جميع ما بأيدينا من مصادر قد أجمعت على إهمال تحديد سنة وفاته وبالتالى الفترة التى عاش خلالها ولم تشف غلتنا بأخبار هذا الشاعر ، لكى توضح شخصيته أكثر مما نراها الآن. غير أننا يمكن أن نحدد جزءا من الفترة التى عاش خلالها إذا رجعنا إلى الأخبار التى تذكر اتصاله ببعض شخصيات معاصرة له : فهو قد سمع دعبل بن على (ت سنة ٢٢٠ هـ) يقول : أنا ابن قولى :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وسمع أبا تمام (ت سنة ٢٣١ هـ) يقول : أنا ابن قولى :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وذكر خالدا الكاتب (المتوفى سنة ٢٣١ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ) فى إحدى مقطوعاته البائية ، والتقى بالمبرد (٢١٠ - ٢٨٦ هـ)و بسعيد بن حميد سنة ٢٤٩ هـ وبعبد الصمد بن المعذل الشاعر (ت حوالى سنة ٢٤٠ هـ) والخليفة العباسى المتوكل فيما بين سنتى ٢٣٥ هـ، ٢٤٩ هـ

---

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠ / ٢٢٦ ووفيات الأعيان (بيروت) ٧ / ٩٥ والأنساب للسمعانى ٤ / ٢٤١ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ص ٥١٣ .

إذن نستطيع أن نحدد تلك الفترة مطمئنين بثلاثين عاما تنحصر بين سنتى وفاة دعبل سنة ٢٢٠ هـ ووفاة المتوكل ٢٤٩ هـ ولا بد أن تمتد سنوات قبلها ويجوز بعدها أيضاً .

ومازلت أظن ظنا لا يرقى إلى مرتبة اليقين أن هناك صلة بينه وبين شخصية تدعى « حمدون بن إسماعيل بن داود » يقال إنه كان نديم المتوكل العباسى وتوفى سنة ٢٥٤ هـ

هكذا ضن معاصرو لاعلينا وعليه بإلقاء الضوء على شخصيته، فلم يذكره أمثال المبرد فى كتبه مع أنه روى عنه أبياته فى الشاة والطيلسان ، وكذلك عبد الله بن المعتز صاحب الطبقات (ت ٢٩٦ هـ) ، أو أبو الفرج أقرب المعاصرين له شبها به ، وما أجدر كتابا كالأغانى أن يحيط به خبرا !

ويبدو أن الحمدونى شاعر خاض فى أكثر من غرض من أغراض الشعر : فروى له شعر غزلى ، ومنه قصيدة يعارض بها لامية تأبط شرا

إن بالشعب الذى دون سلع　　لقتيلا دمـــه ما يطل

تبلغ ٢٨ بيتا يقول فى مطلعها :

لك ألحاظ مـــراض ودل　　غير أن الطرف عنها أكل[1]

وله أبيات قافية منها :

زعموا أن من تشاغل بالحب　　سلا عن حبيبه وأفاقا

كذبوا ما كذا بلونـــا ولكن　　لم يكونوا فيما أرى عشاقا[2]

وروى له ابن الشجرى فى حماسته بيتين فى العود[3]

---

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٣ / ٢٤ - ٢٦

(٢) المرجع السابق ٥ / ٣٤٣ .

(٣) حماسة ابن الشجرى ص ٢٦٠ .

وله فى « سعيد بن حميد » وقد ولى ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ هـ

لبس السيف سعيد بعـدما عاش ذا طمرين لا نوبة لـه
إن لله لآيات وذا آية الله فينـا منزلـه [1]

والظاهر أنه كان فقيرا ، فكان يتكسب من مجونه ومن تظاهره بالحمق ولذلك عذله بعض أصحابه على تحامقه ، فقال : حماقة تعولنى ، خير من عقل أعوله ، ثم أنشد :

عـذلونى على الحماقة جهلا وهى من أعقلهم ألذ وأحـلى
حمقى اليوم قائم بعيـالى ويموتون - إن تعاقلت - ذلا [2]

والظاهر أنه كان ماجنا ، وقد روى قصة لوطى وبغاء معه ، جرت ببغداد [3] وأغلب الظن أن شطرا كبيرا من حياته كان بالبصرة ، لما لذلك نسبه إليها ابن خلكان [4] .

وكان مولعا بالهجاء ، فرويت له أبيات نونية تعرض فيها للشاعر الهجاء الخبيث عبد الصمد بن المعذل الذى هدده فامتلأ فرقا منه وقال :

ترح طعنت به وهم وارد إذ قيل إن ابن المعذل واجـد
هيهات أن أجد السبيل إلى الكرى وابن المعذل من مراحى حارد [5]

ولكن للسخرية غلبت عليه ، فقال فى ثقيل :

---

(١) الطبرى حوادث سنه ٢٤٩ هـ .
(٢) غرر الخصائص للوطواط ص ١٣٣ .
(٣) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان فى ترجمة يوسف بن رافع ٦/٨١ ص ٥٢٩
(٥) الأغانى (دار الكتب المصرية) ١٣ / ١٣٥ وانظر هجاءه الذى رواه الحصرى فى زهر الآداب ١٠٤٩ .

مشى ، فدعا ، من ثقله الحوت ربه وقال : إلهى زيدت الأرض ثانيه ا
وقال :

سألتك بالله إلا صــدقت — وعلمى بأنك لا تصـــدق !
أتبغض نفسك من ثقلهـــا — وإلا فأنت إذن أحمـــق [1]

وقال فى قينة ذات صنان :

من كان لا يدرى لها منزلا — فقل له يمشى ويستنشق [2]

ولكنه اشتهر بشعره الذى قاله متهاجناساخرا فى شاة سعيد، وطيلسان [3] ابن حرب .

أما شاة سعيد: فقد أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جواسبيدان وكانت أضحية مهزولة ، فاستوحى ما قاله أبو الخطاب البهدلى فى خروف أهدى إليه وكان مهزولا [4]

---

(١) زهر الآداب للحصرى ص ٤٤٢ وجمع الجواهر له ص ٣٢
(٢) ثمار القلوب للثعالبى ص ٨٢
(٣) الطيلسان من لباس العجم أصله تالسان
(٤) وهذا هو رجز أبى الخطاب كما ذكره ابن الجراح فى كتاب الورقة ص ٦٢

أهدى إلينا معمر خروفا
كان زمانا عنده مكتوفا
يعلفه الكشيح والسفوفا
والفارقون بعده دوفا
حتى إذا ما صار مستجيفا
أهدى فأهدى قصبا ملفوفا !
جلل جلدا فوقه وصوفا
وكان من فعاله موصوفا

فقال عدة مقطعات . قال الثعالبي : كان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد لكثرة ماقال الحمدونى فيها[١] : كذلك استوحى الحمدونى قول أبى حمران السلمي فى طيلسانه ، وكان قد أخلق حتى بلى :

يا طيلسان أبى حمران قد برمت　　بك الحياة فما نلتذ بالعمر
فى كل يوم له رفا يجـــدده　　هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيـــد أو لجمعته　　تنكب الناس أن يبلى مع النظر[٢]

والطيلسان الذى ظفر بتهكم الحمدونى هو طيلسان أهداه إليه أحمد ابن حرب المهلبي — وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه ـ فلم يرضه ، قال أبو العباس المبرد : وأنشدنا فيه عشر مقطعات استحليا مذهبه فيها ، فجعلها فوق الخمسين ، فطارت كل مطار ، وسارت كل مسار[٣] وروى ابن شاكر الكتبي أنها « مئتا مقطوع[٤] » ، ولكن الأصح هو ماروا ابن المعتز فى طبقاته قال : وله فيه قريب من مائتى بيت فى خمسين قطعة تفنن معانيها[٥] وقد جمعت هذه المقطعات وأحصيتها فوجدتها ثمانى مقطعات فى الشاة ، وتسعاوعشرين قطعة فى الطيلسان تبلغ كلها حوالى ١٦٠ بيتا . وقد بذلت جهدى فى استقصاء جمعها وتحقيقها ، وسوف أذيل بها هذا البحث .

ويعتمد الحمدونى فى تهكمه بالشاة أو سخريته بصاحبها سعيد ، على المبالغة فى وصفها بالهزال ، وجعلها تتغنى دائما — كأنها عاشقة ـ بحبيبها ،

---

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ووفيات الأعيان (بيروت) ٩٨/٧ وفوات الوفيات ١٧/١ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص ٤٨٢ .

(٤) فوات الوفيات ١٧/١

(٥) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١

ألا وهو العلف الذى حرمت منه ، فحينما تراه، تتحرك عواطفها وتجيش فتتغنى ببيت يضمن من إحدى الأغانى المشهورة فى عصره ، وبهذا يشخص الشاة، ويجعلها عاشقة مدنفة ، ولهذا فهى « تضو » أى مهزولة دائما وليست إلا جلداوعظاما .

والثقافة الدينية تسيطر عليه دائما فيتكىء عليها ويتخذها مادة لخياله وتشبيهه : فابن سعيد يصبح من وراء الحجرات كشاعر بنى تميم الذى صاح بالنبى ﷺ أن يخرج إليهم لمنافرته ومفاخرته، ويذكر قصة أصحاب الجنتين ، والسامرى الذى عبد العجل ، ويستخدم آيات كثيرة فى التضمين : « الروح من أمرى ربى » « كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » « أئذا كنا عظاما نخره »وهناك مقطوعة رائية أقامها على تضمين خمس آيات من سورة القمر هى ١٩ - ٢١ - ٦ - ٧ - ٢٩

وهو يثبت نفاذ شاعريته بعبقريته فى اقتناص التشبيه الرائع: الطيلسان لقدمه أسير الله فى الأرض . يشفق عليه إشفاقه على عرضه . كان شراعا لسفينة نوح . كالخليع الذى لا يطيع الرفاء .
كالطور الذى تجلى له الله فدك ! مثل آل فرعون فى العرض على النار بكرة وعشية ، وقد فطن إلى خلود المشبه به إذ هو من القرآن الكريم فقرنه بما شبهه به فى شعره فغدا رائعا أخاذا . . .

ولا يكاد يترك الفكاهة فى تهكمه بل تسرى فى كل مقطعة سريان النسيم العليل الذى ينعش الأبدان ويوقظ فيها الحياة : فالشاة حينما تبصر علفا فى نومها تتغنى :

يامانعى لذة الدنيا بأجمعها ... إنى ليفتننى من وجهك النظر !

وكذلك في مبالغته عن الطيلسان :

لقــد حالف الرفاء حتى كأنه   يحاول منه أن يعلمه الرفوا !

ولا يترك الظرف وإرسال النكتة اللاذعة بديهة وقد مر بابن حرب - صاحب الطيلسان - وعلى كتف الحمدونى وسادة ، فسأله ابن حرب : لأى شيء هذه يا حمدونى؟ قال : أرقع بها طيلسانك ! فقال : ما تزال تهجونا منثورا وموزونا[1] .

وهو خفيف الروح دائمـا أبدا فى أبياته ، فبعد أن يذكر أن الطيلسان كان مجلبة لنعم كثيرة بتنذره به ، يقول :

ولكم قـــد حاز لى   أردية قــترى وقمصا
كان دهرا طيلسانا   ثم قـــد أصبح شصا

وتنساب الحركة فى أبياته حريصا على الواقعية التهكمية التى تزيد أبياته طرافة وهى التى نعمت بالشخيص الساخر دائمـا :

فأتاها   مطمعـا   فأتتـه   لتعتلف !
فتولى   ،   فأقبلت   تتغنى من الأسف
ليته لم يكن وقف   عذب القلب وانصرف

وهاك بيتين رائعين من هذا القبيل :

فإذا المــلا ضحكوا بهـا. قالت لهـــم
لا تهـــزأوا بى ، وارحمونى ترحمـــوا

(١) جمع الجواهر للحصرى ١٢٧ .

مرت علـى علف ، فقامت لم تـــرم
عنـــه ، وغنت ، والمدامـع سجم

والحمدونى حاذق يوفر لشعره الذيوع بألفاظه العذبة، وبكلماته الرقيقة، ويتوج ذلك باستخدام البحور المناسبة لذلك التهكم الضاحك فجعل مقطعاته من الخفيف ، ومجزوء الرمل ، والمنسرح ، والمتقارب وكذلك يستخدم القافية الساكنة غالباً .

— ٧ —

أبو العلاء

أحمد بن عبد الله بن سليمان : سليل أسرة تنوخية يمنية معرقة ، إذ اتصل فيها العلم ، وسار المجد فى ركابهم جيلا بعد جيل ، وداول الله بينهم منصب القضاء آباء وأحفادا فكان منهم جده وأبوه وخاله وابن أخيه ، وتوارث هذا البيت الكريم العلم والشعر والأدب ، فكانوا أشبه بأسرة زهير فى الجاهلية ، وجرير فى الدولة الأموية .

ولد أبو العلاء بمعرة النعمان بحلب سنة ٣٦٣ هـ وأصيب بالجدرى وهو فى الرابعة ففقد نور عينيه ، وأمسى كفيف البصر يلفه الظلام فى روحاته وغدواته فكانت تلك هى الصدمة النفسية الأولى فى حياته ، ومع هذا فقد أخذ ينهل من معين العلم الثر ينبع من بيته الكريم ، يغذته عليه أبوه الذى ظل له خير هاد حتى أصيب فيه إذ اختاره الله إلى جواره وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره سنة ٣٩٥ هـ فكانت تلك هى المحنة النفسية الثانية التى امتحن بها . . . وأبى عليه طموحه وهمته أن يستكين ، وقد عوضه الله عن حبيبتيه صفاء ذهن وحدة ذكاء وشرها لا قتناص العلم بكل جوانبه وصنوفه فكان هذا حافزا له إلى الاتصال بالبيئات العلمية المختلفة يرشف من معينها الذى لا ينضب ، فكان ممن اتصل بهم علماء حلب : هؤلاء الذين ورثوا النهضة العلمية الكبرى التى خلفها عهد سيف الدولة الزاهر ودولته الحدبة على العلم ، وكذلك ولى وجهه شطر أنطاكية واللاذقية وطرابلس ، ولم يجد بأسا من أن يسمع من أحد رهبان دير فى اللاذقية شيئاً من فلسفه القدامى ولاهوت النصارى مما يقال إنه كان ذا أثر فى بذر الشك فى نفسه فيما بعد .

وقد عاش فى بيئة سياسية مضطربة : إذ كانت حلب نهبا للطامعين من الحمدانيين والفاطميين والروم وأبناء مرداس ، فاهتز الكيان الاجتماعى والاقتصادى لتلك المقاطعة من الشام بسبب هذا الاضطراب ، وكان لهـذا من غير شك — أثره القوى ، وبخاصة فى شخصية مرهفة الحس يقظة الوجدان كشخصية أبى العلاء !

عاش شاعرنا الكبير تلك الفترة من حياته الأولى يرشف وينهل ويعل من معين العلم ما وسعه الجهد ، وأعانته الطاقة ، وما أتاحته له فرصه المختلفة : ولعله لم يختلف عما حوله إلا فى شدة حساسيته ، وما يتبع حرمانه من نور عينيه ، أما فيما عدا هذا فلعله كان حسن العشرة ، يجالس الأصدقاء والخلان ، يشركهم أحاديثهم ، ويبادلهم تفكيرهم ، ويأخذ من أطراف الحياة بنصيب ما ، حتى لعبة الشطرنج لم تعدم فيه ممارسا لها ، وأغلب الظن أنه كان مكفى السعى وراء العيش إذ كان له وقف يدر عليه ثلاثين ديناراً فى السنة يقتسمها هو وخادمه الموكل به . . . .

وهكذا سار فى درب الحياة حتى اشرأبت عنقه إلى حاضرة النور والعلم بغداد فولى وجهه شطرها وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره فى أخريات عام ٣٩٨ هـ فأقام فيها سنة وسبعة أشهر : حضر فى خلالها مجالس العلماء والرواة والشعراء فكانت فترة خصيبة من سنى حياته مفعمة بالنشاط العلمى والفكرى ، فترة مباركة عكرها عليه بعض العلماء ومنهم الشريف المرتضى الذى قسا عليه فأمر جلساءه أن يجروه « إصطيلا »[1] من قدميه ، ولقد زاد قلقه النفسى - بالإضافة إلى إحساس بالغربة يستكن فى ضميره — حنينه إلى رؤية أمه التى امتلأت أحاسيسه لهفة على لقائها : كل هذا قد شده إلى الإياب ، ولكن القدر امتحنه بالمحنة الكبرى الثالثة بل هى ثالثة الأثافى ،

---

(١) الإصطيل هو الأعمى كما نطقها الشريف المرتضى .

إذ وصل إلى المعرة فوجد أمه قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى : حينذاك تبدلت حاله ، وبدأ الطور الثانى من حياته سنة ٤٠٠ ﻫ تقريباً مفعما بكراهية الدنيا وكل ما فيها ، معتزلا الناس إلا من يتردد عليه من الطلاب ومن يريدون أن يتزودوا بنوره ، متشائما ، وقد انطوى على نفسه رهين المحبسين فى بيت لا يكاد يفارقه طوال هذا الشطر الثانى من عمره الذى امتد حتى الخامسة والثمانين حيث ودع الدنيا فى سنة ٤٤٩ ﻫ .

وقد تجلت فلسفته وتأملاته العميقة ونظراته الثاقبة فى كل نتاجه سواء فى ديوانيه سقط الزند أو اللزوميات ، أو رسائله التى منها « الغفران » تلك التى دبجها ردا على صاحبه الحلبي ابن القارح الذى أرسل إليه رسالة طالبا منه ، راجيا إياه أن يرد عليها ، وذلك حوالى سنة ٤٢٤ ﻫ .

أما ابن القارح هذا فهو على بن منصور الحلبى يكنى أبا الحسن ويلقب دوخلة : كان شيخا قيما بالنحو حافظا لقطعة من اللغة والأشعار ، راوية للأخبار ، وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر : فأدب بها ولدى الحسن بن جوهر القائد وكانا مختصين بالحاكم ، وكذلك أدب أبا الحسن المغربى الذى وزر ببغداد ، وساءت العلاقة بينهما - لسبب غير واضح - إلى حد أنه أمطره بأهاج كثيرة جعلت أبا العلاء المعرى يذكر ابن القارح - حينما ذكره - منسوبا إلى هجائه ذاك بقوله عنه « أعرفه خبيرا ، هو الذى هجا أبا القاسم بن على بن الحسين المغربى (٣٧٠ - ٤١٨ ﻫ) ومع هذا فقد كان ابن القارح على عـــلاقة حسنة بوالده أبى الحسن المغربى بمصر ، فأثنى عليه فى رسالته بعكس موقفه من ابنه الذى يرى أبو العلاء مستهجنا هذا الموقف مما يستشف من رسالة الغفران فى قسمها الثانى الذى رد فيه على ابن القارح بعض مزاعمه .

ومما هجاه به ابن القارح قوله :

لقيت بالكمال سترا على فقصك ، كالبانى على الخص
فصرت كالكنف إذا شيدت بيض أعلاهن بالجص
يا عرة الدنيا بلا غرة ويا طويس الشؤم والحرص
قتلت أهليك وأنهبت بيـ ـت الله بالموصل تستعصى

ويقول ياقوت عنه أيضا : وكان بينه وبين شخص يدعى «الكسروى» مهاترة ومهاجلة ومغاظة. وشعره يجرى مجرى شعر المعلمين ، قليل الحلاوة ، خاليا من الطلاوة . ولم يتزوج ولا أعقب . ولد بحلب سنة ٣٥١ هـ ، وكان موجودا حتى سنة ٤٦١ هـ[1] ، فإن صح هذا فيكون قد عمر حتى جاوز المائة عام .

ومبلغ علمى أن الدكتورة الفاضلة محققة الغفران لم تتعرض لشخصية ابن القارح بالدراسة المستفيضة فيما يتصل من مؤلفاتها حول الغفران أو أبى العلاء ، فألمحت إليها فى دراستها « للغفران » دون أن تتعرض لها بالتفصيل ، واهتمت بشخصية أبى العلاء « المحروم » ! وبالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى اكتنفت عصره وحياته ، دون أن تلقى ضوءا على ابن القارح ، وهو الذى لابد وأن يكون الباعث الأول الذى حرك أبا العلاء إلى ما خاض فى دروب رسالته ، وما جعله يتقمص شخصية الهازىء الأكبر من الدنيا ومن فيها ، واكتفت بالشعور نحوه بالاشمئزاز الحاد لما ذكره فى أبياته الصادية السالفة الذكر وما توحيه به كلمة « الكنف » من تقزز حاد ، وكذلك نعتته فى كتابها الذى حاولت فيه جاهدة عد الرسالة « مسرحية مكتملة البناء[2] » نعتته بالخيانة إذ انضم إلى الحاكم الذى انقلب عليه وقلب له

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٥/٨١ — ٨٨

(٢) صدر الكتاب فى بيروت سنة ١٩٧٦ م .

ظهر المجن فباء بغضب الناس وسخرية الدهر منـــه ، وتغير الحاكم وقلبه له ظهر المجن : أغلب الظن أن تلك هى شخصية ابن القارح فى مخيلة الدكتورة محققة الغفران منذ سنة ١٩٥٠ م ، تلك المحققة التى ضربت صفحا عن بيتين أوردهما ياقوت فى كتابه معجم الأدباء ضمن ما اختاره له من أبيات مصدرة بأنها « فى المداعبة » ، وهى فى ظنى تعد مفتاح شخصيته .

وقد تكون السبب الأقوى - إن لم أكن مخطئا - فى سخرية أبى العلاء بابن القارح . ويؤيد زعمى اقتصار السيوطى [١] فى البغية على هذين البيتين ولم يرو غيرهما ، كأن البيتين ظلا - حتى عصر السيوطى على الأقل - أشهر ما يروى لابن القارح وأفضل ما يمثل شخصيته ، ولا بأس من إيرادهما على الرغم مما نشعر به من غضاضة فى إيرادهما :

أين من كان يوضع الأ ... إجلا لا على الراس عنده ويباس
أين من كان عارفا بمقادير الأ ... الكبار ! مات النـــاس ! !

وقد قصد ابن القارح فى البيتين - كما نرى - إلى التفكه ولا شك ، أو إلى هجاء مخنث ، أو إلى التعرض إلى لعوب ، وأغلب الظن أنهما قد صبكا - فيما وصل من شعر ابن القارح وأدبه - أسماع أبى العلاء ، مع ما قرف به من هجوه الوزير أبى القاسم المغربى ، والذى نعته بهجوه أبو العلاء فى « الغفران » كأن ابن القارح لا يعرف إلا بهذا الهجو ، بالإضافة إلى هذه النقيصة الحاقية التى تسقط صاحبها حينما يأخذ جانب حاكم ظالم وينأى بجانبه عن رعية مظلومة بغية رفده ، وإذا بالحاكم يتنكر له ولا يعطيه سؤله ، بل ينتقم منه بحرمانه ، كل هذا ولا شك كان هالة أحاطت بصورة ابن القارح وشخصيته

---

(١) بغية الوعاة (تحقيق محمد أبى الفضل) ٢ / ٢٠٧ .

فى مخيلة أبى العلاء حينما قرئت له رسالة ابن القارح : فياله تحذلق هذا الشيخ الكبير ذى السبعين عاما أو ما ينيف عليها ، فى رسالته ، ومحاولاته إثبات مقدرته اللغوية من جهة ، ولكى تعلو منزلته فى عالم الأدب إن هو ظفر بثناء أبى العلاء عليه من جهة أخرى ، متلهفا ، بل ملحا على تلقى جواب أبى العلاء عليها إذ ختمها بقوله : وأسأله — أدام الله عزه — تشريفى بالجواب عنها ، فإن هذه الرسالة - على ما بها — قد استحسنت وكتبت عنى وسمعت منى ، وشرفتها باسمه - وطرزتها بذكره ،، .... « وإذا جاء جواب هذه ، سيرتها بحلب وغيرها إن شاء الله . . . ،،

وهكذا ندرك الظروف النفسية الخاصة التى حدت بأبى العلاء إلى أن يدبج رسالته متعاليا على هذا الشيخ الفانى المغرور - ابن القارح - الذى أحاط المجون باسمه ولا شك - بل ربما لطخه - بسبب هذين البيتين الداعرين اللذين اكتفى السيوطى بالتمثل بهما عنوانا على شعره وربما على شخصيته ! وأغلب الظن أن شعرا آخر من هذا القبيل قد عرف له ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر كثير .

والغريب أن ابن القارح - فى أواخر رسالته - يروى بدون حياء نادرتين إحداهما تتعلق بابنة أخت له سرقت ثلاثة وثمانين دينارا له . فلما هددها السلطان أخرجت إليه بعضها وقالت : والله لو علمت أن الأمر يجرى كذا ، كنت قتلته ! وكان الأجدر به أن يستحى من ذكر ما يمس عرضه هكذا ، ويعمل بقوله « وإذا بليتم فاستتروا ،، ولم يفت أبا العلاء أن يتهكم به فأطال تهكمه بالشيوخ وبالثمانين دينارا وبذكره لهذه النادرة فى ضحكة طويلة استغرقت عدة صفحات من أواخر رسالته .

أما الأخرى فتلك الوديعة - وكانت جارية - استودعت صديقا ، فأراد

أن يجربها ، فما كتشف أنها ثيب وليست بكراً ! كما ادعى صاحبها ! :
وهكذا نقرأ نادرة باردة أشبه بالغثاء ، ومع هذا فليس لها موضع يدعو إلى سردها فى الرسالة ، وإن دلت على شىء فى ظنى - وأغلب الظن كذلك عند أبى العلاء - فإنها تدل على صدورها عن شيخ مهتر لم يرع حرمة لسن ولا لمكانة أبى العلاء حتى يحشو رسالته بهذه الأباطيل التى كان يعرفها أبو العلاء عن البشر وعن ابن القارح ولا شك فى شبابه أو كهولته ، ولكنه ولا شك يستبعد صدورها من شيخ كابن القارح ذى السبعين عاما [1] وهو الذى كان يجدر به أن يكون أكثر وقارا وأبعد همة ، إلا إذا كان قد خرف وأهتر.

ولا تحوى الرسالة موضوعا خطيراً ، ولكنها تحوى محاولة إظهار البراعة اللغوية والأسلوبية من خلال اللفظ المختار والجملة الرصينة أحيانا ، والاستطراد إلى أفكار جانبية ، وعرض لما يختزنه عقل ابن القارح من بعض مصطلحات طائفة من العلوم الكيمائية والرياضية وغيرها ، والاستشهاد بالأمثال ونصوص الشعر المحفوظة والأخبار الأدبية التى كان محصوله منها كثيرا ، وهو لا ينسى ما طغى على روح العصر من محسنات بديعية أظهرها السجع كما جاء فيها :

« . . . بعد أن منيت بربضها بالدرخمين وأم حبوكرى والفتكرين ، بل رميت بآبدة الآباد والداهية النآد . . . »

وتبدو الرسالة متقطعة الأوصال فى بعض أجزائها مما يسبب خللا فيها ويغشيها بسحابة من الغموض كما ظهر فى الصفحه ٢٢ من طبعة دار المعارف .

ويسوق خبر رسالة أبى الفرج الزهرجى الكاتب ، تلك الرسالة التى حملها إلى أبى العلاء ، ولكنها سرقت منه ، فيظهر استياءه من ذلك وشكوى

---

(١) انظر قول ابن القارح فى رسالته ص ٤١ : فلما بلغت عشر الثمانين.

أموده ، وبث شقوره ، والاطلاعه طامع عجره وبجره ... إلخ ، ثم يستطرد إلى بيت المتنبي :

أذم إلى هذا الزمان أهيله ::

وينقد شاعر العربية الكبير الذي ادعى النبوة ، ويخرج من ذلك مستطرداً إلى الحديث عن الزنادقة حديثا مطولا ، ثم عن الشيخوخة وأنها بلاء ، ربما كانت عاقبته صدوف الغوانى عنه ثم يستطرد منه إلى صبر النبي - صلى الله عليه وسلم - على البلاء فى حديث طويل ، ثم عريج على وعظ نفسه ، ومنه خرج إلى الدفاع عن نفسه وتبرئتها عما اتهمه به أبو العلاء من هجاء الوزير أبى القاسم المغربى وما دار بينه وبين أبيه فى مصر عنه ، وأخيرا يثنى على أبى العلاء رسائله وعقائل ألفاظه وحفظه .

السخرية فى رسالة الغفران :

بدأ أبو العلاء يرد على ابن القارح واضعا نصب عينيه أو فؤاده الذكى وحاقطته النادرة كل ما تضمنته الرسالة من أفكار وما ظهر به الكاتب من تقعر فى الأسلوب فحاول المعرى أن يخمده ويظهره قزما إذا ما قرن به :

ففى أسلوب أبى العلاء حشد ضخم للألفاظ أحس غرابتها وحوشيتها ووعورتها فحاول شرح معظمها ، بادئا إياها بقوله : « قد علم الحبر - الذى نسب إليه جبرئيل - أن فى مسكنى حماطة . . . ويستطرد إلى معانى الحماطة ، ثم إلى معانى « الأسود » . . . وهكذا يستمر حتى يصل إلى ذكر رسالة ابن القارح ويبدأ فى السخرية منه ذاما إياها بأسلوب المدح ، أو مادحا إياها على الحقيقة ، تمهيدا للسخرية به : « وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها شفع ونفع ، وقرب إلى الله ورفع ، وألفيتها مفتتحة بتمجيد ، صدر عن

بلبغ مجيد . . . وفى قدرة ربنا ـ جلت قدرته ـ أن يجعل كل حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور . . . ولعله سبحانه قد نصب اسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء .... وهكذا يلجأ أبو العلاء إلى خياله الرائع وإلى السجع فى بث سخريته : سطورها تنجى من اللهب . . . . معاريج من الفضة أو الذهب . . . وأى قيمة ضخمة للرسالة حتى تعرج بها الملائكة . . . ؟

ويبدأ أبو العلاء فى إدخال شيخه ابن القارح جنته ثم جحيمه عارضا ما فيهما من ألوان النعيم : أنهار من عسل مصفى ... خمر... أباريق ... أسماك دنان الخمر . . . مقابلا بين ذلك وما قيل فيها من شعر فى الدنيا الفانية ، وكذلك بعض ألوان العذاب ، ويجعله يلتقى بعشرات من الشعراء والنحاة والرواة وبعض الشخصيات ذات المقام العالى كعلى بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما وقاضى حلب . . . وغيرهم[١] .

أما القسم الثانى من الرسالة فيرد فيه على رسالة ابن القارح ردا مباشرا تفصيليا ، بينما يعد فيما سلف من القسم الأول منها قد ردّ ردا رمزيا : فيبدأ أبو العلاء مدافعا عن المتنبى الذى هاجمه ابن القارح متعرضا لذكر الزنادقة والملحدين حتى يصل إلى نهايتها ، وهو لا يكاد يترك شيئا مما ذكره ابن القارح إلا تعرض له ، غيرما يدل على تفاهة الكاتب فقد ضرب عنه صفحا ، ومما تعرض له « الدنانير » التى سرقت منه ، وتستغرق اثنتى عشرة صفحة[٢] يجوس خلالها بتهكم رائع ، وكذلك « الثمانين » وهو عددها فيستغرق ثمانى صفحات ، ويستمر متندرا بابن القارح من خلال ذكر نصوص أدبية تتصل

---

(١) رسالة الغفران (طبعة دار المعارف الأولى) ص ١٢١ - ٣٧١ .

(٢) المرجع السابق من ص ٥٥١ - ٥٦٢ .

بها . . . ، وهكذا يتخذ من عناصر كثيرة مواد ـ يجعلها مدار سخريته أو محور هزئه و تندره : فهو الشيخ الهرم الذى ضرب فى أعماقه بروح ما جن لا يستحق إلا التندر المستمر : تصعد الملائكة بكلمات رسالته وبسطورها المكونة منها إلى السماء فوق معاريج من الفضة . . . . أو الذهب (بادئا بهذا تندره) مستشهدا بآيتين [١] كريمتين فيهما ذكر الكلم الطيب ، شبها كلا منها بشجرة طيبة ، ويستطرد إلى جزاء ما أتى به على الله بشجر فى الجنة ضخم ذى ظل يملأ ما بين المشرق والمغرب . . . . وهكذا يجد ابن القارح نفسه فى الجنة وقد بدأ يتلعب به المعرى راوية للأخبار فى الدنيا ، فيظل هكذا فى فردوس الآخرة حيث يجعله يلتقى بهؤلاء الرواة والعلماء الذين روى عنهم : سيبويه والمبرد والأصمعى وعشرات غيرهم ، وملتقيا بطائفة كبيرة متفرقة من الشعراء فى الجاهلية والإسلام والعصر العباسى حتى أبى تمام ، ويجعل ابن القارح يقول : « لقد شقيت فى الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل ، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم (ص ٢٨٤ من الغفران) ويجعله يقول فى موضع آخر : « إنما أنا صاحب قلم وسلم » . (الغفران ص ١٧٣) ويتعجب من حفظ الشيخ ابن القارح أدبه فى الآخرة ورده « أنه كان يدعو الله أن يمتعه بأدبه فى الدنيا والآخرة » (ص ٢٣٣ من الغفران) وهذا منتهى التهكم . ويسخر به لامزا المعلمين وهو أحدهم بقوله على لسان امرىء القيس : « وأما المعلمون فى الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون ، ولا بأس بالوجه الذى اختاروه » . (ص ٣١٠ من الغفران) والمعرى دائما أبدا يستخدم الجمل الاعتراضية تهكما عليه ، ولا يكاد يذكره إلا متبوعا بهذه الجمل التى منها : فيقول ـ خلد الله ألفاظه فى ديوان الأدب [٢] ،

---

(١) الأولى من سورة فاطر الآية ١٠ والثانية من سورة ابراهيم الآيتان ٢٤، ٢٥

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٨ .

ومنها «ويعرض له أدلم الله الجمال بيقائه - الشوق إلى نظر سحاب ،»[1]

ومنها : « فيهم الشيخ - لازالت همته عالية - ،»[2]

ولئن كان ابن القارح هو مدار سخرية المعرى ، فإن المواد التى استخدمها فى السخرية قد جعلها هدفا لسخريته أيضا ، كما فعل حينما سخر من الرواة الذين يوردهم السخرية من ابن القارح : فيدير معركة بين الأصمعى والمازنى حول وزن إوزة - كأنها شيء خطير - ويجعل الأول يشتم الثانى بقوله : يافصعل[3] .

وكذلك يسخر من الرواة حينما يفضح انتحالهم الشعر أو تصحيفهم فى روايته : فيجعل النابغة الجعدى يقول بصدد أبيات شينية وضعت عليه : ما جعلت الشين قط رويا »[4] ويجعل أعشى قيس يقول : « ماهذه مما صدر عنى ، وإنك منذ اليوم لمولع بالمنحولات »[5]

ويذكر قصة خلف مع أصحابه وسؤاله إياهم عن كيفية إيراد قافية البيت الثانى من النص الآتى :

ألم بصحبتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن

لها ما تشتهى : عسلا مصفى إذا شاءت وحوارى بسمن[6]

إذا ما كانت الرواية « من أم حفص » بدلا من أم حصن

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢) « « ص ٢٨٤

(٣) رسالة الغفران ص ٢٧٥

(٤) « « ص ٣٠١

(٥) « « ص ٢٠٤

(٦) « « ص ١٤٥ ، ١٤٦

ويفرع من هذه الحكاية فيقول : ويأخذ فى اقتراح أسماء أخرى مثل : لم جزء . . : الخ القوافى كلها ، وبذلك يظهر أبو العلاء اقتداره على النظم من جهة وسخريته من الوضاعين كخلف من جهة أخرى !

ولا يكتفى بسخريته الخفية من ابن القارح المعلم الراوى، بل يسخر منه من ناحية ماعرف عنه بالمجون : فيستطرد فى الكلام عن الجنة بذكر المدام ويفرع منها ذكر الأباريق متلعبـــا بالأسلوب بمثل قوله : هيهات ! هذه أباريق ، كأنها فى الحسن أباريق ! ، ثم يبدأ فى شرح مفرداتها جازما بطريق خفى بإخفاق ابن القارح فى التفطن إلى مدلول الكلمات الثلاثة : ثم يخرج من ذلك إلى الانتقال إلى أدب الدنيا متناولا ماقاله عدى بن زيد عن المدام والصيد ، ثم يخرج إلى ذكر أوانى الخمر ويجعلها أو يتصورها على هيئة الطير السابحة ، فهو بهذا يلعب بعقولنا أو بخيال ابن القارح، ثم يبالغ فى وصف هذه الخمر التى ليس لها مثيل . . . ويستمر فى وصف الخمر مزريا على النمر بن تولب قوله فى الدار العاجلة ... وهكذا ينتقل بين الآخرة والدنيا موردا محفوظه من نصوص مزريا على أمثال ابن القارح مايحفظه من نصوص ،ولا يكتفى بهذا ، بل يكمل له خياله الذى لا يــكاد يغفى شيئا إلا أحاطه عما هو بسبيل تناوله : السمك بعد الخمر ، الندامى ، النزهة وماتحتاج إليه من دابة تركب ، ولا يكتفى أبو العلاء بالسخرية التشخيصية من الراوى المقصود بالسخرية وهو ابن القارح أو الرواة والشعراء والعلماء الآخرين ، بل يدس عبارات وصورا تحمل السخرية فى طياتها أو بر تينها : فما هى صورة رف من إوز الجنة تغنى للأعشى مايطلبه من غناء(١) وقوله على لسان زفر : وأحسب هذا الذى تجيئنى به ـ يعنى الشعر ـ قرآن إبليس المارد، ولا ينفق على الملائكة

(١) رسالة الغفران ص ٢٠٤

إنما هو للجان وعدوه ولد آدم ! »[1] وفى موضع آخر :

« وحسبنا شهيدا على ذلك الآية المتلوة فى فرقان محمد ! »[2] ومن الصور قوله على لسان لبيد : « . . فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز ، فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان . . . »[3]

ومن لمزه جعله علجا وحشيا يدخل الجنة لأن صائدا صاده بمخلب ، وكان إهابه كالسلب ... وتطهر بنزيعه الصالحون ، فشملته بركة من هؤلاء ! ،[4] وكذلك لمزه حسان بن ثابت ذكره الخمر فى أول مدحة مدح بها الرسول.[5] وكذلك جعله وسيلة الشيخ فى دخوله الجنة هذه الجمل التى كان يكتبها فى نهاية كل كتاب « وصلى الله على سيدنا محمد . . وعلى عترته الأخيار الطيبين . »[6] وجعله يحار فى عبوره الصراط حتى تهبه السيدة فاطمة الزهراء جارية تحمله على الصراط بصورة مضحكة ، منشداً :

ست إن أعياك همى فاحمليني زقفونه !

ويقول عقب ذلك أبو العلاء على لسان ابن القارح متهكما به :

. . . فلذلك بقى على حفظى ما نزفته الأهوال ولا نهكه تدقيق الحساب »[7] متناسيا قوله تعالى : يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت !! »

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤
(٢) « « ص ٣٥٢
(٣) رسالة الغفران ص ٢٢٦
(٤) المرجع السابق ص ١٩٠
(٥) « « ص ٢٢٧
(٦) « « ص ٢٤٩
(٧) المرجع السابق ص ٢٥٤ وقارن ذلك بما جاء في قوله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ».

وما أكثر التقاطه ماذكره ابن القارح فى النصف الثانى من رسالته ، ورده عليه متبجحا بلغته ، وتقريعه بسبب غضبه من ابنة أخته للدنانير التى سرقت والثمانين التى ربما زادت عدا عليها ، فكأنه قط يلاعب فأرا كما فعل حين ذكره الدنانير[1] وهذا يذكرنا بسخرية الوزير بالملك فيما سلف من قصة « إبلاد وإيلاد وإيراخت » فى كليلة ودمنة .

وهناك عبارات لم يتورع أبو العلاء عن أن يفوه بها سخرية متجرئا على رب العزة ، فى مثل قوله على لسان النابغة الجعدى مخاطبا الأعشى : « اسكت ياضل بن ضل ، فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت : إنك غلط بك » ومع استخدامه حرف الامتناع « لو » فإن هذا لا ينفى مافى العبارة من سم السخرية[2] ويقول على لسان أوس : « ولقد دخل الجنة من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق ، كأنها النشب فى الدار العاجلة . . ![3]»

وهكذا سخر سخرية لاذعة من الشيخ المعلم الراوية ابن القارح محاطا بالنحاة الذين تشملهم سخريته حينما يجعلون عدى بن ربيعة التغلبى لا يشتهر إلا ملحنا أو مضافا إلى هذا البيت :

ضربت صدرها إلى وقالت   ياعديا لقد وقتك الأواقى

وكأنما صارت نكتة نحوية فى بيت أو بيتين لشاعر من الشعراء هى أهم

---

(١) رسالة الغفران من ص ٥٤٠ إلى ٥٦٩

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣

مايعرف به ومايذيع به اسمه ، كأن تلك النكتة التى تهم النحويين صارت أهم من إبداعة الفنى فى الدنيا العاجلة !!

وهكذا نرى أن الرسالة كلها ضحكة كبرى ، بل قهقهة مكتومة تند عن فم أبى العلاء الذى لعله - فى الطور الثانى من حياته - لم يعرف الضحك أو الابتسام هكذا فى دنيا الرفاق وفى سمر المتفكهين ، فكانت رسالة ابن القارح سببا فى إطلاق تلك السخرية اللاذعة من معقلها الذى استكنت فيه دهراً طويلا منذ صار رهين المحبسين ، تلك السخرية التى صارت لحمة الرسالة وسداها من خيوطها ، ولعل العقاد كان أصدق من عبر عنها بقوله « وحسبنا أن نقول إن الرسالة كلها فى وضعها وفى تركيبها ، وفيما بدا من معانيها القريبة ، وما انطوت عليه من المعانى البعيدة والمضامين الخفية ، إن هى إلا ضحكة واحدة متصلة ، يجهر بها المعرى حينا ، ويوارب بها أحيانا ، وقد يغرق فى السخر حين يوارب ويدارى حتى تخاله ساخرا من السخر مترفعا عن الاهتمام بإظهار قصده ، لشدة استخفافه وقلة مبالاته ،،[1]

ومع هذا فقد علق طه حسين على ما كتبه العقاد بقوله : « إن الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية ، لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلما حقا ، وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث ، لأن فيه شيئا من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس مثلى ، يكرهون أنصاف الحقائق ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شىء » .

وأغلب الظن أنها حالات نفسية كانت تنتاب شخصية أبى العلاء الحساسة

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد (طبعة التجارية سنة ١٩٢٤ م)

فتتكيف بها آراؤه ، فيرى آنا قد اقترب من هاوية الكفر ، ويرى آنا آخر قد رجع وأناب ، ومن يقرأ ما كتبه الصفدى وما رواه من مرويات كثيرة عنه وعن معاصريه إزاءه ، يتبين له صدق دعوانا ، وقد كتبت رسالة الغفران غالبـــا فى ظروف سيطرت عليه وأحاطته به ، فخيل إليه أنه فى قمة الجمال الإنسانى وصار ينظر إلى الناس من عل وكأنهم إزاءه قد انحدروا إلى هاوية الانحطاط والضعة ، انحطاطا يذكر بالساخر الإنجليزى سويفت مؤلف رحلات جلفر ، فتلك الحالة هى التى ولدت عنده حالة السخرية العميقة من ابن القارح والناس والمجتمع وما فوقهم فكانت « رسالة الغفران » .

ذيل

مقطعات الحمدونى

فى الشاة والطيلسان

(١)

وكان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد ، لكثرة ما قال الحمدونى فيها ، وتسييره الملح فى وصف هزالها :[١]

ما أرى إن ذبحت شاة سعيد ... حاصلا فى يدى غير الإهاب[٢]
ليس إلا عظامها لو تراها ... قلت : هذى أدارن[٣] فى جراب
كم تغنت بحرقة حين تطعو ... م لم تذق غير سف التراب[٤]
رب لا صبر لى غير ذا العذاب ... بليت مهجتى وأودى شبابى

---

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ والورقة لابن الجراح ص ٦٢ ، وفوات الوفيات . وهى من بحر الخفيف .

(٢) الإهاب : الجلد الذى لم يدبغ .

(٣) أدارن : جمع الدرن وهو الوسخ . ورويت فى « الورقة » لابن الجراح : أرزان . والأرازن : جمع أرزن : وهو شجر صلب يتخذ منه العصى . ورواية فوات الوفيات : أزائف .

(٤) روى هذا البيت وما يليه فى فوات الوفيات هكذا :

من حشيا الشياه اللواتى إذا ما ... أبصروهن قيل شاء الشهاب
ستراهن كيف يصفعن فى وجـ ... ـه المضحى بهن يوم الحساب .

(٢)

وقال:

صاح بى ابن سعيـــد   من وراء الحجرات[1]
قرب الناس الأضاحى   فأنا قربت شـــاتى
شاة سوء من جلود   وعظـــام نخرات
كلـما قدمتهـا للـــ   ذبح قالت: واحياتى!

(٣)

وقال:[2]

أبا سعيـــد لنا فى شاتك العبر   جاءت وما إن[3] لها بول ولا بعر
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت   طعامها الأبيضان الشمس والقمر
لو أنها أبصرت فى نومها علفـا   غنت له، ودموع العين تنحدر
يا مانعى لذة الدنيا بأجمعـا[4]   إنى ليفتنى من وجهك النظر

(٤)

وقال:[5]

شاة سعيد فى أمرها عبر   لـما أتتنا وقد مسها الضرر

---

(١) الأبيات من مجزوء الرمل.

(٢) زهر الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ١٢٥ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١ وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهى من بحر البسيط.

(٣) جمع الجواهر: وليس لها.

(٤) جمع الجواهر: بما رحبت.. إنى ليمتعنى. وفى نهاية الأرب والوفيات: ليقنعنى.

(٥) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - ونهـاية الأرب ١٠ / ١٣١ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهى من المنسرح.

وهى تغنى من[1] سوء حالتها   حسبى بما قد لقيت يا عمر
مرت بقطف[2] خضر ينشر   هاقوم فظنت بأنها خضر
فأقبلت نحوها لتأكلها   حتى إذا ما تبين الخبر
وأبدلتها الظنون من طمع   يأسا تغنت والدمع منحدر
كانوا بعيدا وكنت آملهم[3]   حتى إذا ما تقربوا هجروا

(٥)

وقال : [4]

لسعيد شويهة   سلها[5] الضر والعجف[6]
قد تغنت وأبصرت   رجلا حاملا علف
بأبى من بكفه   بره دانى من الدنف
فأتاها مطمعا   فأتته لتعتلف
فتولى[7] فأقبلت   تتغنى من الأسف
ليته لم يكن يقف   عذب القلب وانصرف !

---

(١) جمع الجواهر : لسوء .
(٢) القطف : جمع قطيفة : دثار مخمل .
(٣) جمع الجواهر : أمامهم .
(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٩٠ - وزهر الآداب ٥٥٠ - وجمع الجواهر ٢٩٥ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣٢ وهى من مجزوء الخفيف .
(٥) العقد : نالها .
(٦) فوات الوفيات : والتلف .
(٧) العقد : ثم ولى .

(٦)

وقال :[١]

جاء سعيـــد لى بشا ة ذات سقم ودنف
ناحـــلة الجسم إذا ماهى مرت بالجيف
صاحت عليهـا هيفـا يا أختنا ذات العجف
تخنقها العبرة إن مرت بأصحاب العلف
كم تغنى ولهـا شرق إليهـا ولهف
قـــد تقطعت إلى وجهك شوقا وأسف

(٧)

وقال الحمدونى فى أضحية أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جوسبنداد : [٢]

أسعد قد أهديتنى [٣] أضحية مكثت زمانا عندكم ما تطعم
نضوا[٤] تغامزت[٥] الكلاب بها وقد شدوا عليها كى تموت فيقضموا
فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم لاتهزأوا بى ، وارحمونى ترحموا
مرت على علف ، فقامت لم ترم عنه ، وغنت ، والمدامع سجم[٦]

---

(١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص ٣٠٢ .

(٢) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهى من بحر الكامل .

(٣) زهر الآداب : أعطيتنى .

(٤) النضو : المهزول .

(٥) زهر الاداب : تعاقرت .

(٦) المرجع السابق : تسجم .

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
متأخر عنـــه ولا متقـــــــدم[1]

(٨)

وقال : [2]

بشاة سعيد وهى روح بلاجسم تمثلت الأمثال فى شدة السقم
تقول لى الإخوان حين طبختها أتطبخ شطرنجا عظاما بلا لحم ؟
فقلت : كلوا منها ، فقالوا تهزءا أتطعمنا ملبوس قوم من العجم !
وكم قد تغنت إذ تطاول جوعها ولم تر عند القوم شيئا من الطعم
ألا أيها الغضبان بالله ما جرى إليك فقد أبليت جلدى على عظمى

(٩)

وقال الحمدونى فى طيلسان ابن حرب [3] :

قل لابن حرب مقالة العاتب ولست فيها أقول بالكاذب
أما رأيت الرفاه يحربنى [4] برفوه طيلسانك الذاهب ؟
أفناه جور البلى عليه كما أفنى الهوى قلب خالد الكاتب[5] !

---

(٦) البيت لأبى الشيص وكان معاصره أبو نواس معجباً بالقصيدة التى منها هذا البيت إعجاباً شديداً (الأغانى ١٦ / ٣١٩) .

(٧) ثمار القلوب ص ٣٠٢ وهى من بحر الطويل .

(١) التشبيهات المشرقية لإبن أبى عون (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧١٤٠ ز) ص ٢٣٣ وقد طبع حديثاً . والطيلسان من أردية العجم معرب « تالسان » .

(٢) يحربنى : يسلبنى .

(٣) فى الأعلام للزركلى ٢ / ٣٤٣ : « خالد بن يزيد البغدادى أبو الهيثم المعروف بالكاتب : شاعر غزل من الكتاب ، أصله من خراسان ، عاش وتوفى =

(١٠)

وقال (١):

أيا طيلسانى أعييت طبى ... أسل بجسمك أم داء حب ؟
ويا ريح صيرتنى أتقيك ... وقد كنت لا أتقى أن تهب
ومستخبر خبر الطيلسان ... فقلت له:الروح من أمر ربى (٢)

(١١)

وقال (٣) :

قل لابن حرب طيلسا ... نك قوم نوح منه أحدث
أفنى القرون ولم يزل ... عمن مضى من قبل يحدث (٤)
فإذا العيون لحظنه ... فكأنه باللحظ يحدث
يودى إذا لم أرفه ... وإذا رفوت فليس يلبث

= ببغداد . كان أحد كتاب الجيش فى أيام المعتصم ، وكان يهاجى أبا تمام ، وغلبت عليه السوداء ، وعاش عمرا طويلا حتى دق عظمه ورق جلده . شعره رقيق أكثره غزل . له ديوان مخطوط توفى سنة ٢٦٢ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ (انظر المنتظم لابن الجوزى ٥ / ٣٥ - والأغانى ٢١ / ٣١ - وفوات الوفيات / ١٤٩ وإرشاد الأريب لياقوت - ٤ / ١٧١ - وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨) .

(١) زهر الاداب ٥٢ ه وهى من المتقارب .

(٢) الآية الكريمة ٨٥ من سورة الإسراء .

(٣) وفيات الأعيان (طبعت بيروت) ٧ / ٩٧ وروى البيت الثالث : يحرث . والأبيات من مجزوء الكامل ورويت أيضاً فى جمع الجواهر ١٢٤ وفوات الوفيات ١ /١٧ .

(٤) روى هذا البيت فى فوات الوفيات ووفيات الأعيان (بيروت) ٧ / ٩٧
هو طيلسان لم يزل ... عمن مضى من قبل يورث

كالكلب إن تحمل عليـــ ه الدهر أو تتركه يلهث[1]

(١٢)

وقال[2] :

يابن حرب كسوتنى طيلساناً يزرع الرفو فيه وهو شباخ[3]
مات رفاؤه ومات بنوه وبدا الشيب فى بنيهم وشاخوا

(١٣)

وقال[4] :

يابن حرب كسوتنى طيلسانا مل من صحبة الزمان وصدا
فحسبنا نسج العناكب لوقيـ س[5] إلى ضعف طيلسانك سدا[6]

---

(١) الآية الكريمة ١٧٦ من سورة الأعراف .

(٢) وفيات الأعيان (بيروت) ٧ / ٩٧ - وفوات الوفيات ١ / ١٧ والتشبيهات ٢٢٣ .

(٣) أعقب ابن أبى عون فى التشبيهات المشرقية ٢٣٣ البيت الأول ما يلى دون أن يذكر الثانى الذى أثبته ابن خلكان فى الوفيات :

تستطير الفزور طولا وعرضا فيه حتى كأنهن رخاخ

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧١ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ وثمار القلوب ٤٨٢ - وزهر الاداب ٥٥٠ ووفيات الأعيان (طبعة القاهرة) ٦ / ٨١ ص ٥٢٩ ، ٣ / ٤٣٧ وفى طبعة بيروت من الوفيات ٧ / ٩٦ أورد الأول والرابع فقط برواية : فصدا - ورويت الأبيات أيضا فى فوات الوفيات ١ / ١٧ وهى من بحر الخفيف .

(٥) زهر الاداب : قد حال .

(٦) هذا البيت والذى يليه لم يذكرا فى ثمار القلوب .

إن تنفسي فيه ينشق شقا ... أو تنحنحت فيه ينقد قـــدا[1]
طال ترداده إلى الرفو حتى ... لو بعثناه وحـــده لتهدى

(١٤)

وقال[2]

يا قاتل الله ابن حرب لقد ... أطال إتعابى على عمد
بطيلسان خلت أن البلى ... تطلبه بالوتر والحقد
أجد فى رفوى له والبلى ... يلهو به فى الهزل والجد
ذكرنى الجنة لما غدا ... أصحابها منها على جرد[3]
أن أتهم الرفاء فى رفوه ... مضى به التمزيق فى نهد
غنيته لما قضى راحلا ... ياواحدى تتركنى وحدى[4]

(١٥)

وقال[5] :

طيلسان لابن حرب جاءنى ... قد قضى التمزيق منه وطره
أنا من خوف[6] عليه أبدا ... سامرى[7] ليس يألو حذره
يابن حرب خذه أوفابعث بما ... نشترى[8] عجلا بصفر عشره

---

(١) روى هذا البيت فى جمع الجواهر ص ١٢٥ هكذا :
إن تنسمت فيه ينجر جرا ... أو تبسمت منه ينقد قدا
(٢) زهر الآداب ١٠٤٧
(٣) الاية ٢٥ من سورة القلم .
(٤) انظر الأغانى ٦ / ١٧٢ ، ١٦٣
(٥) زهر الآداب ص ٥٥٢ ، وجمع الجواهر ص ١٢٥ .
(٦) جمع الجواهر : من خوفى .
(٧) السامرى : الذى عبد العجل ، كان عظيما من بنى إسرائيل .
(٨) جمع الجواهر : يشترى .

لعـــل الله يحييـــه لنـا ... إن ضربناه ببعض البقرة
فهو قد أدرك نوحا فعسى ... عنده من علم نوح خبره
أبدا يقرأ من أبصره ... أئذا كنا عظاما نخرة[١]

(١٦)

وقال[٢] :

طيلسان لابن حرب جاءني ... خلعة في يوم نحس[٣] مستمر
فإذا ماصحت فيه صيحة ... تركته كهشيم المحتظر[٤]
وإذا ماالريح هبت نحوه ... طيرته كالجراد[٥] المنتشر
مهطع[٦] الداعي إلى الرائي إذا ... مارآه قال: ذا شيء نكر[٧]
وإذا رفاؤه حاول أن ... يتلافاه تعاطى فعقر[٨]

(١٧)

وقال :[٩]

فيما كسانيه ابن حرب معتبر ... فانظر إليه، إنه إحدى الكبر[١٠]

---

(١) الآية ١١ من سورة النازعات .
(٢) زهر الآداب ص ٥٥٢ .
(٣) الآية ١٩ من سورة القمر .
(٤) الآية ٣١ من سورة القمر . والمحتظر : صاحب الحظيرة .
(٥) الآية ٧ من سورة القمر .
(٦) المهطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به .
(٧) الاية ٦ من سورة القمر .
(٨) الاية ٢٩ من سورة القمر .
(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ - وثمار القلوب ص ٤٨١ .
(١٠) الآية ٣٥ من سورة المدثر .

قد كان أبيض ثم مازلنا به ... نرفوه، حتى اسود من صده الإبر

(١٨)

وقال [1] :

طيلسان لابن حرب ... يتداعى لامساسا [2]
قد طوى قرنا فقرنا ... وأناسا فأناسا
لبس الأيام حتى ... لم تدع فيه لباسا
غاب تحت الحس حتى ... لايرى إلا قياسا

(١٩)

وقال :[3]

طيلسان لابن حرب ... ذو أياد ليس تحصى
أنا فيه أشهر النا ... س، إذا ما الشعر نصا
وأرانى صرت أدنى ... بعدما قد كنت أقصى
واتقانى الناس وازدا ... دوا على شعرى حرصا
ولكم قد حاز لى ... أردية تترى وقمصا
كان دهرا طيلسانا ... ثم قد أصبح شصا !

(٢٠)

وقال [4] :

ولى طيلسان إن تأملت شخصه ... تيقنت أن الدهر يفنى وينقرض

---

(١) زهر الاداب ص ١٠٤٨ وهى من مجزوء الرمل .

(٢) الاية ٩٧ من سورة طه .

(٣) الجواهر ص ١٢٤ وهى من مجزوء الرمل .

(٤) زهر الادب الجواهر ص ١٠٤٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ وهى من بحر الطويل .

تصدع حتى قد أمنت انصداعه ... وأظهرت الأيام من عمره الغرض
كأنى لإشفاقى عليه ممرض ... أخو سقم مما تمادى به المرض(١)
فلو أن أصحاب الكلام يرونه ... لماروك(٢) فيه وادعوا أنه عرض!

(٢١)

وقال(٣):

وطيلسان إن تأملته ... قددته بالطول والعرض
كأن إشفاقى عليه إذا ... غدوت إشفاقى على عرضى
لو أنه بعض بنى آدم ... كان أسير اسير الله فى الأرض(٤)

(٢٢)

وقال(٥):

ولى طيلسان ناحل الجسم غير أنه ... ثبوت لهبات الرياح الزعازع
وما ذاك إلا أنه متهتك ... يخلى سبيل الريح غير منازع
أراه كضوء الشمس بالعين رؤية ... ويمنعنى من لمسه بالأصابع
وثقل اسم الطيلسان لضعفه ... فسميته «سانا» فهل ذاك نافعى!

---

(١) لم يرو فى جمع الجواهر .

(٢) رواية جمع الجواهر : رأوه ما ... ما ينوك

(٣) التشبيهات المشرقية لابن أبى عون ص ٢٢٣ - ووفيات الأعيان ٦ / ٩٣ وثمار القلوب ص ٤٨١ دون ذكر البيت الثانى وروى الشطر الثانى من البيت الأول : شققته .

(٤) اقتبسه مما جاء فى الخبر : أن العبد إذا بلغ تسعين سنة ، كتبت له الحسنات وكفرت عنه السيئات ، وسمى أسير الله فى الأرض ».

(٥) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٣ وهو من بحر الطويل

(٢٣)

وقال: (١)

وهبت (٢) لنا ابن حرب طيلسانا ... يزيد المرء ذا (٣) الضعة اتضاعا (٤)
يسلم صاحبي فيعيد شتمي ... لأن الروح يكسبه انصداعا (٥)
أجيل الطرف في طرفيه طولا ... وعرضا، ما أرى إلا رقاعا
فلست أشك أن قد كان قدما ... لنوح في سفينته شراعا
فقد (٦) غنيت إذ أبصرت منه ... جوانبه (٧) على بدني تداعى
قفي قبل التفرق ياضباعا ... ولايك موقف منك الوداعا (٨)

(٢٤)

وقال (٩):

يابن حرب إني أرى في زوايا ... بيتنا مثلما كسوت جماعه

---

(١) زهر الآداب ص ٥٥٣ - ووفيات الأعيان (مصر) ٣ / ٣٣٧ (وبيروت) ٧ / ٩٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ والأبيات من بحر الوافر.

(٢) روى هذا الشطر في الوفيات هكذا: رأينا طيلسانك يابن حرب ...

(٣) جمع الجواهر: في الضعة.

(٤) يروى ابن خلكان بعد هذا البيت:

إذا الرفاء أصلح منه بعضا ... تداعى بعضه الباقي انصداعا

(٥) روى هذا البيت في وفيات الأعيان، وجمع الجواهر كذا:

يسلم صاحبي فيقد شبرا ... به، وأقد في ردى ذراعا

وروى الحصري في جمع الجواهر (له) بدلا من (به).

(٦) الوفيات (بيروت): وقد

(٧) الوفيات (القاهرة) بقاياه على كتفي

(٨) البيت للقطامي عمير بن شييم التغلبي. وضباعة: اسم امرأة.

(٩) زهر الاداب ص ١٠٤٨ - وفيات الأعيان ٣ / ٤٣٥ - فوات الوفيات ١ / ١٧ وفيات (بيروت) ٧ / ٩٧ برواية: (مثل من) بدلا من (مثلما).

طيلسان رفوته ورفوت الر ... رفو منه حتى رفوت[1] رقاعه
فأطاع البلى وصار خليعا[2] ... ليس يعطى الرفاء فى الرفو طاعه
فإذا سائل رآنى فيه ... ظن أنى فتى من أهل الصناعه[3]

(٢٥)

وقال فى الطيلسان وكتبها إلى بعض الرؤساء[4]

دعنى أبكى كسوتى إذ ودعت ... فلأزمعن على البكا إذ أزمعت
يابن الحسين أما ترى دراعتى ... سملا تردت بالبلى وتدرعت
فيها من التمزيق مالو أنه ... مرت بها ريح الصبا لتقشعت
يحكى[5] تخرق طيلسانى إنها ... منه تعلمت البلى فتضعضعت
لافرج الرحمن منه إنه ... أعدى ثيابى كلها فتقطعت
فلتحمد الله الجبال فانها ... لو قارنته لخشعت[6] وتصدعت

(٢٦)

وقال[7]

إن ابن حرب كسانى ... ثوبا نظير انحرافه

---

(١) فوات : رقعته ...

(٢) فوات : خليقا .

(٣) فوات : الصياغة .

(٤) وفيات الأعيان (القاهرة) ٦ / ٩٣ - (وبيروت) ٧ / ٩٦ وهى من بحر الكامل .

(٥) وفيات (بيروت) : تحكى .

(٦) المرجع السابق : تخشعت .

(٧) زهر الاداب ١٠٤٧ - وجمع الجواهر ١٢٨، وعروضه مستفعلن فاعلاتن .

أظل أدفع عنه وأتقى كل آفه
فقد تعامت من خشـ يى عليه الشفافه !

(٢٧)

وقال(١) :

وطيلسان إن تأملته لج من التمزيق فى محك
كأنه من طول رفقى به يملكنى مذ صار فى ملكى !

(٢٨)

وقال :(٢)

لطيلسان ابن حرب نعمة سبقت بهـــا تبين فضلى فهو متصل
قد كنت دهراً جهولا ثم حنكنى عليه خوفى من الأقوام إن جهلوا
أظل أجتنب الإخوان من حذر كأنما بى جرح ليس يندمل
يا طيلسانا إذا الألحاظ جلن به فعلن فعل سهام فيه تنتضل
لئن بليت فكم أبليت من أمم تترى ، أبادتهم أيامك الأول
وكم رآك أخ لى ثم أنشدنى ودع هريرة إن الركب مرتحل(٣)

(٢٩)

وقال(٤) :

وطيلسان هرم يحتمى عليه أكل الخل والبقل
كأن كعبى إذا انضمتا عليه خوف الريح فى غل

---

(١) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٣ .

(٢) زهر الاداب ص ١٠٤٦ وهى من بحر البسيط .

(٣) لأعشى قيس .

(٤) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٤ .

(٣٠)

وقال : (١)

طيلسان مازال أقدم في الده ... زمن الدهر ا مالراقيه حيله ا
وترى ضعفه كضعف عجوز ... رثة الحال ذات فقر معيله !
غمرته الرقاع فهو كمصر ... سكنته نزاع (٢) كل قبيله
إن أزينه يابن حرب بذمي ... فجرير (٣) قد زان قبلي بجيله

(٣١)

وقال : (٤)

قل لابن حرب طيلسانك قد ... أوهى قواى بكثرة القدم (٥)
متبـين فيــه لمبصره ... آثار رفــو أوائل الأمم
فكأنه (٦) الخمر (٧) التي وصفت ... في « ياشقيق النفس (٨) من حكم »
فإذا رممناه ، فقيل لنا ... قد صح ، قال له البلى : انهدم

---

(١) زهر الآداب ص ١٠٤٧ - والتشبيهات المشرقية ص ٢٣٥ بدون الرابع ، وهي من الرمل .

(٢) النزيع : الغريب ، كالنازع . وجمعه نزاع .

(٣) جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ؛ صحابي . وقد ذكره الشاعر غسان في هجائه جرير بن عطية الشاعر الأموي المشهور :

لعمري لئن كانت بجيلة زانها .·. جرير ، لقد أخزى كليبا جريرها

(٤) زهر الاداب ٥٥١ ، ٥٥٢ - وجمع الجواهر ١٢٦ .

(٥) زهر الاداب : الغرم .

(٦) زهر : وكأنه .

(٧) الخمر التي وصفت من قول أبي نواس :

ياشقيق النفس من حكم .·. نمت عن ليلي ولم أنم

(٨) زهر الاداب : الروح .

مثل السقيم برا[1] ، فراجعه نكس[2] ، فأسلمه إلى سقم
أشدت حين طغى فأعجزنى ومن العناء رياضة الهرم

(٣٢)

وقال :[3]

يابن حرب كسوتنى طيلساناً أمرضته[4] الأوجاع فهو سقيم
فإذا ما لمسته[5] قلت : سبحا نك تحى العظام وهى رميم
طيلسان له إذا هبت الريـ ح عليه عنكبى هنيـم[6]
لو يدب الحولى مر ولد الذ ر عليه لأنوبته الكلوم[7]

(٣٣)

وقال[8] :

يا أيك فى جبة مخرقة أطول أعمار مثلها يوم

---

(١) المرجع السابق . برو فعاوده . . .

(٢) النكس : عود المرض .

(٣) زهر الاداب ١٠٤٧ - جمع الجواهر ١٢٦ - وفيات الأعيان (مصر) ٣ / ٤٣٧ - ٦ / ٨١ / ٥٣٩ - و(بيروت) ٧ / ٩٦ وهى أيضاً فى ثمار القلوب - والأبيات من بحر الخفيف .

(٤) فى الوفيات روايتان : أنحلته الأوجاع - أنحلته الأزمان وهو .

(٥) فى الوفيات (بيروت)

فإذا ما رفوته قال : سبحانك محي العظام .. وفى زهر الاداب : لبسته . . .

(٦) زهر الاداب : هميم . وبعد البيت الثالث إنفردت زهر الاداب بهذا البيت :

أذكرنى بيتاً لحسان فيه .·. حرق للفؤاد حين أقوم

ولم يذكر البيتان (٣) ، (٤) فى الوفيات .

(٧) البيت من قصيدة لحسان بن ثابت فى ديوانه .

(٨) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٣ .

وطيلسان كالآل يلبسه على قميص كأنه غيم

(٣٤)

وقال :(١)

إن ابن حرب جادلى كاسياً بطيلسان هرم قشعم
انظر إلى كثرة تمزيقه كأنما مزق فى مأتم
ذمى له وهو ذميم كمن يبنى بناء فوق مستهدم
يصدعه اللحظ بإيماضه صدع فؤاد العاشق المغرم
يذكرنى كثرة تمزيقه تفرق الناس عن الموسم

(٣٥)

ومن ملح مضمنات الحدونى قوله : ويقال إنه أول شعر قاله فيه ، وقد قال فيه خمسين مقطوعا(٢) يريد إبراهيم بن المهدى - وهذا الشعر له — وتتمته : -

كسانى ابن حرب طيلساناً كأنه فتى ناحل(٣) بال من الوجد كالشن
يغنى لإبراهيم لما(٥) لبسته ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى(٦)
ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى(٧) هوى الدهر لى عنها ، وولى بها عنى
فإن أبك نفسى ، أبك نفساً نفيسة وإن أحتسبها أحتسبها على ضن

---

(١) المرجع السابق وكذلك الصفحة .
(٢) فوات الوفيات للصلاح الكتبى ١ / ١٧ وثمار القلوب ص ٤٨١ .
(٣) ثمار القلوب : عاشق .
(٤) الشن والشنة : القربة القديمة .
(٥) ثمار : حين .
(٦) هذا الشطر روى فى الأغانى (بيروت ٥ / ٢٦٠ ولم أعثر على بقية البيت.
(٧) هذا البيت والذى يليه إنفرد بروايتهما الصلاح الكتبى فى الوفيات .

(٣٦)

ومن طريف شعره قوله :[١]

ياطيلسان ابن حرب قد هممت بأن[٢]	تودى بجسمى كما أودى بك الزمن
ما فيك من حيلة تغنى ولا ثمن	قد أوهنت حيلتى أركانك الوهن[٣]
فلو ترانى لدى الرفاء مرتبطاً	كأننى فى يديه الدهر مرتهن
أقول[٤] حين رآنى الناس ألزمه	كأنما لى فى حانوته وطن
من[٥] كان يسأل عنا أين منزلنا	فالأقحوانة[٦] منا منزل قمن[٧]

(٣٧)

وقال فيه أيضاً :[٨]

طيلسان لو كان لفظا إذن ما شك خلق[٩] فى أنه بهتان

---

(١) جمع الجوهر ص ١٢٥ - وزهر الاداب ص ٥٥١ - وثمار القلوب ص ٤٨٢ والأبيات من بحر البسيط .

(٢) ثمار القلوب : بها ... يودى

(٣) لم يرو فى ثمار القلوب .

(٤) ثمار القلوب : غنيت .

(٥) البيت للحارث بن خالد المخزومى ، وكان أمير مكة على عهد عبد الملك بن مروان ، وبعده فى الأغانى (طبعة صادر) ٣ / ٣٢٠

إذن نلبس العيش صفوا ما يكدره	طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن
ليت الهوى لم يقربنى اليك ولم	أعرفك إذ كان حظى منكم الحزن

(٦) موضع قرب مكة .

(٧) قمن : خليق وجدير أن تسكنه أو معناه قريب .

(٨) وفيات الأعيان (مصر) ٦ / ٩٣ (وبيروت) ٧ / ٩٧ - وثمار القلوب ص ٤٨١ ، ٤٨٢ - والأبيات من بحر الخفيف .

(٩) ثمار القلوب : إنسان .

فهو كالطور إذ تجلى له اللـ ... ـه فدكت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى ... بقى الرفو وانقضى الطيلسان

(٣٨)

وله من أبيات [١] :

لقد حالف الرفاء حتى كأنه ... يحاول منه أن يعلمه الرفوا

(٣٩)

وقال : [٢]

يابن حرب أطلت ظلمى [٣] برفوى ... طيلسانا قد كنت عنه غنيا
هو [٤] فى الرفو آل فرعون فى العـ ... ـرض على النار بكرة [٥] وعشيا
زرت فيـــه معاشرا فازدرونى ... فتغنيت إذ رأونى زريا [٦]
جئت فى زى سائل كى أراكم ... وعلى الباب قـــد وقفت مليا

---

(١) وفيات الأعيان (مصر) ٦ / ٨١ / ٥٣٩ - (وبيروت) ٧ / ٩٦ وهو من بحر الطويل .

(٢) جمع الجواهر ص ١٢٤ ـ وطبقات إبن المعتز ص ٣٧١ ـ والتشبيهات المشرقية ص ٢٢٤ ـ وزهر الاداب ص٥٥٣ ـ وثمار القلوب ص ٤٨١ ـ ووفيات الأعيان (مصر) ٣ / ٤١٧ (وبيروت) ٧ / ٩٦ وهى من بحر الخفيف .

(٣) زهر الاداب ـ والوفيات ـ والتشبيهات ـ وإبن المعتز : فقرى . الوفيات أيضاً : وترى .

(٤) الوفيات ، وزهر الاداب : فهو . . .

(٥) زهر : غدوة . وهو يشير إلى الاية الكريمة رقم ٤٦ من سورة غافر . ونهاية الاية ٦٢ من سورة مريم .

(أنظر سبب هذه الأبيات فى جمع الجواهر ص ٤٩)

(٦) هذا البيت والذى يليه لم يرويا إلا فى زهر الاداب .

الفهـــرس

المراجع

الأخبار الطوال للدينوى مصر ١٩٧٢ م

أخبار الأذكياء لابن الجوزى تحقيق محمد مرسى الخولى مصر ١٣٧٠ هـ

أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى القدسى ١٨٤٣ م

أدب الجاحظ للسندوبى (التجارية بمصر) ١٩٤٢ م

أدب الدنيا والدين للماوردى القاهرة ١٩١٢ م

أساس البلاغة للزمخشرى دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م

الأعلام لخير الدين الزركلى مصر ١٩٥٤ م

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (دار الكتب المصرية) ١٩٢٦ - ١٩٧٥م

الأمالى لأبى على القالى دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م

البانشتانترا ترجمة د. عبد الحميد تونس الكويت ١٩٧٠ م

البخلاء للجاحظ تحقيق د. طه الحاجرى دار المعارف ١٩٥٨ م

البيان والتبيين للجاحظ (مصطفى الحلبى) ١٩٠٢ م

تاريخ الرسل والملوك للطبرى (دار المعارف) ١٩٦٢ م

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (الخانجى) سنة ١٩٣١ م

القصة والنقد فى الأدب العربى للسباعى السباعى بيومى
(دار نشر الثقافة بالاسكندرية) سنة ١٩٥٠ م

تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ

التشبيهات المشرقية لابن أبى عون المخطوط والمطبوع مصر ١٩٦٨ م

تفسير البيضاوى طبع صبيح بالقاهرة ١٩٢٦ م

تفسير الطبرى (دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ م

تفسير الكشاف مصطفى الحلبى بمصر

تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى الهند ١٩٢٤ م

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبي مصر ١٩٥٨ م

الجاحظ لإفرام البستانى (عدد ١٩ من مجموعة الروائع : بيروت)

الجاحظ د. طه الحاجرى دار المعارف ١٩٦٢ م

الجاحظ حنا الفاخورى دار المعارف ١٩٦٤ م

الجاحظ شفيق جبرى دار المعارف ١٩٦٦ م

جحا الضاحك المضحك لعباس محمود العقاد (دار الهلال) بمصر ١٩٥٦ م

جرير حياته وشعره د. نعمان محمد امين طه دار المعارف ١٩٦٨ م

جمع الجواهر فى الملح والنوادر الثعالبي عيسى الحلبي ١٩٥٠ م

حكم قراقوش د. عبد اللطيف حمزة عيسى الحلبي مصر ١٩٥٥ م

الحماسة لأبى تمام بشرح للمرزوقى لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٦٥ م

الحماسة لابن الشجرى طبع حيدر آباد الدكن بالهند

الحيوان للجاحظ طبع مصطفى الحلبي بمصر ١٩٣٨ م

خزانة الأدب للحموى مصر ١٩٠٤ م

دراسات فى الأدب الإسلامى للأستاذ محمد خلف الله لجنة التأليف ١٩٤٧ م

ديوان امرىء القيس نشر السندوبي بالمكتبة التجارية ١٩٤٩ م

وتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم بدار المعارف ١٩٥٨ م

ديوان أبى نواس لجنة التأليف بمصر ١٩٥٤ م

ديوان زهير بشرح ثعلب دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م

ديوان جرير د. نعمان محمد امين طه دار المعارف ١٩٧٠ م

ديوان حسان بن ثابت طبعة البرقوقى ١٩٢٩ م

والدار القومية بمصر ١٩٧٤ م

ديوان الحطيئة د . نعمان محمد أمين طه الحلبي ١٩٥٨ م
ذكر المعتزلة المرتضى حيدر آباد بالهند
رسائل الجاحظ (على هامش الكامل المبرد) مصر ١٩١٨ م
رسائل الجاحظ نشر الخانجي بمصر ١٩٠١ م
رسالة التربيع والتدوير للجاحظ تحقيق شارل بلات دمشق ١٩٥٦ م
رسالة الغفران للمعرى دار المعارف بمصر ١٩ م
زهر الآداب الحصرى (تحقيق البجاوى) الحلبي ١٩٥٨ م
زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع مصر ١٩٠٦ م
سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة مصر ١٩٧٠ م
السيرة لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا الحلبي ١٩٤٢ م
سيكولوجية الضحك أحمد عطية الله عيسى الحلبي بمصر ١٩٤٧ م
سيكولوجية الفكاهة والضحك زكريا ابراهيم مكتبة مصر ١٩٥٨ م
ضحى الإسلام لأحمد أمين لجنة التأليف ١٩٣٨ م
الضحك لهنرى برجسون ترجمة سامى الدروبى
دار الكاتب المصرى ١٩٤٨ م
طبقات الشعراء لابن المعتز دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م
طبقات فحول الشعراء لابن سلام دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م
كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د . إحسان عباس دار الفكر ١٩٥٢ م
كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د . شكرى محمد عياد
دار الكاتب العربى بمصر ١٩٦٧ م
العصر العباسى الأول د . شوقى ضيف دار المعارف
العصر العباسى الثانى د . شوقى ضيف دار المعارف

العقد الفريد لابن عبد ربه مصر ١٩١٣ م
ولجنة التأليف والترجمة ١٩٤٧ م

أبو العلاء المعرى د . عائشة عبد الرحمن مصر ١٩٦٧ م

أبو العلاء المعرى (رسالة الغفران) العدد ١٧ من مجموعة الروائع
لإفرام البستانى الطبعة الثانية بيروت ١٩٤٢ م

أبو العلاء المعرى ناقد المجتمع لزكى المحاسنى مصر ١٩٥٣ م

تحرر الخصائص الواضحة للوطواط جمال الدين القاهرة ١٢٩٩ هـ

فصول مختارة لطه حسين (بالاشتراك) دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ م

الفكاهة فى الأدب د . أحمد الحوفى دار نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٨ م

الفكاهة فى مصر د . شوقى ضيف (كتاب الهلال) ١٩٥٨ م

فن تكوين النكتة لجون ويزدم مقال بمجلة علم النفس
دار المعارف ١٩٤٨ م

الفهرست لابن النديم تحقيق فلوجل طبع ليسك ١٨٧٢ م

فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبى (بيروت) ١٩٦٧ م

العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية تعريب عباس حافظ
القاهرة ١٩٤٦ م

كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس
العجلونى مصر ١٩٣٦ م

كليلة ودمنة (طبعة مكتبة دار الهلال بمصر) ١٩٢٤ م

كليلة ودمنة (نشر الأب شيخو) بيروت ١٩٣٦ م

كليلة ودمنة (تحقيق المرحوم د . عبد الوهاب عزام)
دار المعارف ١٩٤٢ م

لسان العرب لابن منظور الأفريقي مصر ١٣٠١ هـ
مجلة الاثنين مصر ١٩٤٨ م
مجموع رسائل الجاحظ (الساسي) ١٩٠١ م
مروج الذهب للمسعودي (نشر محمد محيي الدين عبد الحميد) ١٩٤٨ م
مطالعات في الكتب والحياة للعقاد (التجارية) ١٩٢٦ م
معجم الأدباء لياقوت مصر ١٩٣٨ م
المفضليات للضبي (دار المعارف بمصر) ١٩٤٨ م
ابن المقفع للدكتور عبد اللطيف حمزة مصر ١٩٣٦ م
ابن مماتي د. عبد اللطيف حمزة الحلبي بمصر ١٩٤٦ م
مناهج الدراسة الأدبية د. شكري فيصل بيروت ١٩٧٠ م
نتائج الفطنة في نظم كايلة ودمنة (بيروت) ١٩٠١ م
نثر الدرر في المحاضرات للآبي زين الكفاة منصور بن الحسين مخطوط
النثر الفني د. زكي مبارك مصر ١٩٣٢ م
نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري دار الكتب ١٩٤٨ م
نوادر أبي العيناء ومخاطباته د. نعمان طه مطبعة المدني بمصر ١٩٧٢ م
الهجاء والهجاءون د. محمد محمد حسين مكتبة الآداب ١٩٤٧ م
الورقة لأبي عبد الله محمد بن داود الجراح (تحقيق د. عزام)
دار المعارف ١٩٥٣ م
الوزراء والكتاب للجهشياري (تحقيق مصطفى السقا) الحلبي ١٩٤٨ م
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (نشر محمد محيي الدين
عبد الحميد) بمصر ١٩٤٢ م وبيروت ١٩٧٠ م
يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي القاهرة ١٩٣٤ م

Edgar Johnson : Treasury of Satire.
Newyork / 1944.

G. G. Sedjewick Of Irona Especially in Drama Toronto 1948

Sterhen Potter : Sense joy Humouy / Newyork I954.

Harms Worth's Universal Encc / Irany.

The Americana.

La Rouss e

Encylopydia Britanicca

استدراك

- سقط سهواً من ص ٢٠٦ الفقرة الآتية

وقد حذا حذو الجاحظ الشاعر الأندلسى الناثر ابن زيدون (ت ٤٦٣ ه فنهج نهجه فى رسالته الهزلية المشهورة التى بدأها متحدثا بها على لسان ولادة تخاطب الوزيرابن جهور ، ثم انتقل إلى إنطاق إحدى جوارى الوزير متهكمة بابن جهور مخاطبة إياه زاعمة « أن المروءة لفظ أنت معناه ، ! والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ! !

واستأثرت بالكمال ، واستعليت فى مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت أن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك . . .

وهكذا نلحظ أنه حشد فيها كثيراً من الأسماء التى يومىء بها إلى حوادث تاريخية وأحداث مختلفة ، وشخصيات مذكورة فى التاريخ سواء عند العرب أو الفرس أو غيرهم فى الجاهلية والإسلام ، مثل كسرى، وقيصر، والإسكندر وبلقيس، والزباء وغيرهم من القواد والخطباء والشعراء والحكماء والولاة.

وتنبئنا الرسالة بكثرة محفوظ ابن زيدون من روائع الأدب العربى ، وهو ينزع فيها إلى استخدام السجع الاوزدواج .

للمؤلف

* مختارات شعراء العرب لابن الشجرى : وقد أوشك على الصدور في ثوب قشيب .
* ديوان جرير : وقد صدر عن دار المعارف في « ذخائر العرب » سنة ١٩٧٠
* جرير حياته وشعره : « « « « « « مكتبة الدراسات الأدبية » سنة ١٩٦٨ م
* ديوان الحطيئة : في طبعة جديدة ومنقحة .
* هاشميات الكميت : تحت الطبع .
* نوادر أبي العيناء : وهى سخريات طريفة وردود لاذعة . صدر سنة ١٩٧٢
* رسالة التربيع والتدوير للجاحظ : تحت الطبع .
* نثر الدرر في المحاضرات للآبى : تحت الطبع .